جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

العالم الإسلامي وقارة آسيا

في العصور الوسطى

رواد الدراسات الهندية من الرحالة المسلمين

ـ المسعودي ـ البيروني ـ ابن بطوطة أنموذجا

287هـ - 900م / 779هـ 1377م

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم

في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب:

أحمد يسعد

إشراف الأستاذ:

الدكتور أحمد شريفي

2016/2015


بسم الله الرحمن الرحيم

إهــداء

إلى روح الفقيد

الشيخ الخطاط: خادم القرآن

بو عبد الله محمد الجيلالي

طيب الله ثراه

عرفانا وإحسانا

شكر

أتقدم بشكري الخالص إلى أستاذي المشرف الدكتور أحمد شريفي الذي أمدني بخير النصائح وحسن الرعاية والوقوف إلى جانبي والعمل على إنجاح بحثي بتوجيهاته إلى أن صدر هذا العمل وخرج إلى النور، كما أشكر الأستاذ الكريم الدكتور بشار قويدر داعيا المولى عز وجل أن يطيل في عمره ويمده بالصحة والعافية فلم يبخل علينا بكرم التوجيه وسداد النصيحة، والشكر موصول إلى الأستاذ الدكتور عبد العزيز بوكنة الذي وجدته قريبا بنصائحه القيمة، ولا يفوتني أن أشكر الأستاذة الدكتورة عبد الشكور على كرمها العلمي وتوجيهاتها القيمة، مع جزيل العرفان إلى الأستاذ الدكتور موسى هيصام عميد كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بجامعة الدكتور يحيى فارس بالمدية على ملاحظاته الهامة التي أثرت هذا البحث،

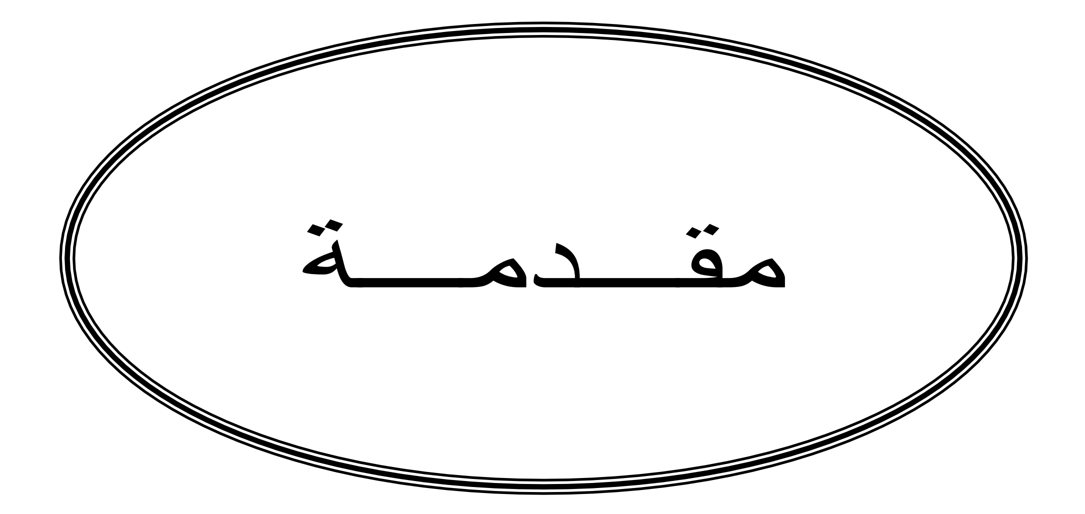
والشكر والتقدير لكل أعضاء لجنة المناقشة، كما لا أنسى كافة الطاقم الإداري والعاملين والزملاء والطلبة والأصدقاء بقسم التاريخ والمركز الثقافي الإسلامي وجميع من أنار لنا الطريق، لكل هؤلاء الشكر الجزيل

ولا أنسى أن أثمن جهود العاملين في المكتبات التي زرناها خاصة: مكتبة جامعة المدينة المنورة، ومكتبة الإسكندرية، ومكتبة معهد التاريخ بالقاهرة، والجامعة العربية، ومكتبة الرباط بالمغرب والخزانة العامة ومكتبة آل سعود بالدار البيضاء، ومكتبة سفارة الهند بالجزائر، وكل المكتبات الوطنية.

فلهم جزيل الشكر على ما قدموه

لجنة المناقشة

الرقم	الأستاذ	الصفة
01	أ.د. قويدر بشار	رئيسا
02	أ.د. أحمد شريفي	مقررا
03	نبيلة عبد الشكور	عضوا
04	أ.د. موسى هيصام	عضوا
05	أ.د. عبد القادر بوعقادة	عضوا
06	أ.د. طالب مناد	عضوا


مقــــدمـــــة

مقدمة:

نشأ في بلاد الهند أحد أبرز الحضارات القديمة أصالة، وكان لها صلات بالمراكز الحضارية الأصيلة في بلاد العرب، ومما يدل على ذلك تماثل الأوجه الحضارية بين الطرفين.

وبعد ظهور الدين الإسلامي في القرن السابع الميلادي (7 م) شهدت العصور الوسطى الإسلامية اللاحقة تطور صلات الهند بالعرب والمسلمين، كما شهدت ترسيخ مبادئ الإسلام ونظامه السياسي هناك، ومن ثم تعزيز تراثها المحلي بالتراث العربي الإسلامي الذي يُعدّ بحق مفخرة للعرب والهنود على حدّ سواء.

ونظرا لأهمية التراث وتداخل عوامله ومكوناته فقد كان من الطبيعي أن يحظى عدد من جوانب هذا التراث وعصوره بعناية من الدراسات العلمية من طرف الرحالة المسلمين الذين استهواهم هذا التراث العظيم، فكانت لرحلاتهم أهمية كبيرة في دراسة الجانب الثقافي والاجتماعي للهند، وأول صيغة رحلية مكتوبة وصلتنا، رحلة سليمان التاجر إلى الهند والصين، وقد امتازت هذه المرحلة بالوصف الصادق للطرق التجارية والعادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية، إذ يعتبر أقدم وصف عربي لأقاليم الهند والصين، ليكون هذا الوصف منطلقا للرحالة الذين أتوا من بعده، وهذا ما سنقف عنده مع الرحالة الدارسين لهذه البلاد كالمسعودي، والبيروني، وابن بطوطة.

ـ أهمية الموضوع وأسباب الاختيار:

ومن خلال هذه المعاني المتنوعة يمكن لنا وضع عنوان لهذه الدراسة سائلين المولى عز وجل التوفيق والسداد معتمدين على بعض مصادر الرحالة المسلمين (المسعودي ـ البيروني ـ ابن بطوطة) التي تناولت حضارة الهند.

وبعدما اطمأنت النفس واستقر الفكر ونتيجة للاستشارة كتبت عنوان هذا البحث باسم: **((رواد الدراسات الهندية من الرحالة المسلمين ـــ المسعودي ـــ البيروني ـــ ابن بطوطة أنموذجا "287هـ ـــ 900م/779هـ 1377م"))**

ومن أهم الدوافع الموضوعية والذاتية التي دفعتني إلى اختياره ما يلي:

01 ـــ إنّ الحياة الثقافية في الهند من منظور الرحالة المسلمين (المسعودي ـــ البيروني ـــ ابن بطوطة) دراسة تحتاج إلى دقة نظر وفهم جيّد انطلاقا من كتاباتهم حولها سواء من حيث الوصف أو من حيث المنهج المتّبع في دراسة هذه الظاهرة ومحاولة إعطاء صورة للهنود في حد ذاتهم لثقافتهم وعاداتهم ومقارنتها بشعوب أخرى.

02 ـــ يعتبر المسعودي من الرحالة القلائل الذين أمدونا بمعلومات وافية عن بلاد الهند، فكان أكثر الرحالة الجغرافيين ارتحالا وأشملهم علما ومعرفة، ورائدا من رواد الدراسات الهندية، وقد وصفه ابن خلكان بإمام المؤرخين، وكان وصفه لثقافة الهند دقيقا خاصة ما تعلق منها بالجانب العقائدي عند الهنود.

03 ـــ أبو الريحان البيروني وهو يقارن ثقافات وعقائد الهند بأسلوب موضوعي غير متعصّب أدرك في زمانه حقوق أصحاب الديانات الأخرى وضرورة الولوج في عقائدهم بطرق علمية تنطلق من الدراسة والاستنباط المحكم من خلال اللغة والعلوم المختلفة التي كان يتفوق فيها الهنود وهو في ذلك يعتمد على مصادرهم التي كان العوام منهم يجهلونها.

04 ـــ يعتبر ابن بطوطة شيخ الرحالين فهو أفضل أنموذج لرحلة السياحة والتجوال، فهو الرحالة الوحيد الذي دخل الهند ومكث فيها قرابة عشر سنوات دون انقطاع وقد شكلت رواياته عن الجوانب السياسية والحضارية للهند أهمية كبيرة لكل من يتصدى للبحث عن تاريخ الهند، كما تعتبر معلوماته أحد أشكال جسور التواصل مع الحضارة العريقة الأخرى في الهند.

05 ــ قوة الهند المعاصرة من الأسباب الموضوعية والحقيقية التي تعود بنا إلى هذا العبقري الذي أدرك حقائق في زمانه لا نعرفها عن هذا المجتمع تنطلق من أسس البنية الاجتماعية المعقّدة للمجتمع الهندي الذي عرف كيف يتحد رغم الإثنيات المختلفة.

07 ــ بالإضافة إلى الأسباب الموضوعية لهذا البحث هناك أسباب ذاتية دفعت إلى الولوج داخل هذا الموضوع وهي متعلقة بإشباع غريزة حب الاستطلاع والمعرفة لبلاد ليس لدينا الكثير عنها، حكمها المسلمون ثمانية قرون ونصف متواصلة وظل المسلمون فيها أقلية رغم طول هذه المدة وبقينا نردد دائما أن هذه البلاد هي بلاد العجائب أو هي بلاد الفيلة، وفقدت كما فقد الأندلس دون أن نعرف أسباب وعوامل هذا الاندثار.

08 ــ دافع الغيرة على هذا الموروث الحضاري الإسلامي عامل آخر يدفعني إلى العودة إلى العصر الوسيط لنكشف دور علمائنا خاصة الموسوعة أبو الريحان البيروني الذي ترك تراثا كبيرا من الواجب العودة إليه حتى ندرك حقيقة ما جرى في بلاد الهند التي زارها عدة مرات وكتب عن عمق حضارتها مبرهنا في كتاباته خاصة " تحقيق ما للهند " ما هو عقلي وما هو مرذول في ثقافة الهند باعتبارها أساس النظم الاجتماعية، والعودة إلى تراث البيروني يمثل مرجعية تاريخية تعرّفنا بعوامل القوة وأسباب الضعف في الحضارة الإسلامية.

ــ إشكالية الموضوع:

من خلال اهتمامات الرحالة المسلمين رواد الدراسات الهندية بالدراسة الحضارية للهند:

ــ فلقد اهتم المسعودي بالحياة العامة في الهند من حيث نشأة الدولة على يد البرهمن الأكبر وتأسيس الحكم الملكي الوراثي كما شهدت البلاد حالة من التشرذم والتجزئة السياسية أدت إلى قيام عدة مماليك ودويلات.

ــ أما البيروني يعتبر من الرحالة القلائل الذين أمدّونا بمعلومات وافية عن بــلاد الهنــد وثقافتها الاجتماعية، بدأت مع الهند حينما دخلها مع قوات السلطان محمود الغزنوي فجال في الهند مدة من الزمن أتيحت للبيروني خلالها فرص كافية كمشاهد ذكي لمشاهد الحيــاة الاجتماعية للهنود ذاتيا، ولدراسة ديانتهم وفلسفتهم وثقافتهم المتنوعة وحضارتهم.

ــ وابن بطوطة يكاد يكون المصدر العربي الوحيد الذي تحدث عن حكم الدولة التغلقيــة وآل تغلق للهند ــ وذلك بإجماع المؤرخين ــ كما أنه يعتبر الرحالة الأمين الــذي كانــت مذكراته تتميز عن غيرها بما يحسه القراء ولا يستطيعون التعبير عنه، فهو الشيخ والفقيه وهو الثقة كما قال عنه العلامة ابن جزي.

فإلى أي حد استطاع الرحالة رواد الدراسات الهندية (المسعودي ــ البيرونــي ــ ابن بطوطة) في إبراز الدور الحضاري المتبادل بين المسلمين والهنود؟

ومن خلال هذه الإشكالية الرئيسية يمكن تفكيكها في عدة تساؤلات فرعية تتمثــل فيما يلي:

ــ هل الكتابة عن الهند والهنود من طرف الرحالة المسلمين ترجع إلى علاقــات معينــة متبادلة ؟ وإلى أيّ مدى كان لثقافة الهند ومجتمعهم نصيب في كتبهم؟

ــ وإذا كانت كتابات الرحالة عن الهند والهنود موضوعية وموثوق بها واحتلــت مكانــا بارزا بين الباحثين والمؤرخين الذين كتبوا حول ثقافة الهند وحضارتها فما هــو المــنهج المعتمد في إدراك حقائق وأبعاد المجتمع الهندي ؟ وهل تمكّن هؤلاء الرحالة فــي تلمــس الحقائق التاريخية عند تطرقهم للثقافة الهندية ؟

ــ وهل وُفّق الرحالة في أن يكونوا أحسن ممثل للعلاقات الثقافيــة بــين الهنــد والعــالم الإسلامي من خلال دراستهم للمجتمع الهندي ؟

ــ الدراسة النقدية للمستندات العلمية:

تعتبر كتب الرحالة المسلمين منطلقُ هذه الدراسة في جوانبها الثقافية والسوسيولوجية ويعتبر المسعودي أبو الحسن علي (227 هــ ــ 841 م / 349 هــ ــ 960 م) من أشهر الرحالة الذين ساحوا في الهند له عدة كتب تناولت المجتمع الهندي أبرزها كتابه " أخبار الزمان " الذي ذكره في " مروج الذهب ومعادن الجوهر " والذي لم يصل إلينا فكان كتابه مروج الذهب مهمّا لما يحتوي من معلومات عن الهند ومدنها وعاداتها وطبقات المجتمع وكنت قد رأيت أن هذا الكتاب هو أوسع الكتب من حيث المعلومات والأخبار التي تناولت موضوع المجتمع الهندي مقارنة مع الآخرين الذين سبقوا أبا الريحان البيروني ولا نجد أحدا بعده إلا البيروني في سعة البيانات عن المجتمع الهندي وحضارته إلى غاية القرن الثامن الهجري سنة (734هــ ــ 1333م) تاريخ رحلة ابن بطوطة إلى الهند.

والرحالة أبو الريحان البيروني(ت. 440 هــ - 1048 م) الذي دوّن رحلته في كتاب " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " هذا الكتاب الذي فرغ من تأليفه عام 423 هــ الموافق لــ 1031 م وكان قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره، والنسخة التي كتبها أبو الريحان البيروني بنفسه من هذا الكتاب عام 423 هــ قد ضاعت وكانت تقع في 700 ورقة وأقدم نسخة خطية موجودة له يرجع تاريخها إلى عام (554 هــ – 1160 م) أي بعد مرور131 عاما على تأليف البيروني له، وقام بنشر هذا الكتاب الكبير المستشرق الألماني إدوارد سخاو Edward C.sachaw عام 1887 م بعد أن اطّلع على كافة النّسخ الخطية الموجودة له وبذل جهدا كبيرا في إخراجه وقدم له بمقدمة طويلة قيّمة وقد أفردنا في هذه الدراسة مطلبا في الفصل الثاني حول هذا الكتاب ودوافع تأليفه وأهم مضامينه والمنهج التأليفي المتبع فيه، وفي دراستنا اعتمدت على نسخة مطبوعة في حيدر آباد بالهند عام 1958 م ونسخة حديثة مطبوعة ببيروت عام 1983 م،

كما استعنت في هذه الدراسة بمجموعة أخرى كتبها البيروني خاصة كتاب " الآثار الباقية من القرون الخالية " الذي نشره إدوارد سخاو Edward C.sachaw ووضع له مقدمة قيّمة بالإضافة إلى كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، القانون المسعودي في الهيئة والنجوم، كتاب الصيدلة، وقد وضحت في الفصل الثاني جميع الكتب التي تم طبعها وهي متوفرة سواء المحققة منها أو غير المحققة المتعلقة بالبيروني، والملفت من هذه المصادر الأساسية أنّ هذه الدراسة ارتكزت عليها خاصة في الفصل الثاني والثالث من هذا البحث.

والرحالة ابن بطوطة (ت.779 هـ) الذي دوّن رحلته بعد أن بدأت جلسات الاستماع في قصر السلطان بين ابن بطوطة راويا وابن جزي مستمعا ومدونا وذلك في عام (756 هـ/ 1356م) واستمر العمل طيلة ثلاثة شهور من الترتيب والتنقيح حتى خرجت الرحلة بشكلها الحالي بعنوان: " تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

بالإضافة إلى الكتب التي ذكرنا أسمائها وأصحابها هناك كثيرون كتبوا حول الهند وعن البيروني ومحمود الغزنوي ومنهم ابن النديم الذي يعد كتابه "الفهرست" من المصادر الموثوق بها حول الديانات والطبقات الدينية للهند، وكتاب "الملل والنحل" للشهرستاني الذي يعطينا بيانات تفصيلية عن التاريخ والفلسفة والطبقات الدينية للهندوس... وغيرهم كثير في هذا الميدان الذين استعنا بهم في هذه الدراسة سواء من حيث التحليل والمقارنة أو من حيث الوصف عندما تطرقنا إلى ثقافة الهند من خلال البيروني وحتى بالنسبة للمؤرخين والباحثين في العصر الحديث وخاصة المستشرقين منهم الذين بذلوا جهدا كبيرا في البحث والتنقيب في هذا المجال فإنّ مؤلفاتهم لم تخرج عن دائرة هؤلاء الرحالة والجغرافيين السابقين للوصول إلى النتائج المراد تحقيقها من البحث بالإضافة إلى أبرز الدراسات التي قام بها الهنود حول البيروني التي نشرها المجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنيودلهي من سنة 1952م إلى آخر دراسة وقفت عندها في 2008 م في المجلد 59 العدد1-2. وكان

عنوان هذه الدراسات: الهند كما يراها أبو الريحان البيروني للدكتور شفيق أحمد خان الندوي رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المِلّية الإسلامية بالهند.

ـ الأهداف المرجوة ومنهجية البحث:

وللوصول إلى عرض الحقائق عرضا صحيحا واستنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين العلمية الواضحة، يتوقف ذلك على قيمة المنهج المتبع وأهميته بالنسبة لطبيعة البحث الذي نحن بصدد دراسته والذي من خلال طبيعة المشكلة والأسئلة الفرعية الخاصة به والإطار النظري للبحث وحدوده والتصور الممكن فيه ومصطلحاته ولتحقيق كل ذلك والوصول إلى النتائج المرجوة اعتمدت على الخطوات التالية :

1 ـ جمع البيانات والوثائق اللازمة التي لها صلة مباشرة بالموضوع مع نقد مصادر البيانات نقدا داخليا والمعروف بنقد التأويل (أو نقد المصداقية) أي نقد المحتوى والعوامل التي تحكمت في التأليف.

2 ـ العمل على تحديد زمان هذه البيانات ونقدها خارجيا وترتيبها من حيث الأهمية والأقدمية وتقييم حالتها من حيث الأخطاء في النسخ والأسلوب، وهذا العمل مجهد وإن كان كتابنا " تحقيق ما للهند " قد وفر علينا المستشرق إدوارد سخاو Edward C.sachaw جهد الإخراج والطبع لكنه غير محقق ليومنا هذا.

3 ـ انطلاقا من هذه البيانات المصنفة اعتمدت على منهج عام مركب يمكنه تحقيق الغرض للوصول إلى النتائج معتمدا على تشخيص الأحداث ووصفها اعتمادا على النصوص التاريخية المصنفة عندي من المصادر الأصلية فكان المنهج الوصفي في الفصل الأول هو السائد وإن كان ذلك لا يحقق المطلوب فاعتمدنا على منهج آخر في الفصل الثاني والثالث والرابع وهو المنهج التحليلي المقارن الذي يعتمد على فهم

النصوص وتحليل مضامينها ومقارنتها وجعلها تتحاور فيما بينها للوصول إلى المقاربة واستنتاج المعطيات واستخلاصها. ولم يكن أن نصل إلى ما وصلنا إليه لولا لجوءنا إلى الدراسات المرتبة المتعلقة بالموضوع خاصة الدراسات الهندية منها التي كشفت عن كثير من الاستنتاجات.

ـ الخطة المتبعة في البحث:

تناولت في هذه الدراسة الموضوع في أربعة فصول وخاتمة وكنت قد سبقت هذه الفصول بمدخل حول تاريخ الرحلة والاستكشاف عند المسلمين فتناولت مفهوم الرحلة ونشأتها ونبذة عن الرحلات قبل الإسلام.

الفصل الأول: تناولت في هذا الفصل أنواع رحلات المسلمين إلى الهند والبلاد الأخرى وقسمته إلى ستة مباحث: الأول تحدثت فيه عن الرحلات التجارية بين الهند والعالم الإسلامي، والثاني: الرحلات الجغرافية التي مثلت النضج التام خلال القرن العاشر الميلادي بوصفها للمدن والطرق والبحار... أما المبحث الثالث تحدثت فيه عن الرحلات الرسمية والمهمات وهو نوع من الرحلات التي ظهرت مع الدولة العباسية، المبحث الرابع: الرحلات الدينية بتناول وصف الأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين وعن شعائر الحج وغيرها، والمبحث الخامس: الرحلات العلمية مثل الفلك والتنجيم والرياضيات والطب...، المبحث السادس: رحلات تاريخية والتي تعتبر شاهدا حيا على كثير من الأحداث والوقائع في تاريخ الأمم.

الفصل الثاني: تناولت فيه صورة الهند من خلال مدونات المسعودي، قسمته إلى ثلاثة مباحث، المبحث الأول: عصر المسعودي وسيرته بذكر مولده ونسبه وتعليمه وشيوخه، المبحث الثاني: رحلة المسعودي وتعرضت فيه لأسباب الرحلة وأغراضها ومصادر معلوماتها، المبحث الثالث: قيمة الرحلة في تاريخ الهند.

أما الفصل الثالث: وقد خصصناه لدراسة المجتمع الهندي مـن منظـور أبـو الريحـان البيروني منطلقين من الأبعاد الثقافية لهذا المجتمع كما تناولها الرحالة البيرونـي، وقبـل تناولنا لهذه الجوانب تطرقنا في المبحث الأول إلى الرحلة في حد ذاتها، الدوافع والظروف التي جاءت فيها حتى نجيب عن الكثير من الأسئلة والجدل الذي أثارته هذه الرحلـة ولـم نكتف بما كتبه الدارسون العرب من القدامى أو المحدثين، وقد أخـذنا عـن الدراسـات الشرقية والإستشراقية التي تناولت الرحلة إلى الهند حتى ندرك ظروفها وأبعادها ونقارنها مع الآخرين. أما المبحث الثاني في هذا الفصل فقد تناولت فيه منهج البيروني في دراسته للمجتمع الهندي وركزت على الجوانب الثقافية ذات الأبعاد الاجتماعية التي تناولهـا أبـو الريحان في هذه الرحلة مثل الجانب الديني العقائدي في الهند، وطبقات المجتمع الهنـدي، وفكرة التناسخ وبعض من شعائرهم المقدسة، كما تطرقت إلى علوم أهـل الهنـد وأهـم التخصصات التي أفرد لها البيروني مجالات واسعة مبرزا أهم مصـادرها التـي عجـز الهنود أنفسهم في الوصول إليها.

الفصل الرابع: تعرضت لدراسة صورة الهند من خلال رحلة ابن بطوطة وقسـمته إلـى مبحثين، فالمبحث الأول: عصر ابن بطوطة وسيرته، المبحث الثاني: رحلتـه والـدوافع المؤدية لها واتجاه الرحلة بدراسة المظاهر السياسية والحضارية في الرحلة.

وختمت هذه الدراسة بمجموعة من النتائج المرتبة حسب كل فصل حتـى نـدرك الحقائق التي أردنا أن نصل إليها في هذا البحث.

صعوبات البحث:

أثناء إنجازي لهذا البحث واجهتني معوقات أراها طبيعية في طريق الباحث المبتدأ خاصة في مرحلة جمع المادة العلمية مع انعدام وسائل النسخ في مكتباتنـــا ممّـــا يكلــف الباحث الكثير من الوقت والجهد الذي كان بالإمكان تجنبه، لكن ما صعّب علـــيّ مهمتـــي والتقدم في بحثي هو ضخامة الكتب الذي ارتكزت عليها دراستي والذي تطلب مني جهدا مضاعفا لقراءتها وتلخيصها وما شدني في هذه الكتب هو غزارة المعلومات التي صـــعب عليّ في كثير من الأحيان فك شفرتها إلا بالقراءة المكررة، وحتى يكون بحثي متوازنا من حيث الفصول عملت بصعوبة بالغة على استخراج مـــا لـــه علاقـــة بالجانـــب الثقـــافي والاجتماعي في الهند مركزا على ما أكده الرحالة في هذا الجانب وهم موجـــودون فـــي الهند لأن كثير من الجوانب التي تطرقوا إليها هؤلاء الرحالة اعتمدوا في كتابـــاتهم علـــى كتب الهنود.

وعليه أقول أن هذه الدراسة لم تغطي جميع الموضوع بل جانبـــا ضـــئيلا منـــه لغزارة المادة وتنوع مصادرها عند الرحالة مما يحفزنا للبحث في هذا التراث الكبير الذي تزخر به مناطقنا في العالم الإسلامي خاصة مناطق آسيا الوسطى والشرقية وشبه جزيرة الهند حيث لا تزال الدراسات شحيحة في هذا المجال في العالم العربي مقارنة بما تقوم به الجامعات والمعاهد الهندية مثل المجلس الهندي للعلاقات الثقافية نيودلهي وهذا ما يجعـــل هذا الموضوع مجالا رحبا للبحث فيه والتنقيب في معارفه.

الفصل التمهيدي

تاريخ الرحلة والاستكشاف عند المسلمين

ـ مفهوم الرحلة ونشأتها

ـ الرحلات قبل الإسلام

ـ الرحلات في صدر الإسلام

تاريخ الرحلة والاستكشاف عند المسلمين

01 ــ مفهوم الرحلة ونشأتها:

الرحلة في اللغة: الترحيل والارتحال بمعنى الإشخاص والإزعاج، يقال: رحل الرجل إذا سار[1] فالرحلة هنا بمعنى السير والضرب في الأرض وجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر، ولهذه المعاني كان لفظ "رحلة" يطلق على من انتقل إلى مكان آخر ومنه أخذ لفظ رحّال وهي كلمة أشمل مما يطلق على المسافر، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة.

وللرحلة عبر التاريخ أهمية بالغة حيث تضافرت دواع وأسباب مختلفة حضّت الناس على التنقل فكثرت الرّحلات وتنوعت بتنوع حوافزها ومقاصدها، وجاب الرّحالة كل الأرض المعمورة في أزمانهم.[2]

وقد حفظ لنا التاريخ هذه الرحلات في كل عصر من عصوره الغابرة وسجّل في صفحاته مغامرات الرحالين ومعاناتهم بدليل ما حفظته الرسوم المماثلة والنقوش المحفورة في الكهوف والمعابد، فتاريخ مصر الفرعونية بيّن لنا أن الفراعنة في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد كان لهم رحلات عديدة إبّان حكم الأسرة السادسة التي أسسها الملك "تتي" وكان رحالة يدعى "خنوم حوتب" من أشهر رحلاتهم.[3]

ثم لمع نجم الفينيقيين الذين كانوا روادا في رحلاتهم البحرية بحيث سيطروا على بحر الروم وهي التسمية القديمة للمتوسط، وتمكّن الرحالة الفينيقيون من ركوب المحيط الأطلسي وبلوغ سواحل إفريقية الغربية، بالإضافة إلى ما وصل إلينا من رحلات قام بها

---

1 ابن منظور: **لسان العرب**، ج.11، ص.276. الفيروز أبادي: **القاموس المحيط**، ج.3، ص.344.

2 مصطفى سالم عبد الله حبلوس: **أدب الرحلات عند العرب**، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2009، ص.07.

3 رحاب خضر مكاوي: **رحلة أبي يوتة الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي**، دار ابن زيدون، لبنان، 1996.

اليونانيون على ما ذكره الرحالة هوميروس الذي كان مولعا بركوب البحر، حيث وصف رحلته الطويلة في رائعته الإلياذة والأوديسة [1] ثم تبعه سيلاكوس الذي قام برحلة إلى المغرب وإفريقيا عبر المحيط وجاء بعده أرتيميذورس الذي زار إسبانيا وسواحل إفريقيا ومصر ووضع موسوعة جغرافية أضاف إليها ما دوّنه غيره من الرحالة الأولين.

ومن أشهر الرحالة اليونانيين الذين زاروا الهند عبر البحر يودكسوس وهبّالوس الذي يُعدّ أول من اكتشف الاستفادة من إعادة الرياح الموسمية في ركوب البحر إلى سواحل الهند.[2]

1 تعتبر الإلياذة والأوديسة أهم ملحمتين شعريتين في التاريخ القديم ويقال أن مؤلّفهما هو هوميروس، وترويان قصة حصار مدينة طروادة عام 1200 ق.م. وتدور أحداثهما حول الآلهة والبشر. وصوّرهما هوميروس في شكل ساخر وبين فيها أن البشر يتأثرون بالصلاة. ولهم إرادة حرة يصنعون من خلالها قراراتهم ويتحملون أخطاءهم. والملحمتان يكملان بعضهما، تحكي الإلياذة قصة الأيام الواحد والخمسين الأخيرة من السنة العاشرة لحصار الإغريق الآخيين لطروادة، وتدور أحداثها حول غضب آخيل (أميرال إغريقي) ورفضه الاشتراك في القتال بسبب خلاف وقع بينه وبين أجممنون قائد الحملة وتذكر الإلياذة انقسام الآلهة إلى مؤيدين للآخيين ومؤيدين للطرواديين مما دفع أجممنون إلى محاولة استرضاء آخيل ولكن هذا الأخير يرفض رجاء صفيه بتروكلوس. ويذهب بتروكلوس إلى القتال وهناك يقتل على يد هكتور أمير الطرواديين، فتثور ثائرة آخيل، ويقسم على الانتقام لصاحبه ويبر بقسمه بعد صدام بطولي مع هكتور. ويمثل آخيل بجثة غريمه ولا يتركها إلا بعد استعطاف الأب المكلوم برياموس (ملك طـــروادة).

أما الأوديسة فتتحدث عن مغامرات أوديسيوس أثناء عودته للوطن بينما زوجته المخلصة تتصدى لمحاولات الإغراء لطرح هذا الوفاء جانبا واختيار زوج جديد وهذه الملحمة تضم 24 نشيدا ويضمون 12000 بيتا تقريبا. وبالإضافة إلى مميزات الإلياذة تتسم الأوديسة بوحدة فنية أعمق كما تنطوي على معنى خلقي سام.

ظلت الإلياذة والأوديسة تتمتعان بتقدير الإغريق في العصر الهيليني، فقد ذكر أحد أضياف إكسنوفون "تمنى أبي أن أصبح رجلا فاضلا فأمرني أن أحفظ أشعار هوميروس عن ظهر قلب". وظل الأمر كذلك حتى نهاية العصر المتهيلن ويكفي الذكر أن طاغية أثينا بيزستراتوس في القرن السادس ق.م شكل لجنة مهمتها تخليص الإلياذة من الشوائب، كما كانتا ملحمتا هوميروس هما كتابا الاسكندر الفضلين، والمعروف أيضا أنهما كانتا تدرسان لتلاميذ مصر في القرن الرابع الميلادي.

2 رحاب خضر مكاوي: **رحلة بن يوتة الأندلسي إلى بلاد المشرق الإسلامي**، دار ابن زيدون، لبنان، 1996.

وسادت الإمبراطورية الرومانية بعد الإغريق وساحوا في آفاق الأرض في قارة آسيا وإفريقية ووصلوا إلى الهند والشرق الأقصى وكانت رحلاتهم ومشاهداتهم من أهم مصادر التاريخ من مثل كتاب "التاريخ الروماني" لتيطس ليقيوس و"التعليقات" ليوليوس قيصر.

وإذا استثنينا رحلة هوميروس إلى طروادة في القرن العاشر قبل الميلاد ورحلة هيرودوت التي قادته إلى ممفيس وطيبة في القرن الخامس قبل الميلاد ورحلات الحجاج النصارى بعد الميلاد إلى بيت المقدس يمكن أن نقول أن العرب هم من سيحتكر الرحلة والاستكشاف بعد ذلك خاصة مع ظهور الإسلام.[1]

02 ــ الرحلات قبل الإسلام:

أ ــ رحلات العرب داخل الجزيرة:

عرف العرب السفر ومارسوا الترحال في شبه الجزيرة وسافروا إلى البلدان المتاحة لهم، وقاموا برحلتي الشتاء والصيف اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم في قوله تعالى: { **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2)**}[2] ، وقد أفردت هذه السورة بكاملها للحديث عن الرحلة، وهي رحلة قريش التجارية، فكما هو معلوم أن مكة بحكم موقعها بواد غير ذي زرع كما قال تعالى : { **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** }[3] فموقعها جعلها منطلق التجارة، وأظهرت سورة

---

1 إسماعيل العربي: تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص.05.

2 سورة قريش، الآيتان 1– 2.

3 سورة إبراهيم، الآية 37.

قريش بوضوح رحلتيها إلى الشام واليمن التي جنت منهما أرباحا طائلة انعكست على أوضاعها الاقتصادية وغدت ذات مركز مالي خطير في الحجاز وسوقا لتبادل السلع، ولم يكن هدفها من الاستيراد الاكتفاء الذاتي فقط، بل قامت بتصدير الفائض عن حاجتها إلى أطراف السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والشام واليمن والسواحل الإفريقية المقابلة حيث بلغت أحمال كل قافلة لتلك الجهات أكثر من ألف بعير[1] إلى جانب أن أكثر تجَّارها من أهل بيت الله الحرام ــ أي سدنة ــ هذا البيت الذي زادت مهابته بعد حادثة الفيل فلم يجرؤ أحد بالتطاول على تجار مكة، إذ أن الله تعالى منّ عليهم بهذا الأمان كما جاء في سورة قريش.[2]

ويعتبر شعراء العرب هم مؤرّخو هذه الرحلات فقد وصفوا باستفاضة مشاهداتهم، والمدن التي ارتادوها في ربوع جزيرتهم سواء كانوا قادمين إلى مكة أو خارجين منها بدافع الحج أو التجارة.[3]

وكانت منابرهم هي أسواق اشتهرت في جزيرة العرب مثل سوق عكاظ[4]،

---

1 جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج.7، جامعة بغداد، ص ص. 290 ــ 291.

2 عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، الطبعة الثاني، مكتبة الملك فهد، الرياض، 1417 هــ/1993م، ص. 30.

3 لمعرفة أوصاف الشعراء العرب قبل الإسلام لمدنهم ومشاهداتهم يمكن العودة إلى امرئ القيس بن حجر: **ديوان امرئ القيس**، تحقيق علي إبراهيم أبو زيد، الطبعة الأولى، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1993، ص ص. 245 ــ 246. وكتاب طرفة بن العبد: **شرح ديوان طرفة بن العبد**، تحقيق سعدي الضناوي، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997، ص ص. 92 ــ 93. وكتاب وهبة رومية: **الرحلة في القصيدة الجاهلية**، مؤسسة الرسالة، 1979، ص.22.

4 **عكاظ:** اسم سوق من أسواق العرب كانت قبائل العرب تجتمع به كل سنة ويتفاخرون فيه ويحضرها شعراؤهم لإلقاء قصائدهم الشعرية ثم يتفرقون، وهو أعظم أسواق قريش والعرب ويستمر طوال شوال، وعكاظ نخل من واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال وهو أرض واسعة شرق الطائف بميل نحو الشمال خارج سلسلة الجبال المطيفة به وتبعد تلك الأرض عن الطائف مسافة 35 كم تقريبا. انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.4، ص.142. جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج.7، ص. 378. حمد الجاسر: موقع عكاظ، ج.3 ، **مجلة العرب**، رمضان 1388 هــ / ديسمبر 1968م، ص ص.1138 ــ 1158.

وذي مجاز[1]، ومجنة[2]، ودومة الجندل[3]، وعمان[4]، وهجر[5]، والمشقر[6]، وصنعاء[7]، وحضر وحضر موت[8]، وحُباشة[9]، وبدر[10]، وبني قينقاع[11] وغيرها.

ب ــ رحلات العرب خارج الجزيرة:

ذكرنا مشاهدات الحجاج والتجار والشعراء وهم أكثر الناس وصفا وتعبيرا لرحلاتهم قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية، أما خارجها فقد تنوعت رحلاتهم بين

---

1 **ذي مجاز:** موضع سوق بعرفة ، تقيم فيه العرب في الجاهلية ثمانية أيام من ذي الحجة بعد انصرافهم من سوق مجنة. انظر ياقوت الحموي: نفس المرجع، ص.54. جواد علي: نفس المرجع، ص. 39.

2 **مجنة:** اسم سوق للعرب كان في الجاهلية وهو بمر الظهران قرب مكة يقال له الأصفر وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها وكان العرب يقيمون فيه عشرين يوما من ذي القعدة. انظر ياقوت الحموي: نفس المرجع ، ص ص. 58 ــ 59 .جواد علي: نفس المرجع، ص 38.

3 **دومة الجندل:** حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء ودومة الجندل من القريات من وادي القرى ويكون سوقها خلال شهر ربيع الأول. انظر اليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، ج.1، ص.27.ياقوت الحموي: المرجع السابق، ص. 487.جواد علي: المرجع السابق، ج.8، ص.159.

4 **عمان:** اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند من شرقي هجر تشمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزرع. انظر ياقوت الحموي: نفس المرجع، ص.150. جواد علي: نفس المرجع، ص.159.

5 **هجر:** مدينة وهي قاعدة البحرين وقيل ناحية البحرين كلها هجر. انظر: ياقوت الحموي: نفس المرجع، ص.393.

6 **المشقر:** حصن بين نجران والبحرين وهي تل عال ويقابلها حصن بني سدوس وقيل حصن بالبحرين عظيم ويقوم سوق المشقر في جمادى الأولى. انظر اليعقوبي: المرجع السابق، ص.27. ياقوت الحموي: نفس المرجع، ص.134. جواد علي: نفس المرجع، ص.159.

7 **صنعاء:** مدينة قديمة باليمن بينها وبين عدن 68 ميلا وهي قصبة اليمن وأحسن بلادها ويقوم بها السوق في النصف من شهر رمضان. انظر اليعقوبي: نفس المرجع، ص. 271. ياقوت الحموي: نفس المرجع، ج.3، ص.426. جواد علي: نفس المرجع، ص. 159.

8 **حضر موت:** ناحية واسعة من شرقي عدن بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف وبها قبر هود عليه السلام وهي مخلاف من اليمن بينه وبين البحر رمال. انظر ياقوت الحموي: نفس المرجع، ج.2، ص.27. جواد علي: نفس المرجع، ص. 159.

9 **حُباشة:** سوق من أسواق العرب في الجاهلية وهو سوق بتهامة وهو سوق لقينقاع. انظر ياقوت الحموي: نفس المرجع، ص ص. 210 ــ 211.

10 **بدر:** ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار ساحل البحر ليلة وكان بها الواقعة المباركة التي أظهر الله بها الإسلام في شهر رمضان 2 هــ / 623 م وبين بدر والمدينة سبعة بُرد. انظر ياقوت الحموي: نفس المرجع، ج.1، ص. 357. جواد علي: نفس المرجع، ص. 159.

11 **بني قينقاع:** اسم شعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة أضيف إليهم سوق كان بها يقال له: سوق بني قينقاع. انظر ياقوت الحموي: نفس المرجع، ج.4، ص. 424. جواد علي: نفس المرجع، ص. 159.

التجارة أو طلب النصرة أو حَظوة يريدونها من ملك أو حاكم، فهذا امرئ القيس الشاعر الجاهلي صار إلى قيصر الروم " فأكرمه ونادمه واستمد منه العون فوعده بذلك" [1] وكان الأعشى والنابغة الذبياني يمثّلان صورة مشرقة تبرز كثرة الترحال والسفر ممّا أكسبهم معرفة جيدة بدول الثّغور في شمال الجزيرة. [2]

وما هذه الإشارة إلى شعراء الجاهلية إلا دليل على تعدد الرحلة والأسفار في ربوع الجزيرة وخارجها، وكانت أوصافهم وحكاياتهم دافعا إلى الترحال واكتشاف الآخر.

ويعتبر الموقع الجغرافي للجزيرة العربية عاملا معينا على ركوب البحر، حيث كان العرب قبل الإسلام بوقت طويل كغيرهم من الأمم يصنعون القوارب ويمخرون عباب المياه سواء للصيد أو طلبا للؤلؤ والأحجار الكريمة، ثمّ لا بد وأنّهم طوّروا من سفنهم حتى صارت قادرة على التوغّل في أعماق المحيط الهندي شرقا وغربا.[3]

لقد بدأت رحلات العرب خارج الجزيرة مع البلاد المجاورة نحو شواطئ شمال إفريقيا الشرقية وشاطئ الشمال الشرقي حيث كان الاتصال عبر المياه المغلقة في البحر الأحمر والخليج العربي بمركزين من أقدم مراكز الثروة والحضارة في العالم وهما مصر وإيران، وكانت هذه الرحلات بدافع تجاري محض، وبات العرب يطلّون من كلا جانبي جزيرتهم على طريقين من أهم الطرق التجارية الكبيرة التي ربطت عرى الاتصال بين المدنيات القديمة آنذاك، وظهر ذلك جليا في رحلات مصر الفرعونية في البحر الأحمر

---

1 أبو الفرج الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج.1، دار الثقافة، بيروت ــ لبنان، 1972، ص.8.

2 اغناطيوس كرتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ج.1، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ــ مصر، 1963، ص. 44. PDF. وحول النابغة الذبياني يمكن العودة إلى ديوان النابغة الذبياني، تحقيق علي بوملحم، الطبعة الأولى، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1991، ص. 42.

3 مصطفى سالم عبد الله حبلوس: **أدب الرحلات عند العرب**، الطبعة الأولى، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، 2009، ص. 30.

إلى بلاد " بُنت" [1] ورحلات أهل كريت والفينيقيين في البحر الأبيض المتوسط، ورحلات العرب في الخليج العربي والمحيط الهندي.[2]

ويبدو أن استعمال المصريين القدامى للتوابل العربية في عملية التحنيط [3] وتقديم القرابين أدل على كثرة الرحلات التجارية المتبادلة [4] وقد أكد أحد المستشرقين في أبحاثه حول حضارة العرب إذ قال: « فقد كان للعرب في الوقت الذي كانت أوربا فيه تشكّ في وجود بلاد الشرق الأقصى ولا تعرف من إفريقية سوى بعض شواطئها، علائق تجارة بالهند والصين وإفريقية الداخلية وبأقسام أوروبا النائية».[5]

ويبدو أن اتصال تجار مكة بالحبشة والصومال كان يتم عن طريق آخر غير طريق اليمن البرّي، هو طريق البحر وقد كان لمكة ميناء على البحر يسمّى الشُعيبة [6] وكان تجار مكة يستعملون هذا الميناء والمرافق القريبة منه في رحلاتهم للاتصال بالحبشة والصومال ومصر أيضا، ولعل هذا الميناء هو الذي ارتحل منه المهاجرون الأوائل إلى النجاشي مع بداية الإسلام.

ومن الأمم العربية التي تمدّنت قبل الإسلام وأخذت بحظّ وافر من ذلك الأنباط أصحاب مدينة البتراء بين فلسطين وشبه جزيرة سيناء، وكانت رحلاتهم واسطة عقد بين

---

1 **بُنت:** لعلها ساحل الصومال الذي يواجه الجزيرة العربية، جورج حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، 1958، ص ص. 59 ـــ 60.

2 صلاح الدين الشامي: **الرحلة عين الجغرافية المبصرة**، الطبعة الثانية، دار المعارف، الإسكندرية، 1999، ص. 52.

3 جواد علي: المرجع السابق، ج.1، ص ص. 385 ـــ 397.

4 غستاف لوبون: **حضارة العرب**، الطبعة الرابعة، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى الباي وشركاه، 1964، ص. 553.

5 جاء في قرطاس هريس المحرر في عصر رمسيس الثالث ما يفيد أن شجر المر استحضر عام 1250 ق.م إلى مصر من بلاد العرب، وإن هذا الملك غرسه في معبد " أمون رع " بطيبة الغربية، نظرا لحسنه وذكاء رائحته. انظر ليلى بوم ريش: التحنيط في مصر القديمة، **مجلة الدراسات التاريخية**، جامعة الجزائر 2، العدد 15 ـــ 16 ، 1434 هـــ / 2013م.

6 **الشعيبة:** هو مرفأ من ساحل بحر الحجاز وهو مكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدّة، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج3، ص.351.

المشرق والمغرب من خلال نشاطهم التجاري الملحوظ [1]، وساعد مدينتهم البتراء على ازدياد أهميتها مركزيا في ملتقى طرق تجارية من العراق شرقا واليمن جنوبا وسوريا وفلسطين شمالا ومصر غربا وقد أثرى عرب الأنباط ثراءً طائلا بسبب اعتمادهم على الرحلات.[2]

جـــ ـــ العلاقات بين العرب والهند قبل الإسلام:

ما دام موضوع الدراسة متعلق بالهند ارتأينا من الواجب الإشارة إلى هذه الرحلات قبل الإسلام وبعده وكيف ارتسمت هذه العلاقات مع هذه البلاد التي سيكون لها شأن كبير عند المسلمين بعد فتحها.

ومن الطبيعي أن يكون التجار والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر صلة بالهنود كما كانت لهم معرفة ودراية بالمدن الهامة الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب حتى في العصور البدائية للتاريخ. [3]

ومن العرب الذين اشتغلوا بالتجارة قريش ذات النشاط التجاري الواسع وكانت تبعا لذلك كثيرة الرحلات والأسفار، فرحلة الشتاء التي ذُكرت في القرآن الكريم كانت تتجه إلى اليمن ومنها إلى الهند وكان هؤلاء التجار يعودون بحاصلات الهند من ذهب وأحجار كريمة وعاج وخشب وصندل وتوابل ومنسوجات حريرية والأرجون والزعفران.[4]

---

1 جرجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج.1، طبعة، دار الهلال، القاهرة، مصر، دت، ص.27.

2 مصطفى سالم: **أدب الرحلات**، المرجع السابق، ص ص. 33 ــ 34.

3 William Wilson Hunters: **A History Of British**, Vol 1, gmans Green, London, 1969, P.25.

4 فليب حتي: **تاريخ العرب مطول**، الطبعة الرابعة، بيروت، 1965، ج.1، ص. 45. ينظر سعيد الأفغاني: **أسواق العرب في الجاهلية**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1993، ص. 149.

ويظهر الاختلاط بين الهنود والعرب من خلال دخول كلمات هندية إلى اللغة العربية إما بصفة مباشرة أو غير مباشرة [1] مثل كلمة الهند التي اختارها العرب لتسمية بناتهم كما أطلقوا اسم "الهندواني أو المهنّد" على السيوف الهندية، كما وردت أسماء هندية في القرآن الكريم مثل الزنجبيل "أصلها زنجبيرا" والمسك أصلها موسكا... وسمى العرب الخشب المعطر شندن " بالصندل " ودهوب " بالعود ".[2]

وقد رجّح أحمد أمين أن تكون جاليات هندية قد سكنت المناطق العربية خاصة السواحل الجنوبية والشرقية لبلاد العرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ومجموعة أخرى سكنت اليمن وأبله في العراق واليمامة [3] وسيكون لهذه الجاليات الهندية دورا حيويا في التاريخ السياسي للعصور الأولى للإسلام.[4]

ومن خلال ما سبق يظهر لنا مدى حجم الاتصال الوثيق بين العرب وبين ما جاورهم من الشعوب والبلدان، وكانت الرحلات المتبادلة بينهم تجارية في كثير من الأحيان، ومن هنا تظهر الإرهاصات الأولى لنشأة الرحلة وتطورها عبر الأزمنة مما جعلها الوسيلة الأكثر ترسيخا للعلاقات بين الأمم، وقد ساهمت الرحلات التجارية في إثراء طبقة من العرب مما جعلهم في رخاء اقتصادي زاهر دفعهم إلى ركوب البحر والبر شرقا وغربا في رحلات متواصلة عادت إلينا بأخبار متنوعة منها الطريف والعجيب في آن واحد، وزاد العرب إقبالا على السفر بل جعله واجبا دينيا مما سيعطي للرحلة أبعادا أخرى من حيث المجال الجغرافي وتنوع الرحلة في ذاتها.

---

1 أحمد مقبول: **العلاقات الهندية العربية**، تر: نقولا زيادة، طبعة بيروت، دار المتحدة، 1974، ص.02.

2 شيث محمد إسماعيل الأغطسي: **الجوانب الدينية والاجتماعية للعلاقات الهندية العربية**، مجلة ثقافة الهند، المجلد 52، فيفري 2001، ص. 101.

3 أحمد أمين: **فجر الإسلام**، طبعة بيروت، دار الكتاب المغربي، 1969، ج.1، ص.13.

4 إسماعيل الندوي: **تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفتح، د.ت، ص ص. 36 ــ 39.

03 ـــ الرحلات في صدر الإسلام:

أ ـــ الإسلام والرحلات:

ذكرنا فيما سبق أن الرحلات في عهد الإسلام أخذت مفهوما آخر لعلاقة بروح الإسلام التي تشجع على التنقل والترحال وعدم الخضوع لممارسات الظالمين والمتألهين والمستبدين، ولسعة الرزق ومراغمة الأعداء، والانعتاق من حالة الذل والاستضعاف فقد جاء في القرآن الكريم {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.[1]

فالرحلة هي هجرة إيجابية ديناميكية تحمي الذات من السقوط وتضمن لها كسب الرزق واستمرار العطاء وتفتح لها الآفاق المغلقة وتحقق الأهداف المرجوة وهي سنة تاريخية سنة الأنبياء ووسيلة المصلحين ومعقد رجاء الرواد والعلماء، ذلك أنها تحمل إلى مجالات أرحب وتبصّر بآفاق أوسع وثقافات أكثر تنوعا [2]، وتمكّن من الإطّلاع على عوالم أغنى وأثرى، وهي ليست بالضرورة تأتي ثمرة للإكراه والاستبداد والاستضعاف والمطاردة أو تكون إجبارية وجماعية، فقد تكون اختيارية وتكون فردية وقد تكون سياسية أو اقتصادية، وقد تكون رحلة علمية معرفية مقصدها طلب العلم، لكن أبرز رحلات المسلمين كانت دينية دعوية تهدف إلى إبلاغ فكرة ونشرها وحمايتها [3] حيث كان نشر الدعوة الإسلامية دافعا قويا للأسفار وكثرة الرحلات عند العرب المسلمين، وقد تدافعوا

---

1 سورة النساء، الآية 100.

2 انظر أحمد يسعد: **ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني**، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2014.

3 محمد عبيد حسنة: **كتاب الأمة، المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات**، العدد 156، رجب 1434 هـــ ـــ 2012 م، طبعة إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، ص.06.

فرادى وزرافات[1] نحو البلدان الجديدة ينشرون مبادئ الدين الإسلامي الحنيف بتعاليمه الجديدة السّمحاء.

لقد جعل الإسلام الرحلة وفي مواطن الهجرة مبصرة لمقاصدها ولم يتركها حركة عشوائية أو حركة جسد بلا عقل وإحساس بلا إدراك ووعي وبصيرة حتى تكون حركة المسلم قاصدة ويعرف في كل حركة أين يضع قدمه.

ب ــ بداية الرحلات في الإسلام وأشهرها:

ازداد العرب إقبالا على السّفر والتّرحال بعد اعتناقهم للدين الإسلامي الذي شجّع بدوره السّفر بل جعله واجبا دينيا ــ أحيانا ــ كما سبق ذكره فضلا على ما أتاحه من تسهيلات أمام المسافرين، إذ خفّف عليهم ما يعانونه من مشقة الطريق ومتاعب السّفر من خلال الرّخص المفتوحة لهم كالإفطار في شهر رمضان وقصر الصلاة، فضلا عن أهداف دينية أخرى، ولهذا طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من أصحابه الهجرة عندما اشتد بهم اليأس وضاقت بهم السّبل، طلب إليهم الهجرة إلى أرض الحبشة، فكان شيوع العدل وعدم الظلم في هذه الأرض هي نفسها القيم والمقاصد التي يسعى الإسلام لتأصيلها، ولعلنا نقول إن هؤلاء الرواد من المهاجرين المستضعفين كانوا السبب في إسلام النجاشي ــ ملك الحبشة ــ ثم جاءت هجرته صلى الله عليه وسلم بعد ثلاثة عشر عاما لإقامة مجتمع جديد يحقق المقاصد ويمتلك إمكانيات الانطلاق والتحرر من الاستعباد.[2]

وبعد استقرار الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة رحلت إليه الوفود لاعتناق الإسلام وأرسل هو بدوره رسلا لتبليغ دعوة الإسلام وتفهيم الناس أحكام الشريعة، وعقب وفاته صلى الله عليه وسلم كثُرت رحلات الصحابة لمراجعة الأحاديث النبوية

1 مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، المرجع السابق، ص. 35.

2 عمر عبيد حسنة: **كتاب الأمة، المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات**، المرجع السابق، ص.08.

خشية نسيانها وحفاظا عليها، ومن أمثلة هذه الرحلات: رحلة جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أُنيس[1]، ورحلة أبي أيوب إلى عقبة بن عامر[2]، ورحلة تميم الدّاري[3]، وعبادة بن الصامت[4] في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفترة خلافة أبي بكر الصدّيق.

أمّا في زمن الخليفة عمر بن الخطاب فقد تداولت بعض المصادر عددا من تلك الرحلات وكان من أهمها تلك التي قام بها عثمان بن أبي العاص الثقفي (والي البحرين) انطلاقا من عُمان في غارة حربية على ساحل الهند عند (تانة) بالقرب من بومباي ووجّه أخاه إلى (خور الديبل) عند مصبّ نهر السّند سنة 15 هـــ [5].

ويبدو أن هذه الإطلالة على بلاد الهند كانت أول محاولة جريئة متقدمة للوصول إلى مراحل الهند الغربية، ولسنا ندري هل كان عمر بن الخطاب يُدرك مخاطر هذه المغامرة أم لا ؟

---

1 الخطيب البغدادي: **الرحلة في طلب الحديث**، تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1395هـــ، ص.109.

2 ابن عبد البر: **جامع بيان العلم**، ج.1، ص ص. 111 ــ 112.

3 ــ **تميم الداري**: ولاّه الرسول صلى الله عليه وسلم قرية جبرى وبيت عبنون بالشام، يذكر ابن جرير الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ج. 1، ص.178، رحلته في بحر الشام وهو البحر المتوسط، حيث قذفت به عاصفة هو وصحبه إلى جزيرة مهجورة لكن لا يعطينا تفصيلا عنها، وإن كان بعض الرّواة قد ينسجوا الكثير من الخيال والحكايات، وقد ذكرها المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في **تاريخ الأدب الجغرافي الغربي**، ج.1، ص.53، ينظر أبو عبد الله محمد بن سعد: **الطبقات الكبرى**، دار بيروت للطباعة والنشر، 1985، ج.2، ص. 362.

4 **عبادة بن الصامت**: شهد العقبة وبدرا وولي القضاء بفلسطين، توفي سنة 43 هـــ، المرجع نفسه، ج.3، ص. 546، هذه الرحلة يذكرها هذا الصحابي عن نفسه عندما توجه إلى بلاد الروم في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ودخوله القسطنطينية لدعوة ملكها إلى الإسلام.. ينظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر بيروت ــ لبنان، 1986، ج.3، ص ص. 61 ــ 62، كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**،ج.1، ص. 56، أبو الحسن علي المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط.3، بيروت، 1978، ج.2، ص. 162. هذه الرحلة تم ذكرها وبتفاصيل أوسع لدى رحّالة القرن الرابع الهجري ويرويها أبو زيد حسن السيرافي في رحلة سليمان التاجر منسوبة إلى ابن وهب القرشيّ من أهل النصف الثاني للقرن الثالث الهجر، ينظر حول أبو زيد السيرافي وسليمان التاجر دراستنا حول ثقافة الهند من خلال رحلة البيروني، قسم تاريخ الجزائر.

5 أبو العباس المقريزي: **الخطط**، دار صادر، د.ت، ج.2، ص.189.

وحاول العلاء بن الحضرمي[1] خليفته على البحرين العبور إلى فارس حتى وصل اصطخر[2] ولكن سفينته تحطمت، مما اضطره عبور أرض الأعداء عائدا إلى مدينة البصرة سنة 15 هــ في رحلة مجهولة العواقب، وقد لقيت هذه المحاولات استنكارا شديدا من الخليفة عمر رضي الله عنه.[3]

ولا شك أن الخليفة عمر أدرك بفطنته أن المسلمين في هذا التاريخ المتقدم لا يستطيعون ركوب البحر لقلة خبراتهم البحرية وهو نفسه لم يأمر بإرسال حملة بحرية إلاّ ما ذكره المقريزي حول حملة واحدة ضد الأحباش يوم استمرّت هجماتهم على السواحل العربية لسنة 21 هــ. [4]

هذا مُجمل ما ذُكر عن الرحلات في زمن الخلفاء الراشدين، وفي زمنهم لم تكن هناك رحلات برية ذات جدوى أو لها علاقة بموضوع دراستنا رغم أن معاوية قد ظفر بموافقة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ليشُنّ غارة تأديبية على قبرص، وهي أول غزوة بحرية للمسلمين في البحر المتوسط، ولم يكن المسلمون قد ركبوا بحر الروم قبل هذه الغزوة[5]، ولما تولّى معاوية أمور الحكم أنشأ أسطولا بحريا بمساعدة أقباط مصر ليصدّ هجمات أعدائه، وأصبحت تلك السفن بعدئذ واسطة للتجارة والأسفار والرحلات.[6]

فكانت هذه المحاولات الأولى من الأسفار في صدر الإسلام المتزامنة مع فتوحات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، غير أنّنا لم نجد أثرا ثقافيا أو أدبيا منفردا يمثل

---

1 **العلاء بن الحضرمي:** صحابي من سادة المهاجرين، ومن رجال الفتوح في صدر الإسلام، أصله من حضرموت، استعمله النبيّ صلى اللّه عليه وسلّم على البحرين سنة8هــ، وأقرّه أبو بكر، ثم عمر، مات سنة14هــ. **الأعلام** للزركلي، ج.4، ص.245.

2 **اصطخر:** مدينة وسطة وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، المصدر السابق، ج.1، ص. 211.

3 أبو عبد الله بن سعد: الطبقات الكبرى، المصدر السابق، ج.4، ص ص. 362 ــ 363.

4 أبو العباس المقريزي: **الخطط**، ج.2، ص. 190.

5 ابن جرير الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، المصدر السابق، ج.4، ص. 2546.

6 علي ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة صادر، بيروت، 1966، م ج.3، ص.96.

تلك الرّحلات والأسفار سوى من الأخبار هنا وهناك في بعض الكتب التاريخية والجغرافية والأدبية كالتي سبق وتم عرضها.

ولمّا بسط العرب المسلمون فتوحاتهم امتدت اتصالاتهم حتى وصلت بلاد الهند والصين وإفريقية وأصقاع روسيا رغم قصر باعهم في الرحلة إلى أقاصي البسيطة وصعوبة المسالك إلى البلدان فتعرّفوا إلى استعمال البوصلة فركبوا بحر الظلمات وجابوا أرض جديدة عبر الإبحار في المحيط الأطلنطي كما ورد ذكر هذه المحاولة في نزهة المشتاق للإدريسي وصبح الأعشى للقلقشندي.[1]

وتعتبر العصور التالية بعد فجر الإسلام التي تبدأ من القرن الثاني الهجري حتى نهاية القرن الثامن منطلقا للرحلات والأسفار المختلفة التجارية أو الجغرافية التي سادت على نطاق واسع كما ذكرنا لتأتي بأخبار وحقائق مثيرة عن سكان الأقاليم وعمائرهم وطبيعة أرضهم، وهذا ما سنعرفه من خلال أنواع الرحلات وأغراضها مركّزين على رحلات المسلمين وهي محل دراستنا.

---

1 ــ رحاب عكاوي: **رحلة أبي يونة الأندلسي**، ص.ب.

الفصل الأول



المبحث الأول: رحلات تجارية

المبحث الثاني: رحلات جغرافية

المبحث الثالث: رحلات رسمية ومهمات

المبحث الرابع: الرحلات الدينية

المبحث الخامس: رحلات علمية

المبحث السادس: رحلات تاريخية

المبحث الأول: رحلات تجارية

كانت الحركة التجارية بين الهند والعالم الإسلامي دائما مزدهرة، وزادت هذه العلاقة تطورا لتشمل الحج والزيارة والهجرة [1] وإن كان العرب في الجاهلية لهم رحلاتهم التجارية إلى بلاد الهند عبر العراق واليمن وغيرها كما سبق الإشارة إلى ذلك في بداية البحث، وإن كانت هذه الرحلات غير مدونة باستثناء ما وصل إلينا من مضامين في الشعر وكتب اللغة [2] ، ومن الطبيعي أن يكون التجار والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر صلة بالهنود كما كانت لهم معرفة ودراية بالمدن الهامة الواقعة على الساحل الطويل بالبحر العربي [3] وكان لهؤلاء التجار والبحارة دورا في نشر الإسلام فأصبح في كل ميناء أو مدينة اتصل بها المسلمون جماعة اعتنقوا الإسلام وينظر الهندوس المحليون إليهم نظرة إكبار وتقدير.[4]

وإذا ما رجعنا في الزمن قليلا إلى الوراء نجد أن توسيع المعرفة بالعالم القريب والبعيد ربّما كان من أبرز إسهامات العرب الثقافية على مستوى العالم، فقد كان السفر من أجل الكشف عن المجهول أو طلبا لعلمٍ أو رغبة في التكسب من التجارة أو طمعا في أداء فريضة الحج من أهم الأساليب التي اتبعها العرب في توسيع معرفتهم بديار المسلمين وبالبلاد الأخرى من حولهم، فاتسع عالمهم ليضم أقطارا لم يعرفها اليونان ولا الرومان إلا اسما.[5]

---

1 رائد علي هاشم هناش: **العلاقات بين الحجاز وإمارات الهند**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 2000، ص.5.

2 حسين محمود حسين: **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس، 1403هـ ـ 1983م، ص.10.

3 أحمد يسعد: **ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني**،ص.29.

4 عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند**، ط.1، دار العهد الجديد، مصر، 1378 هـ ـ 1959 م، ص ص.61 – 65.

5 عبد الفتاح وهيبة: **جغرافية العرب في العصور الوسطى**، ص.3.

لهذا يُعتبَر الترحال فن عربي أصيل ارتبط بحياة التنقل التي عرفها العرب الأولون، وربما كانت التجارة بعد ظهور الإسلام من أقوى الأسباب التي عاونت على اتصال الشعوب وازدياد المعرفة بالعالم المعمور.[1]

قلنا فيما سبق أن المسلمين التجار حملوا معهم دينهم والتزموا بتعاليمه، وكان لبعضهم شرف نشر الإسلام بالأسوة الحسنة، وفي شبه القارة الهندية عاشت جاليات عربية ضخمة في مدينة صيمور Saimur قرب بمباي، وفي مدينة الديبل في إقليم السند الإسلامي[2] وتتجلى لنا هذه الحقيقة فيما نجد من اللوحات التي اكتشفت في بعض المساجد الساحلية التي تحمل تاريخ القرن الأول للهجرة، وهذه الاتصالات مع الهند ساعدت في دخول الإسلام إلى جنوب الهند وسرنديب.[3]

وتشير المصادر التاريخية إلى أن جنوب الهند كان له اتصال وثيق بالبلاد العربية منذ أقدم العصور بفضل موانئها، فلا غرو إذا كان للمناطق الساحلية شرف السبق للتعرف على الإسلام واعتناقه حتى قبل أن يغزو المسلمون الهند ... وكان التجار العرب والهنود يتبادلون المنتوجات والمصنوعات فيما بينهم قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ولما دخل الإسلام من المناطق الساحلية الجنوبية استوطن المسلمون بعض المدن مثل المليبار والتامل.[4]

ومن المعروف أن عدد الرحلات التجارية للصين عبر موانئ الخليج (مسقط وسيراف والبصرة) انخفض مع بداية القرن الثالث للهجرة (9 م) في حين زاد سفر التجار

---

1 Kamers,J.H ,**Geography et Commerce**, **legacy of islam** (ed) T.Armorld A.Quillaume,Oxford, University press, 1947,PP.92-94.

2 عبد الفتاح وهبة: **جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع**، دار المعارف، الإسكندرية، 1415 هـ ـ 1995 م، ص.15.

3 **سرنديب**: ديبٌ بلغة أهل الهند جزيرة في بحر "هركند" بأقصى بلاد الهند، فيها جبل "الرّهون" هبط عليه آدم عليه السلام، وأطلق عليها البيروني اسم سنكلديب. وهي تُعرف اليوم بسيريلانكا. انظر **معجم البلدان** ج3، ص.215–216، **تحقيق ما للهند**، ص.168، **نزهة المشتاق** ص ص 07–12 وانظر أحمد زبير: **العرب والإسلام في ولاية تامل نادو**، ثقافة الهند، المجلد 55، العدد 4، 2004، ص.148.

4 المرجع نفسه، ص ص.142 – 149.

العرب إلى البحار الجنوبية خاصة الهند[1]، ومع التجارة انتقل الإسلام ومعه اللغة العربية لغة القرآن الكريم.[2]

وعندما نشير إلى الرحلة التجارية برية كانت أو بحرية في هذه المرحلة التاريخية من حياة الدولة الناشئة في العصر الوسيط بالنسبة للعالم الإسلامي فإننا نريد تتبع إسهامات التجار العرب المسلمين في تطوير مجالات الدراسات التاريخية وأدب الرحلات الذي كانت التجارة عنصرا هاما لتأسيسه.

ومعلوم أن رحلة التجارة عرفت طريقها إلى أهدافها فهناك نسبة لا يستهان بها من المشتغلين بالأسفار في تلك العصور جمعوا بين العلم والتجارة.. ولم يكن ما يمنع أن يكون التاجر فقيها أو محدّثا أو مفسّرا والعكس صحيح.[3]

وهؤلاء الرحّالة التجّار يمارسون السّفر والترحال في سبيل التجارة طلبا للثراء ومحبة في التنقل والترحال وكثيرا ما يعودون بأرباح كثيرة وأخبار طريفة، الأمر الذي جعل كتب رحلاتهم تحظى بمكانة لدى عامة الناس حيث أقبلوا على قراءتها بشغف [4] ورغم كثرة الرحالة وجوّابيّ الآفاق وتنوع أهدافهم فإن قلة منهم هي التي حرصت على تسجيل تجاربها ومشاهد رحلاتها لفائدة الأجيال اللاحقة [5] خاصة ما تعلق بالهند موضوع دراستنا.

وفي هذا الخصوص فإن عدد الكتب أو الرسائل التي تضمنت الرحلات التجارية بعينها نتعرف منها إلى هدفها وبدايتها ونهايتها مكانها وزمانها، في الفترة موضوع

---

1 عبد الفتاح محمد وهبة: **جغرافية المسعودي**، ص.16.

2 نواف عبد العزيز الحجمة: **رحالة الغرب الإسلامي وصورة الشرق العربي**، دار للنشر والتوزيع،2008، ص.37.

3 المرجع نفسه، ص.39.

4 مصطفى سالم وعبد الله حبلوس: **أدب الرحلات عند العرب**، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2009، ص.45.

5 عبد الفتاح محمد وهبة: المرجع السابق، ص.16.

الدراسة هي قليلة نسبيا لكن هذا لا يمنع أن تكون هذه الأخيرة منطلقا لأنواع أخرى من الرحلات التي سيكون لها شأن في الدراسات الهندية وعلاقتها بالمسلمين.

وأول صيغة رحلية مكتوبة وصلتنا رحلة سليمان التاجر إلى الهند والصين وما أضافه أبو زيد السيرافي إليها[1] وتمتاز هذه المرحلة بالوصف الصادق للطرق التجارية والعادات والنّظم الاجتماعية والاقتصادية وأهم منتجات الهند وسرنديب والصين حيث يعتبر هذا الوصف حسب الدراسات المتداولة هو أقدم وصف وصفه عربي لأقاليم الهند والصين وعادات الأقوام ليكون هذا الوصف فيما بعد منطلقا للرحالة الذين يأتون من بعد، وهذا ما سنقف عنده مع الرحالة الدارسين لهذه البلاد.

وبقيت هذه الرحلة مع الذيل الذي ألحقه أبو زيد السيرافي مصدرا هاما يرجع إليه الكثير من الجغرافيين والمؤرخين رغم الغموض الذي أحاط بشخصية سليمان التاجر إذ لم يُعثَر له نسب أو سيرة ذاتية، ولكن وصف سياحته إلى الهند وصل إلينا [2] وهو يصف الطرق البحرية والمحطات التجارية انطلاقا من مدينة سيراف[3] إلى مدينة خانفو[4] أكبر أسواق الصين حينئذ.[5]

---

1 كتب هذه الرحلة عام (237 هـــ ـــ 851 م) فقد جمع أبو زيد حسن هذه الرحلة وأضاف إليها ذيلا في مؤلّف عرف باسم رحلة سليمان التاجر، وقد طبعت هذه الرحلة مع ترجمة فرنسية سنة 1845 م في سلسلة الجغرافية والرحلات عند العرب تحت عنوان "**كتاب أخبار الصين والهند**" (237 هـ) تحقيق وتقديم وترجمة فرنسية للمستشرق جان سوفاجيه دراسة للمستشرق ج. أكرامرز J.H .Kramers، وقد أحاط بهذه الرحلة المستشرق فران Frerand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى والتي ترجمها وعلّق عليها في مجلدين.

2 زكي محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، دار الرائد العربي، بيروت، د.ت، ص.23، راجع أيضا: أحمد رمضان: **الرحلة والرحالة المسلمون**، دار البيان العربي، جدة، د.ت، ص.41، وكتاب: نقولا زيادة: **الجغرافيا والرحلات عند العرب**، دار الكتاب العالمي، بيروت، 1987، ص.149.

3 **سيراف:** مدينة شريفة طيبة البقعة كثيرة البساتين، والعيون تأتيها من الجبال، واسعة البقعة والدور. ينسب إليها أبو الحسن السيرافي شارح كتاب سيبويه عشرين مجلداً. **آثار البلاد وأخبار العباد** (ص: 204)

4 **خانفو:** هو الاسم العربي الذي أطلق في القرنين الثالث والرابع للهجرة على مدينة (كانتون).

5 مدينة خانفو في شمال الصين (كانتون) هكذا ذكرها المسعودي عندما تحدث عنها قائلا: « وكان ابن وهب رجلا ثريا ذا شأن في في العراق، خرج من سيراف إلى الصين في نحو عام 256 هـــ/ 870 م بعد أن خرّب الزنج البصرة، وانتهت رحلته عند خانفو (كانتون) بمملكة الصين ثم تقدم إلى مدينة خمدان عاصمة المملكة وهي تقع على مقدار شهرين من خانفو، وهناك التمس مقابلة=

ويبدو من خلال هذا الوصف الذي يعتمد على المعاينة لكل المواقع التي زادها التأثر بطبيعة النشاط الذي كان يقوم به حيث التركيز على الطريق الساحلي لبلاد الهند وهذا يعود لعمله كتاجر واقتصار رحلاته على القرى الساحلية الهندية[1] ولقد أفردت لهذا التاجر فصلا بعنوان ثقافة الهند في كتب الرحالة المسلمين[2] وما يميز هذه الرحلات التجارية ويجمعها هو أهدافها التجارية حيث قام هؤلاء التجار الرحالة برصد النشاط التجاري الدّؤوب في البلدان والأمم آنذاك، فضلا عن رصدهم للنواحي الاجتماعية والثقافية والجغرافية والتاريخية كما هو الحال بالنسبة لسليمان التاجر الذي أخذْتُه كمثال في هذا النوع من الرحلة [3] وهذا الاهتمام لم يكن مقتصرا مع الرحالة الذين توجهوا إلى الهند بل يشمل بلاد الصين وإفريقية وغيرها[4] ، إلا أننا نصب تركيزنا على الهند باعتبار الدراسة حول الرحالة المسلمين الذين تركزت دراستهم حول الهند.

وقيمة الرحلة التجارية التي مثلها سليمان التاجر تتمثل في علاقتها الجغرافية بهذه البلاد، فقد تناول النّقاد هذه الرحلة بالنقد والدراسة.[5]

=الإمبراطور...» انظر: المسعودي، **مروج الذهب**، ج.1، ص.142. وراجع كتاب: عبد الفتاح محمد: **جغرافيا المسعودي بين النظرية والتطبيق**، ص. 19 – 20.

1 شيث محمد إسماعيل الأعظمي: **الجوانب الدينية والاجتماعية للعلاقات الهندية العربية**، تر. فرحانة صديقي، مجلة ثقافة الهند، مجلد 52، العدد 2، ص. 109.

2 أحمد يسعد: **ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني**، ص.13 إلى 17.

3 هناك دراسة قام بها صالح مغيربي بعنوان: رحالة الغرب الإسلاميين جامعة فاس، ترجمها عبد النبي ذاكر: حيث يعتبر هذا النوع من الرحلة هو بداية التأسيس للرحلات الدقيقة التي ستنتعش بعد حين.

4 مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، منشورات المركز الوطني للمحفوظات، طرابلس، ليبيا، 2009، ص. 62 – 63.

5 ذكر بعضهم أن المعلومات التي أوردها عن (كانتون) عاصمة الصين تتميز بالتفصيل والدّقة، انظر: اغناطيوس كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر. صلاح الدين هاشم: **الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية**، د.ت، ج.1، ص. 141: ذكر أن المستشرقين بولو وبابيو قد ساورهما الشك في نسبة هذه القصص إلى سليمان التاجر. ينظر في المرجع نفسه، ج.1، ص. 141، والأدلة تؤكد صحة نسب هذه الرحلة إلى سليمان السيرافي، فقد نسب ابن الفقيه صراحة ما ذكره أبو زيد السيرافي إلى سليمان التاجر نفسه حيث قال: « وذكر سليمان التاجر أن أكثر السفن تحمل من البصرة وعمان، وتعبئ بسيراف» إلى آخر ما ذكر، ولم يبد أي نقد أو تعليق، انظر: أحمد الهمذاني بن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان**، مطبعة برايل، ليدن، 1302هـ.

وهناك من أكّد أهميتها ورأى فيها مصداقية كاملة، إذ قال: « إن رحلة سليمان التاجر تُعدّ من أهم الآثار العربية عن الرحلات في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع... وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبة وابن الفقيه والإصطخري وابن حوقل والمسعودي يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التي يذكرونها، فإنهم أيضا ينقلون عن الأثر العربي الأوّل بلفظه ومعناه في بعض الأحيان وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر».[1]

وعلى هذا الأساس تعتبر هذه الرحلة قيمة تاريخية واجتماعية وجغرافية فضلا عن قيمتها الأدبية في دراسة المجتمع الهندي والصيني على حد سواء.

وتضاف إلى هذه الرحلة رحلة ابن وهب القرشي 256 هـ / 870 م التي دوّنها في مذكرات شأنه في ذلك شأن زميله التاجر سليمان والتي قام بجمعها فيما بعد أبو زيد حسن السيرافي في كتابه "رحلة السيرافي إلى الهند والصين" مقترنة مع رحلة سليمان التاجر والسيرافي في آن واحد [2] وتبدو ميوله التجارية واضحة في وصفه لأسواق الصين العامرة والمنسّقة[3]... وسأله أبو زيد حسن السيرافي عن مدينة خُمدان التي بها الملك فوصفها بذكر سعة البلد وكثرة أهله وأنّه مقسوم إلى قسمين.[4]

ويبدو أنّ لهذا الوصف الذي أبداه ابن وهب للصين ومدينة خانفو أهمية خاصة «إذ بعد قليل من ذلك في عام 264 هـ / 878 م تمّ القضاء على المستعمرة العربية في كانتون نتيجة للحروب الداخلية فانقطعت الصلات بين العرب والصين».[5]

---

1 حسين فوزي: **حديث السندباد القديم**، دار الكتاب اللبناني، 1977 م، ص. 22.

2 انظر أبو الحسن المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج.7، ص. 161.

3 مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، ص ص. 52 – 53.

4 ومن الجدير بالذكر أن المسعودي قد التقى بأبي زيد حسن السيرافي في عام 303 هـ الذي جمع رحلتي سليمان التاجر وابن وهب القرشي، ونقل عنه رواية ابن وهب القرشي، انظر أبو الحسن المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص ص. 161 – 164.

5 إغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ج.1، ص. 142.

وذكرنا لهذه الرحلة التجارية التي تناولت أشياءً جديدة في بلاد الصين مثل الجانب الاجتماعي والاقتصادي والعمراني وتسليطها الضوء على أمور لم تكن معهودة عند العرب كاتساع أرض الصين وضخامة بلاط سلاطينها وتناسق عاصمتها خُمدان، هي عوامل تُمهّد لتأسيس ما يعرف بالدراسات التاريخية في جوانبها المختلفة الاجتماعية والسياسية لدى الرحالة الأوائل.

وفي هذا السياق نسوق أنموذجا آخر يدخل في صلب الإطار الزماني الذي نحن بصدد دراسته وهو الرحالة التاجر والعالم الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي[1] (575 هـ / 625 م – 1179 م / 1229 م) بدأ تجواله في عام 610 هـ / 1213 م، ذلك التجوال الذي دام ستّة عشر سنة في سبيل التجارة ولكن لحسابه الخاص هذه المرّة.[2]

وعمّت رحلاته أرجاء واسعة فوصلت آسيا الصّغرى وخُرسان[3] منطلقا من تبريز[4] والموصل[5] متّجها إلى بلاد الشام ومصر أوّلا وبعد ثلاثة أعوام من ذلك أي في عام 613 هـ/ 1213 م نجده مرة أخرى في دمشق التي غادرها إلى حلب فإربل[6] ثم أُرمية[7]ومنها قصد بلاد فارس[8] وأمضى في نيسابور[9] قرابة عامين ثم غادرها إلى هراة[10]

1 أبو العباس بن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977 م، ج.6، ص. 127 .

2 ويُعرف **ياقوت** أيضا باسم الحموي نسبة إلى التاجر عسكر بن إبراهيم الحموي الذي اشتراه وهو غلام، وكان من أهل حماة اضطرته مصالحه التجارية إلى الإقامة في بغداد، وعاش ياقوت رقيقا حتى بلغ سن العشرين ونشأ مسلما، ورأى سيده أن يستفيد منه في حساباته التجارية، فأدخله مدرسة ليتعلم فيها الكتابة وبذلك أصبحت اللغة العربية لغته القومية، انظر مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، ص. 54.

3 **خراسان:** بلاد واسعة وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو، انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.2، ص. 350.

4 **تبريز**: أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسناء، المرجع نفسه، ج.2، ص. 13.

5 **الموصل**: المدينة المشهورة، فهي باب العراق ومفتاح خراسان، المرجع نفسه، ج.5، ص. 223.

6 **إربل**: قلعة حصينة ومدينة كبيرة تعد من أعمال الموصل، المرجع نفسه، ج.1، ص. 138.

7 **أرمية**: مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان، المرجع نفسه، ج.1 ، ص. 159.

8 **فارس**: ولاية واسعة وإقليم فسيح، أول حدودها من جهة العراق أرّجان، ومن جهة كرمان السيرجان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومن جهة السند مكران، المرجع نفسه، ج.4، ص.226.

9 **نيسابور**: هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، المرجع نفسه، ج.5،ص.331.

هراة[1] وسرخس[2] إلى أن بلغ مرْو[3] وفيها أمضى ثلاثة أعوام[4] وفيها قال: «وأقمت بها ثلاثة أعوام فلم أجد بها عيبا ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى المماة لما في أهلها من الرّفد ولين الجانب وحسن العشرة»[5] ثم هرب من وجه وجه جحافل جنكيز خان عندما تناهت إلى مسامعه أخبار خروج المغول عام 616 هــ / 1219 م تاركا وراءه ثروته وبعض مادته العلمية إلى أن بلغ الموصل ودخلها فقيرا معدما ومنها كتب إلى الوزير ابن القفطي المتوفى عام 646 هــ وزير السّلطان الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب يرجوه العون فأمدّه بما يحتاج واستدعاه إلى حلب، وفي هذه المدينة جمع رحلاته ودوّنها في مخطوط رفعه إلى ابن القفطي عام 621 هــ / 1224 م ومن حلب زار فلسطين ومصر وعند عودته بدأ في تهذيب معجمه الموسوعي في عام 625 هــ / 1228 م ولكن عاجلته المنية في يوم الأحد 20 رمضان 626 هــ / 1229 م وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره وقد أوصى بوقف كتبه على مسجد ببغداد يطلق عليه اسم مسجد الزيدي.[6]

وما يلاحظ في رحلات ياقوت الحموي اعتماده على ما عاينه بنفسه في كثير من الأحيان وتركيزه على المشاهدة المباشرة [7] وهذا لم يمنع أخذه أخبار بعض رحلاته من مصادر سماعية متنوعة شأنه شأن الرّحالة الآخرين كما كان أمينا عند ذكره المصادر التي تنهل منها خاصة كتاب "المسالك والممالك" حيث قال: « وكثيرا ما وجدت العلماء

---

1 **هرا ة:** مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، المرجع نفسه، ج. 5 ،ص. 396.

2 **سرخس:** مدينة قديمة من نواحي خراسان، المرجع نفسه، ج.3، ص. 208.

3 **مرو:** أشهر مدن خراسان وقصبتها، المرجع نفسه، ج.5، ص. 112.

4 يذكر كراتشوفسكي أنه مكث فيها عامين، انظر إغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ج.1، ص.339.

5 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ، ج.5، ص. 114.

6 أبو العباس بن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج.6، ص. 139، وفي وصف رحلته انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج.3، ص. 117.

7 ياقوت الحموي: المرجع السابق ، ج.5، ص.114.

ويذكرون في كتبهم... »[1] والمتأمل في مصادر الحموي يجد أنّ شغفه بالتجارة أثر في مجمل آرائه لكن هذا لم يمنع اهتمامه بالنشاط الأدبي والعلمي في البلاد التي زارها أو سمع بها أو نقل عنها، ولا أدل على ما نذكر كتابه الموسوم "معجم الأدباء".

وما يميّز الرّحالة الحموي عن زميليه: سليمان التاجر السيرافي، وابن وهب القرشي هو نقده [2] في مرات عديدة لأخبار رحلاته وحكايتها ممّا أعطاها تميّزا من حيث الملاحظات الدقيقة التي أبداها في رحلته التي جمعت في كتابه "معجم البلدان" وهو موسوعة تجارية وجغرافية وتاريخية.

إن ما يميّز هذا النوع من الرحلات هو استعراضها لصورة التجارة ورصد النشاط الاقتصادي في البلدان والمدن التي زارها وشملت معظم أوصافهم الجوانب التجارية مبدين في ذلك عوامل الانتعاش التجاري بين المسلمين والبلاد التي زاروها مثل الصين والهند مع سليمان التاجر وابن وهب القرشي، ومدن آسيا الصغرى مع ياقوت الحموي.[3]

وعلى هذا الأساس اعتُبِرَت أحاديث سليمان التاجر وابن وهب القرشي عن الهند والصين مصدرا هاما لكثير من مؤلفي العرب والمسلمين في الجغرافيا والتاريخ وعنهما نقلوا، وهذا ما سنقف عنده في دراستنا حول الرحالة الرواد الذين درسوا هذه البلاد من جوانبها المختلفة. [4]

---

1 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.5، ص.224.

2 ذكر زكي محمد حسن قائلا: « ومهما يكن من شيء فقد امتاز ياقوت عن كثير من مؤلفي العرب بملكة النقد التي كانت تتجلى في روايته بعض الأساطير الذائعة في عصره، وفي حكمه على تلك الأساطير والتعليل لها» انظر زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص. 106.

3 ــ هناك دراسة لرحلة سليمان التاجر موجودة في كتابنا: **ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني**، ص.41 وما بعدها.

وتحتوي مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود في الدار البيضاء على مجموعة من الدراسات في هذا الباب، موجودة في جناح "أدب الرحلة" الطابق الأول.

4 ــ انظر كتاب **أخبار الصين والهند**، تحقيق وتقديم وترجمة للمستشرق جان سوقاجيه، دراسة للمستشرق ج.أ.كرامرز داربيليون، باريس، 2009.

أما ياقوت الحموي فقد تناول النواحي الأدبية للشعوب التي زارها ولم يمنعه نشاطه التجاري من اختيار أسلوب علمي وصياغة منهجية في سرد الأخبار بفصاحة وألفاظ راقية أحيانا دون تكلف في الكتابة، أسلوبه سهل واضح لهذا حظي الحموي باهتمام الباحثين والعلماء وشهدوا بمكانته العلمية مثل المستشرق كراتشكوفسكي والفرنسي كاري دي فو.[1]

وما على الدارسين إلا تتبّع خطوات[2] هؤلاء الرحالة وتقفّي آثارهم حتى يتسنى للباحث معرفة الفوارق العلمية والبحثية لكل رحالة انطلاقا من المنهج الذي اتبعه كل واحد في نقله للأخبار وهذا ما جعلنا نقف عند أبرز الرحالة التجار حتى نصل إلى مقارنة علمية مع الرحالة الآخرين مركزين على مجال جغرافي واحد هو بلاد الهند.

1 إغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ج.1، ص ص. 336 – 342.

2 انظر في الملاحق: الخريطة رقم 01، ص.243 الموضحة لمسار الرحلة البحرية التجارية من الخليج إلى الصين في القرن 3هـ/9م. والخريطة رقم 02، ص.244 المتضمنة طرق التجارة البرية والبحرية في شرق إفريقية وبلاد آسيا في القرن 9هـ/15م. والخريطة رقم 03، ص.245 المتضمنة طرق الملاحة البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين.

المبحث الثاني: رحلات جغرافية

إذا أردنا أن نعرض ملامح من هذه الرحلات في العصر الوسيط فإننا نجد أن القرن العاشر الميلادي يمثل من هذه الناحية فترة النضج التام، فقد زخر بمصنفات مهمة بلغت أوج التطور، إذ تم في هذا القرن تشكيل ما سمي" بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية" على حد تعبير الدكتور حسني حمود حسين[1] وقد بلغ عدد الرحالة في هذا القرن حدّا كبيرا[2] نذكر منهم: اليعقوبي، ابن حوقل، أبو دُلف، المقدسي، الإدريسي، وقد أفردنا لهم في هذه الدراسة ملامح رحلاتهم حيث يستحق كل واحد من هؤلاء مجالا بحثيا مستقلا لا يسع مجال الدراسة التطرق إلى تفاصيله باستثناء الإشارة إليهم مع التركيز على النماذج الموضوعة في البحث باعتبارهم أكثر موسوعية في رحلاتهم.

والرحلة الجغرافية في موضوعها تتناول وصف المدن والطرق والبحار والأنهار والجبال والظواهر الطبيعية الأخرى وتتحدث عن حياة الناس وطبائعهم وتحدّد المسافات بين المدن والبلدان وتتناول كل ما له علاقة بالإنسان والأرض[3] أما الطابع العام لهذه الرحلات فهو يختلف من رحلة إلى أخرى لذا جاءت هذه الرحلات متنوعة ومثيرة وزاخرة بالمعلومات الجغرافية حول بلاد الهند والمدن الأخرى[4] ومن هؤلاء الرّحالة الجغرافيين المساهمين في الدراسات الهندية وغيرها.

---

1 حسني محمود حسين: **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس، بيروت، 1403 هـ / 1983 م، ط.2، ص. 12.

2 أغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، المرجع السابق، ص. 177.

3 في مجالات الدراسة الجغرافية للظواهر الطبيعية والتبريد، انظر دراسته تأليف صالح مغيربي، تر. عبد النبي ذاكر: **رحالة الغرب الإسلامي من القرن 12 م إلى القرن 14 م**، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، Protars 3، ط.1، مطبعة آنفو ـــ برانت، فاس، 2005.

4 يمكن العودة إلى رسالة الماجستير في التاريخ الوسيط، السنة الجامعية 2008 / 2009، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، بعنوان: **شبه القارة الهندية وبلاد الصين من خلال الرحالة والجغرافيين المسلمين ما بين القرن 9 إلى 14 م**، للأستاذة عيساني شفيقة.

ــ **رحلة اليعقوبي:** توفي في 284 هــ / 897 م[1]، تعتبر العراق موطنه لكنه رحل عنها مبكرا ومكث طويلا في أرمينية وخُرسان حتى عام 260 هــ / 873 م وأقام طويلا في مصر وعاش في كنف الطولونيين[2] وفيها أنجز مصنفه " كتاب البلدان " سنة 278 هــ / 891 م، الذي يعتبر من أقدم كتب الجغرافية التي وصلت إلينا معبرا فيه عن أحوال البلاد الإسلامية التي عرفها بنفسه حيث قال: «عنيتُ في عنفوان شبابي وعند احتيال سنّي، وحدّة ذهني بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كلّ بلد وبلد لأني سافرت حديث السنّ واتّصلَت أسفاري ودام تغرّبي ».[3]

والمتأمّل في كتاب البلدان يلحظ السّمة البارزة في رحلاته حيث تبرز الاهتمامات الجغرافية فضلا عن اهتمامه بتاريخ فتوحات البلدان والمدن والأقاليم « ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم، ومسافة ما بين البلد والبلد، والمصر والمصر، ومبلغ خراجه وسهله وجبله وبرّه وبحره وهوائه في شدّة حرّه وبرده ومياهه وشرابه ».[4]

وجمع أخباره من خلال أسفاره ورحلاته وما سَمعه من الثّقات وعاين المسالك والطرق والممالك والبلدان، وتحرّى الدقة والصدق حيث قال: « فلم أزل أكتب هذه

---

1 **اليعقوبي:** هو أحمد بن يعقوب بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي وقد لُقّب بالأصبهاني والكاتب المصري توفي في سنة 284 هــ وجدّه الأعلى واضح من موالي الخليفة المنصور وكان الجدّ قد شغل وظيفة الحاكم على أرمينية وأذربيجان ومصر وقد كلفته الشيعية حياته، وقد كانت أسرته إلى عهد مؤلفنا، ويروى أن اليعقوبي كان من كبار عمّال البريد ولا يُعرف تاريخ ميلاده، انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، د.ت، ج.5، ص ص. 153 – 154، وكتاب صلاح الدين الصفدي: **الوافي بالوفيات** باعتناء محمد يوسف نجم، ط.2، 1981 م، ج.8، ص.318. وحول مؤلفات اليعقوبي، انظر أحمد رمضان أحمد: **الرحلة والرحالة المسلمون**، المرجع السابق، ص.71.

2 انظر أحمد محمود: **حضارة مصر الإسلامية العصر الطولوني**، دار الفكر العربي، القاهرة.

3 أحمد اليعقوبي: **كتاب البلدان**، المصدر السابق، ص. 232.

4 أحمد اليعقوبي: المصدر نفسه، ص.233.

الأخبار وأؤلّف هذا الكتاب دهرا طويلا وأضيف كلّ خبر إلى بلده، وكلّ ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدّمت عندي معرفته ».[1]

بدأت رحلته من العراق إلى الشام وفلسطين ومصر ثم اتجهت إلى المغرب وزار أرمينية والهند ثمّ زار شبه الجزيرة العربية.[2]

في عرضه لجُلّ المدن يبدأ بذكر المسافات بين البلدان وتاريخ افتتاحها وأخلاط أجناسها ومبلغ خراجها واليعقوبي عندما يتناول مواضيع أخرى مثل الحرف اليدوية والمعادن النفيسة[3] عكس ما سنجده مع الرحالة الرواد الذين تناولتهم هذه الدراسة.

ويشير في رحلته إلى الهند إلى أنواع المسك والعنبر وأصناف الطيب حيث قال: « أفضل المسك التُّبتي ثم بعد ذلك المسك السُّغدي[4] المسك الصيني ثم المسك الهندي».[5]

ويبدو أنّ هذه الدراسة الواسعة حول هذه العطور لم تكتسب إلاّ من رحالة جاب الآفاق.

وقد كانت رحلة اليعقوبي إلى ما وراء الهند ذات فائدة كبيرة فقد سجّل في كتاب البلدان كيف كان خلفاء الدولة العباسية يرسلون الغلمان من الأتراك فقال: « وكانت الفتوح قد أدركت ما وراء الهند وكان العمال هناك يبعثون الهدايا إلى بلاط الخلفاء وفي صبيان الأتراك والفراعنة ... »[6] وتذكر المصادر أن المعتصم كان يوجهه في خلافة

---

1 أحمد اليعقوبي: **كتاب البلدان**، ص. 232 – 233.

2 مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، المرجع السابق، ص. 70.

3 أحمد اليعقوبي: المصدر السابق، ص ص. 247 – 277.

4 **السّغد**: ناحية من بخارى وسمرقند، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، المصدر السابق، ج.3، ص. 222.

5 أحمد اليعقوبي: المصدر السابق، ص.395.

6 المصدر نفسه، ص.255، وانظر كتاب **الرحالة** لأحمد رمضان. ص133.

المأمون[1] إلى سمرقند كلّ سنة لشراء الرّقيق الأتراك[2] مما يفسّر علاقة عائلة اليعقوبي القريبة من السلطة الحاكمة يضاف إلى ذلك وظيفة والده في البريد التي أسهمت في نقل الأخبار بين مركز الخلافة والولايات الإسلامية التي شدّه الفضول لرؤيتها ودراسة جغرافيتها.

لذا يعتبر اليعقوبي أول جغرافي بين العرب وصف الممالك معتمدا على ملاحظاته الخاصة، كما اعتمد اليعقوبي على الكتب والمراجع المتوفرة في عصره خاصة التي لها علاقة بالمواضيع التاريخية مقدّما وصفه في أسلوب واضح يعتمد على الإبانة والعلمية، وبالرغم من أن رحلته تّعدّ من المصادر الهامة في الجغرافية إلاّ أنها أغفلت ذكر البحار التي تعتبر من أساسيات الجغرافية، ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة رحلاته التي غلبت عليها المسالك والطرق البرية أو ربما لم تكن له دراية كافية أو علم بها، على عكس المسعودي الذي أفردناه بالدراسة.

وتبدو عناية اليعقوبي بارزة ومتميزة بعلم الجغرافية في رحلاته بدءًا من تقسيماته للأقاليم وتقسيمه البلدان على أساس الولايات، وذكر أحمد نفيس على أن كتاب البلدان يشبه التقاويم الجغرافية الحديثة، وقد تناثرت فيه محاولات لتقرير حقائق جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية لجهات كثيرة لم يكن معاصرا لها فحسب بل قد شاهدها بعينه ووقف عليها بنفسه لذلك جاء كتابه قيّما له مكانته العلمية عند العرب وعند الغربيين بلا منازع ووصفوه فيما وصفوه بالأمانة العلمية والدّقة في البحث والسّعي وراء الحقائق لأنه ألّف كتابه معتمدا على رحلاته[3]، ويعتبر ما كتبه اليعقوبي أكثر ما رآه بنفسه ملتزما بمنهج تجديدي فيه نزعة عقلية تعتمد على التحليل متحاشيا الكثير من المشاهدات والتجارب التي

---

1 خلافة المأمون دامت حتى سنة 218 هـ، أبو الحسن المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، المرجع السابق، ج.3، ص.416.

2 أحمد اليعقوبي: **كتاب البلدان**، المصدر السابق، ص.255.

3 أنظر أحمد نفيس: **جهود المسلمين في الجغرافيا**، تر. فتحي عثمان، دار القلم، القاهرة، د.ت، ص. 46.

صادفته في رحلاته[1] وما يلاحظ في أسلوبه أنه قريب إلى المسعودي فهو مبسّط سهل المأخذ وهذا ما سنقف عليه بالدراسة في الفصل الثاني (الخاص بالمسعودي).

ــ رحلة ابن حوقل (331 هــ / 943 م):

من أكبر الجغرافيين هو محمد بن علي بن حوقل البغدادي النّصيبي لم تُعطنا المصادر معلومات كافية عن ميلاده، أما وفاته فكانت في حدود سنة 350 هــ وذكر في رحلته أنّه سافر من بغداد سنة 331 هــ قائلا: « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبعٍ خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة »[2] وتواصلت أسفاره أكثر من ثلاثين عاما لا يحفّزه على مكابدة المشاق إلاّ شغفه بعلم الجغرافية الذي برع فيه وكان طريقا يُهتدى به للرحالة الذين سيأتون من بعده، فقد جمع مشاهداته وأوصافه وتجاربه في كتابه الموسوعة " صورة الأرض " حيث أشار إلى ذلك في قوله: « وكان ممّا حضّني على تأليفه وحثّني على تصنيفه وجذبني إلى رسمه أنّي لم أزل في حال الصبوة شغفا بقراءة كتب المسالك متطلعا إلى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق وتبيانهم في المذاهب والطرائق وكمية وقوع ذلك ... فلم أقرأ في المسالك كتابا مقنعا وما رأيت فيها رسما متبعا فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب ...».[3]

وكانت أسفاره إلى المغرب وصقلية وبلاد الأندلس، كما زار بلاد الفرس وجزءًا من بلاد الهند التي ذكرها في كتابه وأفرد لها حيزا لا يستهان به فقال: « ثم صورت بلاد السند ومدنها وطرقها وسبلها... وما يصاقبه من بلاد الهند والإسلام... »[4] واعتمد ابن حوقل في معلوماته على ما شاهده وعاينه بنفسه فضلا عن نقله من كتب السّابقين ولم

---

1 زكي محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، المرجع السابق، ص.36.

2 محمد ابن حوقل: **صورة الأرض**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص.3.

3 المصدر نفسه، ص.3.

4 المصدر نفسه، ص.7، انظر في الملاحق: الخريطة رقم 04 ص.246.

يأخذ بالروايات الشعبية فقال: « وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقا وأخاله بما أسأله عنه خبيرا عالما فأجد عنده إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه ــ وقد حفظت نسقه وتأمّلت طرقه ووصفه ــ أكثر ذلك باطلا»[1] وهو من الرحالة الجغرافيين القلائل الذين أفردوا خبرا من كتبهم لوصف البحار والأنهار وتحديد مواقعها كقوله: « وأمّا البحار فأشهرها اثنان وأعظمها بحر فارس ثمّ بحر الرّوم، هما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط ...».[2]

وابتدأ ابن حوقل وصفه ديار العرب لأن القِبلة بها ومكّة فيها وهي أمّ القرى وبلد العرب[3] ثم تحدّث عن المغرب وكان حديثه مفصلا عن دراية ومعاينة لأنّه مكث به طويلا وخالط عامة أهله وصفوتهم، وانفرد من بين الرّحالة العرب بحديثه الشامل عن قبائل البربر ومناصبهم الدينية ونقل حقائق تاريخية حتى استكثر ما جاء في الحديث عنهم في كتابه حيث قال: « وقد أعدت في غير موضع ما استكثرته من عدد أحياء البربر وقبائلهم... وكأنّي لبعض المتصفّحين لكتابي هذا يستثقل ذلك ولا ينزله منزلته».[4]

وبالرغم من أن ابن حوقل من الرّحالة الجغرافيين الذين ركّزوا جُلّ اهتمامهم بالجغرافية إلاّ أنه لم يغضّ الطرف عن النواحي التاريخية مثل زميله اليعقوبي فقد أشار إلى حقائق مهمة لهجوم الروس على البلغار سنة 358 هـ[5] وامتاز من بين الرحالة الجغرافيين بجده ونقده وعدم سكوته على ما يراه مناقضا للواقع أو ما يخرج عن المألوف، كما انتقد جيش الأندلس الذي وجده غير آبه بالتدريب، ويبدو أنه أحسّ بالخطر الدّاهم الذي كان يحيق بهم من كل جانب إذ قال: « وليس لجيوشهم حلاوة في العين

1 زكي محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، المرجع السابق، ص.283.

2 المرجع نفسه، ص.11.

3 المرجع نفسه، من الصفحة 18 إلى 59.

4 المرجع نفسه، ص.101.

5 المرجع نفسه، ص.332.

لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال فإن أكثر حروبهم تتفرق على الكيد والحيلة، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنسانا قطّ جرى على فرس فارهٍ أو برذَوْن هجين ورجلاه في الرّكابين، ولا يستطيعون ذلك ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم السّقوط، وبقاء الرِّجل في الرّكاب على قولهم وهم يفرسون على الأعراء من الخيل». [1]

وكان نقده شديد للمعلمين في صقلية فوصفهم بالحمق والجنون والجبن والتخاذل لأنهم ركنوا إلى الخنوع وأبوا نصرة السّلطان خوفا من الموت في ساحات القتال «... وإنّما توافرت عدّتهم مع قلّة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد وذلك أنّ بلدهم ثغر من ثغور الرّوم...». [2]

وتعدّ رحلته مصدرا نفيسا لجغرافية بلاد المسلمين في القرن الرابع الهجري، فقد تناول الدارسون رحلته بالدراسة والتحليل وأفردوا لها عدّة أحكام بعد التدقيق والتصحيح، فقد أشاد المستشرق آدم متز برحلته وبرحلة المقدسي حيث وجدهما تمثلان القمة في وصف البلدان بلغة راقية خلال القرن الرابع الهجري[3] وعدّه إغناطيوس كراتشكوفسكي الخبير الأول من العرب في شؤون المغرب فضلا عن معرفته بشؤون كلّ الأقطار التي زارها[4] ما عدا الهند فإنه لم يلمّ بها إلماما كافيا ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى طبيعة الجغرافية لبلاد الهند وصعوبة اختراق المجتمع الهندي الذي اكتفى بتصوير مدنه الشمالية من بلاد السند، فقال: « وأما بلاد السند وما يصاقبها للإسلام ممّا جمعته في صورة واحدة فهي بلاد السند وشيء من بلاد الهند ومُكران وطوران والبدهه »[5] وتبقى بلاد الهند عليها

---

1 زكي محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، المرجع السابق، ص.113.

2 المرجع نفسه، ص.126.

3 آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تر. عبد الهادي أبو ريدة، ص.

4 أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي،المصدر السابق، ج.1، ص.204.

5 محمد ابن حوقل: **صورة الأرض**، المرجع السابق، ص.312.

مهابة عند جميع الرحالة الجغرافيين الذين سبقوا أبو الريحان البيروني الذي سيكون له شأن عظيم في تاريخ الهند وفي دراسة هذه المنطقة من العالم الإسلامي.

ورغم المعلومات حول الهند وجوانبها الجغرافية في رحلة ابن حوقل إلاّ أن رحلته مصدرا هاما للجغرافية لما تميزت به من حقائق تاريخية مهمة وتصوير دقيق الملاحظة في وصف البلدان مع لغة أنيقة تتميّز بالسهولة والسير دونما تكلف أو تقعر كما سنجد الاختلاف بَيِّنٌ مع لغة البيروني التي لا يفهمها إلاّ مجتهد.

ـ رحلة أبي دُلف (331 هـ – 358 هـ / 942 م – 995 م):

أبو دُلف مِسْعر بن مُهلهل الخزرجي الينبوعي، كان شاعرا ورحالة [1]، ولا يُعرف متى ولد ولا متى مات لعدم تطرق المصادر العربية المهتمة بالتراجم والأدباء إلى تفاصيل حياته، ولعل ذلك يعود إلى ضياع تراثنا الحضاري لأسباب عديدة، والمصدر الوحيد الذي أعطى نبذة مختصرة عن حياته هو كتاب " يتيمة الدهر " للثعالبي الذي لم يتطرق إلى مكان وتاريخ ولادته ووفاته[2] وثمة شذرات متناثرة في كتابيْ " معجم البلدان " للحموي [3] " والفهرست " لابن النديم[4] والقزويني في كتابه " آثار البلاد وأخبار العباد"[5]، ولأبي دُلف رحلتان: رحلة إلى الصين بدأها سنة 331 هـ[6] من بُخارى إلى الهند ثم الصّين، والثانية رحلة طاف خلالها بلاد فارس وأذربيجان وأرمينية.

---

1 خير الدين الزركلي: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ج.2، ص.341.

2 أبو منصور عبد الملك الثعالبي: **يتيمة الدهر**، تحقيق. إبراهيم صقر، مكتبة مصر، د.ت، مجلد 3، ص ص.324 – 325.

3 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، المصدر السابق، ج.3، ص ص.440 – 446.

4 محمد ابن النديم: **الفهرست**، المصدر السابق، ص.471.

5 زكريا بن محمد القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، 1998، ص ص.495 – 589.

6 كارل بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، المصدر السابق، ج.4، ص.245.

ومن خلال الرسالة الأولى[1] والثانية[2] يتبين أنه من رجال القرن الرابع الهجري، دون تحديد لمكان ولادته أو وفاته كما لا نجد أية معلومات عن بداية حياته حتى وصل إلى نصر بن أحمد السماني في مدينة بخارى الذي أوفده إلى الصين حوالي سنة (331 هـ / 942 م) مع بعثة صينية كانت هناك[3] وخلال هذه الرحلة التي شملت الصين والهند ثم العودة إلى سجستان[4] الذي مكث عند حاكمها أبو جعفر محمد بن أحمد بن الليث[5]، ثمّ توجّه إلى أصبهان، وفيها التقى بالصاحب بن عباد الذي أكرم وفادته.[6]

وكان الثعالبي يقول عن أبي دُلف: « وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده، وَيكثر سَواد غاشيته وحاشيته ويرتفع بخدمته ويرتزق في جملته، ويتزود كتبه في أسفاره فتجري مجرى السفاتج في قضاء أوطاره... »[7] اشتهر أبو دُلف شهرة واسعة برسالته الأولى والثانية لأهميتهما الجغرافية والتاريخية، وكان هدفه من تدوينهما « لينتفع به المعتبرون ويتدرب به أولوا العزّة والطمأنينة ويثقف به رأي من عجز عن سياحة الأرض»[8]، وقد ذكر ياقوت الحموي[9] فضله عليه عندما تحدث عن الصين، وقال صاحب صاحب الفهرست وهو يتكلم عن الهند: « قال لي أبو دُلف الينبوعي »[10] حيث اعتمد عليه

1 أبو دُلف: **الرسالة الأولى**، تحقيق. مريون سعيد مريزن عسيرى، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1416 هـ / 1995م، ص.10.

2 مسعر أبو دُلف: **الرسالة الثانية**، تحقيق. بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف، تر.محمد مرسي، عالم الكتب، 1970، ص.30.

3 زكي محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص.32.

4 حول مدينة **سجستان** انظر الإصطخري: **مسالك الممالك**، دار صادر، بيروت، 1427 هـ، ص.238. وكتاب القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**.

5 محمد بن أحمد الليث أبو جعفر محمد، تولى سجستان بعد والده أحمد حسين ولاه إياها نصر بن أحمد الساماني سنة 309هـ، انظر ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج.11، ص.290.

6 **الصاحب بن عباد إسماعيل بن العباس الطالقاني** (ت.385 هـ / 983 م) مؤيد الدولة بن بويه، كان من مشاهير الأدباء وأفاضل العلماء، له مصنفات عديدة منها: المحيط، الوزراء وغيرها، انظر الثعالبي: **يتيمة الدهر**، المصدر السابق، ج.3، ص ص. 324 – 342، ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج.6، ص.168.

7 أبو منصور عبد المالك الثعالبي: **يتيمة الدهر**، المصدر السابق، ص.325.

8 مسعر أبو دلف: **الرسالة الثانية**، ص.30.

9 ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، ج.6، ص.127.

10 ابن النديم: **الفهرست**، المصدر السابق، ص.346.

سماعا، كما يعتبر من أهم مصادر القزويني صاحب " آثار البلاد وأخبار العباد وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " قال عنه: « مسعر بن مهلهل فإنه كان سياحا».[1]

وتعتبر رحلاته جغرافية ترمي إلى وصف البلدان والمدن، فقد تمكن من تحديد مواقع العديد من المدن مثل مدينة المُلتان[2] ضمن المدن الهندية التي مرّ بها حوالي عام 331 هـ / 942 م، فقد ذكر أنها أول أرض الهند ممّا يلي بلاد السّند [3] وهذا انطلاقا من الجزء الشمالي لبلاد الهند بعد أن جاءها من بلد الفلفل (المليبار) والتي تقع في وسط الجنوب الغربي من الهند ويبدو أنه وصلها عن طريق البحر من (كله) إلى سرنديب (سيريلانكا) ثم إلى الهند، لقد قام مسعر برحلة طويلة إلى الشرق يبدو من خلالها أنها استغرقت منه زمنا ليس باليسير، شاهد خلالها المسالك والممالك الشرقية فترك لنا وصفا شيّقا لرحلته في هذا العصر إلى تلك المناطق والقبائل المجهولة في تركستان الغربية والشرقية والتبت والصين والهند، عاداتها وتقاليدها وأعرافها وصناعتها وتجارتها وطرق معيشتها وحياتها عامة.[4]

حدّد أبو دُلف منهجه في وصف البلدان منذ البداية باعتماده الإيجاز منهجا والتزم به، لذلك كانت أوصافه مقتضبة ووجيزة وهي سمة تميّزَ بها من بين الرّحالة الجغرافيين، ومن السّهل على من يقرأ رحلته أن يلحظها من أوّل وهلة، وتبدو هذه الملامح بارزة في وصفه للهند وبلاد الصين في جوانبها المختلفة[5] فقد أفاد كثيرا المهتمين بالأدب الجغرافي

---

1 زكريا بن محمد القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، المصدر السابق، ص ص.445 – 589.

2 **الملتان:** ولاية في إقليم السند وملتان مدينة مشهورة اتخذت قصبة لتلك الولاية، يسميها العرب "فرج بيت الذهب" لأنها فُتحت في أول الإسلام على يد محمد بن يوسف أخ الحجاج، وكان المسلمون في ضيق وقحط، وسميت بالملتان نسبة لصنم كبير كانت تعظمه الهنود. ابن خرداذبة في **المسالك والممالك**. ص.56، الإصطخري. ص.103، **صورة الأرض**. ص.278، **نزهة المشتاق**، ص ص 41–46.

3 مسعر أبو دلف: **الرسالة الأولى**، المصدر السابق، ص ص.21 – 33.

4 المصدر نفسه، ص.19.

5 ــ مصطفى سالم عبد الله: **أدب الرحلات عند العرب**، ص.82.

العربي بسيل من المعلومات في شتى مظاهر الحياة عن بلاد الهند والصين والترك[1]، فنجده في الجانب السياسي يعطي صورة جيدة عن توزيع الانتماء السياسي للقبائل التركية والصينية والهندية وما تميزت به بعض القبائل من قوة ونفوذ وسيطرة على قبائل أخرى[2] وفي الجانب الاقتصادي صوّر لنا ما تنتجه هذه الأقاليم من منتجات زراعية مختلفة ومن معادن وأحجار كريمة ونباتات طبية وعطور ومختلف الصناعات التي اشتهرت في بلادهم وأصبح لها سوق رائجة في بلدان العالم الإسلامي.[3]

أما الجانب الاجتماعي فنجد أن مشاهداته تتفق مع تلك التي ذكرها لنا العديد من الرحالة الجغرافيين والبلدانيين[4] فنجده يصف كل مدينة وكل قبيلة في عاداتها وتقاليدها وأعرافها ومأكلها وملبسها وأعيادها[5] ولم ينس ضمن حديثه عن هذه الشعوب أن يصف لنا لنا معتقداتهم وديانتهم وأماكن عبادتهم، ففي الهند وهي محل الدراسة يذكر مِسعَر بأن لهم بيت رصد وحسابا محكما ومعرفة كاملة بالنجوم، وأهل كشمير لهم رصد في بيت معمول جميعه من الحديد لا يعمل فيه الزمان، ومدينة كولم بالهند تشتهر بأطبّائها الذين يؤتى إليهم من أرجاء الهند.[6]

وأبو دلف في روايته لهذه المشاهدات المختلفة نجده يلتزم إلى حد ما بطرق الجغرافيين المسلمين في وصفهم لطبوغرافية بعض المدن طبيعة موقعها وجبالها

---

1 من خلال المعلومات التي ذكرها أبو دُلف في رسالته الأولى والثانية حول مظاهر الحياة المختلفة للبلاد التي ذكرها فإنّ أهل الصين كان لهم النفوذ الأقوى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، خاصة على جنوبها وعلى شمال بلاد الهند.

2 أبو دُلف: **الرسالة الأولى**، المصدر السابق، ص.22.

3 مثل الذهب والألماس والرصاص وأنواع العود المختلفة وكيفية تمييزها والمسك وأنواعه، والصندل والنباتات الطبية وصناعة السيوف القلعية الشهيرة، والخزف الهندي والفارسي، ومقارنته بالخزف الصيني المشهور بجودته. انظر أبو دُلف: **الرسالة الأولى والرسالة الثانية**، المصدر نفسه.

4 مثل ابن الفقيه وابن خرداذبة والاصطخري وابن فضلان.

5 يذكر أبو دُلف أعياد الهند ويؤكد البيروني ذلك في كتابه **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، ص.486. راجع كتاب أحمد يسعد: **ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني**، المرجع السابق، ص ص. 49 ــ 50.

6 أبو دلف: **الرسالة الأولى**، المصدر السابق، الورقة 179، ص.25.

ومصادرها ومياهها وأسوارها ومبانيها وأزقتها مما يجعل ذلك منه موضع تقدير وإعجاب.[1]

تأتي أهمية رحلة أبي دُلف من قيمتها في الأدب الجغرافي إذ يرى كراتشكوفيسكي أنّ أبو دُلف « أحد الأدباء المعدودين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الإسلامية في ذلك العصر على القيام برحلات عريضة».[2]

ولا يخفى عن الجغرافيين والأدباء تأثير أبي دُلف البيّن في العلماء اللاّحقين، إذ صارت رحلته منهلا لهم وخاصة لياقوت الحموي والقزويني والثعالبي وابن النديم.[3]

ـ رحلة المقدسي (336هـ - 375 هـ / 947 م – 985 م):

من أعظم الجغرافيين في القرن الرابع الهجري (10م) هو محمد بن أحمد أبي بكر البنّاء المقدسي المعروف بالبشّاري رحالة جغرافي ولد بالقدس وتعاطى التجارة[4]، لا يُعرف إلاّ القليل عن مولده ونشأته جاب وطاف في أقاليم العالم الإسلامي للتعرف على شعوبها وعادتهم وتقاليدهم معرفة مبنية على الرؤيا والملاحظة الدقيقة[5] سافر إلى الجزيرة الجزيرة والعراق والشام ومصر والمغرب وبلاد فارس، ويبدو أنه لم يتوغل في إقليم الهند مقتصرا

---

1 يتفق ابن خرداذبة وابن الفقيه في كتاب البلدان والاصطخري وابن فضلان وابن رستة واليعقوبي مع أبي دُلف في هذا المنهج الوصفي لجغرافية البلدان... انظر كتاب عبد الرحمن حميدة: **أعلام الجغرافيين العرب**، دار الفكر، ط.1، 1404 هـ/ 1984 م، ص.21.

2 إغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**،المرجع السابق، ج.1، ص.188.

3 راجع ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.2، ص. 340، ج.3، ص ص.250 – 257. وراجع زكريا القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، المرجع السابق، ص ص.45 – 81 – 94 – 97، وانظر أبو منصور الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ج.3، ص ص. 324 – 342، وكتاب ابن النديم: **الفهرست**، ص ص.491 – 492.

4 خير الدين الزركلي: **الأعلام**، المرجع السابق، ج.6، ص.203.

5 أحمد رمضان أحمد: **الرحلة والرحالة المسلمون**، دار الفكر العربي، جدة، د.ت، ص.129.

في رحلته على بلاد السند[1] كما لم يزر الأندلس وسجستان[2] وكانت رحلته بمفهومها الشامل جغرافية حيث قال: « فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه... وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة... واختلاف أهل البلدان...».[3]

ويعتبر المقدسي في القرن الرابع الهجري (10 م) صاحب منهج جديد في الجغرافيا يهتم بدراسة كل إقليم على حدى في جوانبه المختلفة مركّزا على طوبوغرافيا [4] الإقليم، وسمي هذا المنهج بالمنهج الإقليمي الذي برع فيه، وحدّد مصادر رحلته منذ البداية وذكر أنها منحصرة في ثلاث أقسام: « أحدها ما عاينّاه وما سمعناه من الثّقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره، وما بقيت خزانة مَلكٍ إلا وقد لزمتها ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها...».[5]

قسم مملكة الإسلام إلى أربعة عشر إقليما وأفرد أقاليم العجم على أقاليم العرب، فالأقاليم العربية ستّة: جزيرة العرب والعراق وأقور[6] والشام ومصر والمغرب، وأقاليم العجم عنده ثمانية: المشرق والديلم والرّحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان ثم

1 يبدو أن رحلة المقدسي إلى بلاد الهند لم تكن كرحلة المسعودي أو البيروني أو ابن بطوطة الذي سيأتي الحديث عنهم من خلال الدراسة وإنما اقتصرت الواقعة على نهر الغانج شمال شرق الهند، انظر أحمد يسعد: **ثقافة الهند من خلال رحلة البيروني**، المرجع السابق، ص.62، وانظر المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم في سلسلة الجغرافية الإسلامية**، طبعة جامعة فرانكفورت، 1992، مج. 36، ص. 474.

2 **سجستان**: وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة، وهي جنوبي هراة، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، المصدر السابق، ج.3، ص. 190.

3 المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص.1.

4 الطوبوغرافيا: الوصف التفصيلي للمكان، تضاريسه، ومظاهره الدائمة نسبيا سواء أكانت طبيعية أم من صنع الإنسان، توني يوف: **معجم المصطلحات الجغرافية**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1384 هـ / 1964 م، ص.320.

5 المقدسي: المصدر السابق، ص.43.

6 **أقور**: جزيرة بين دجلة والفرات، ينظر الفيروزأباذي: **القاموس المحيط**، باب الراء، فصل الميم.

السند وبدأ وصفه بجزيرة العرب كزميله ابن حوقل لارتباط بيت الله الحرام بها والمدينة المنورة وعمل في تجواله كلّ المهن فخَبِر الحياة خبرة شاملة وعميقة.

وحرَص في وصفه للمدن على إظهار الجوانب الجغرافية كتحديد المسافات بين المدن إمّا بالمراسل أو بالأميال ليكون أكثر دقة في تحديدها.[1]

ومن الظواهر الجغرافية التي انفرد بتفصيلها ظاهرة المناخ وتغيراته في كل إقليم وما ينتج عن ذلك من تأثيرات على البيئة وصحة الإنسان.[2]

فقال مثلا: « اعلم أنّ بفارس صرودا لا تثمر فيها الأشجار من شدة البرد، ولا ينعش فيها الزّرع مثل الأُرد والرُّون والرّهنان وأطراف اصطخر وحُرُوم[3] لا يمكن النّوم فيها بالنّهار من شدة الحرّ مثل سيراف وأرّجان وما بينهما»[4] واستمر على هذا النّهج في جميع الأقاليم يرصُد الاختلاف في مناخها من إقليم إلى آخر حتّى أنّه رسم خارطة مناخية لأقاليم مملكة العرب المسلمين ونال قصب السّبق في هذا المجال من بين زملائه الرّحالة الجغرافيين، وهذا التباين نراه جليّا مع أقرانه من الرحالة الآخرين فلم يكن مثل أبي دُلف في وصفه للمعادن في رحلته[5]، ولم نجد في رحلته إلا النزر القليل وباقتضاب كوصفه لإقليم خراسان حيث قال: « وبه معادن كثيرة»[6] أو إقليم الجبال حيث قال: « وبه معادن برستاق قهستان وبالتّيممرة الصّغرى وبالكبرى فضة وذهب».[7]

1 المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص.107.

2 المصدر نفسه، ص.125.

3 الأرض شديدة الحر وهي لفظة معربة، ينظر الفيروزأباذي: **القاموس المحيط**، باب الميم، فصل الميم.

4 المقدسي، المصدر السابق، ص.439.

5 مثل الذهب والألماس، ينظر **الرسالة الأولى**، الورقة 178، دراسة وتحقيق مريون سعيد مريزن عسيري.

6 المقدسي، المصدر السابق، ص.326.

7 المصدر نفسه، ص.397.

ومن بين القضايا التي انفرد بشرحها دون غيره من الرحالة الجغرافيين في هذا القرن، هي قضية الألسن في كلّ إقليم وما ينتابها من اختلاف في النطق والتركيبات اللفظية كحديثه عن لسان إقليم أهل الجزيرة حيث قال : « لغتهم العربية إلا بصُحار[1] فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجُدّة فرس إلا أنّ اللغة عربية وبطرف الحميري[2] قبيلة من العرب لا يُفهم كلامهم وأهل عدن يقولون لرجليه (رجلينه) وليديه (يدينه) وقس عليه ويجعلون الجيم (كافاً) فيقولون لرجب (ركب) ولرجل (ركل) وجميع لغة العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة، إلاّ أنّ أصحّ لغة بها هي لغة هُذيل، ثم النجدين ثم بقية الحجاز إلاّ الأحقاف فإن لسانهم وحش[3]».

وعن الأقاليم الأعجمية أبان ما فيها من حسن أو شدة إنغلاق كحديثه عن ألسنة إقليم الديلم، فقال : « ولسان قُومس[4] وجرجان متقاربان يستعملون (الهاء) يقولون (هادِه، هادِه، وهاكن) وله حلاوة، ولسان طبرستان مقارب له إلاّ أن فيه عجلة، ولسان الديلم مخالف منغلق ولسان الخزر شديد الانغلاق»[5] .

وكان للحركة الأدبية والعلمية في الأقاليم مجالا وصفيا رصد من خلاله عدد العلماء والفضلاء، ويبدو من خلال صياغته الأدبية لكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ومقارنة مع زملائه الجغرافيين، يظهر هذا الاهتمام، ففي مدينة بغداد : « الفقهاء والقراء، والأدباء والأئمة»[6].

---

1 **صُحار**: قصبة عمان، ينظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.3،ص.393.

2 **الحميري**: منزل باليمن بموضع يُقال له حِمْيَر غربيّ صنعاء، "وهم أهل غتمة ولكنة"، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.2، ص.307.

3 المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ص.96 – 97.

4 **قومس**: وهي كورة كبيرة واسعة، تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان، ينظر الحموي: **معجم البلدان**، ج.4، ص.414.

5 المقدسي: المصدر السابق، ص.368.

6 المصدر نفسه، ص.126.

إلاّ أن اللحن بينهم مشهود: « وكنت إذا حضرت مجلس قاضي القضاة ببغداد أخجل من كثرة ما يُلحن ولا يرون ذلك عيبا»[1] .

وإقليم فارس حظي بنشاط فكري أوفر: « ومن رسومهم إذا صُلّيت العصر كل يوم جلس العلماء للعوام إلى المغرب، وكذلك بعد الغذاء إلى الضحى وأيام الجُمع يجتمعون في غير موضع»[2].

كما تطرق المقدسي في رحلته إلى الأديان في كل الأقاليم التي كتب عنها، إلاّ أن الاقتضاب كان شديدا في تعليقاته مقارنة مع الرحالة الآخرين أمثال المسعودي والبيروني[3]، فقال في وصفه لإقليم العراق: « وبه مجوس كثيرة وذمّته نصارى ويهود وقد حصل به عدّة من المذاهب للحنابلة والشيعة ....» [4] وقال عن مصر : « ذمّته نصارى يقال لهم القبط ويهود قليل»[5]، وتناول بالتفصيل المذاهب الإسلامية على اختلاف طوائفها ومعتقداتها من خلال وصفه للأقاليم[6] .

فإذا كانت الهند قد احتلت مساحة كبيرة من الاهتمام عند الرواد الذين أفردناهم بالدراسة وهم : المسعودي والبيروني، وابن بطوطة، فإن المقدسي عند حديثه عن هذه البلاد يؤكد بقوله أنه دار على تخومها وبلغ سواحلها، فقال : « واعلم أني قد درت على تخوم هذه الأقاليم وبلغت سواحله كلها ورأيت وسمعت ما سأذكره وأكثرت السؤال عن أساميه، تفحصت عن أخباره وعرفت مدنه»[7] لكن المقدسي يعترف بعدم التوغل داخل هذا هذا الإقليم ويقول : « ومع هذا فلا أضمن من وصفه ما أضمن من غيره ولا أصف إلاّ

---

1 محمد المقدسي : **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص.183.

2 المصدر نفسه، ص.439.

3 سيأتي الحديث عنه في الفصل الثالث.

4 المقدسي: المصدر السابق، ص. 126 .

5 المصدر نفسه، ص.202.

6 مصطفى سالم عبد الله حبلوط: **أدب الرحلات عند العرب**، ص.89.

7 المقدسي:المصدر السابق، ص.479.

أمصاره ولا أستقصي في شرحه لما روى: كفى بالمرء الكذب أن يحدّث بكل ما يسمع» وقد استعان بأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي[1] وسأل آخرين فقال: « وسألت رجلا من أهل العلم والحكمة ... ويعرف بالزهد، وقد أقام بتلك البلاد مدة مديدة » ثم يقول: « وسألت فقيها آخر قد وطئ تلك النواحي وعرف أسبابها فصح عندي من قولهما (دون أن يذكر اسميهما)».[2]

والمتأمل في رحلة المقدسي يرى أنه التزم بالخطة التي رسمها لنفسه من البداية حيث لزم نفسه بزيارة مملكة الإسلام دون غيرها، وهذا ما بدا واضحا في " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " ففي قوله : « ولم نتكلف ممالك الكفار لأننا لم ندخلها، ولم نر فائدة في ذكرها»[3] ففي حديثه عن الهند أفرد لإقليم السند[4] مجالا واسعا باعتباره الحد الفاصل للمسلمين مع الهند[5] التي سيكون للرحالة الجغرافيين من بعده الوصف الدقيق لها.

ولا شك أن رحلة المقدسي لم تكن رحلة جغرافية فحسب بل إنها احتوت موضوعات اجتماعية وتاريخية، كما أن كتاب المقدسي أعطى وصفا أقرب إلى الحقيقة العلمية لنظرته الدقيقة للأقاليم رغم المآخذ التي احتوتها الرحلة في جوانبها المتعددة والتي تحتاج بدورها إلى دراسة منفردة.[6]

---

1 انظر أحمد يسعد: **ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني**، ص.58.

2 المقدسي: المصدر السابق، ص ص.479 – 480 .

3 المصدر نفسه، ص.9.

4 المصدر نفسه، ص ص.474 – 496.

5 أحمد يسعد: المرجع السابق، ص ص.62 ــ 65.

6 هناك دراسات تناولت هذه المرحلة أهمها: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن: **الرحلة والرحالة المسلمون**، أحمد رمضان أحمد: دراسة في مجلة المنهل " **أعلام في الجغرافية** "، شاكر الفحام العدد 538، 1997 ، ينظر أيضا **كتاب الرحلات**، ص.18، شوقي ضيف وكتاب **الجغرافية والرحلات عند العرب**، نقولا زيادة، ص.51.

ــ رحلة الإدريسي:

لا يمكن الحديث عن الرحلات الجغرافية دون أن نتكلم عن الإدريسي في هذه الفترة الهامة من التاريخ الوسيط خاصة وأننا تناولنا من بلاد المغرب نموذج ابن بطوطة في رحلته إلى الهند التي سيأتي الحديث عنها في الفصل الأخير من هذه الدراسة.

الإدريسي هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الشهير بالإدريسي هو جغرافي أديب شاعر[1] ولد في سبتة وتعلم بقرطبة وتنسب أسرته إلى الشرفاء الأدارسة العلويين اللذين أسسوا إمارة الخلافة في مطلع القرن الثاني للهجرة [2] اشتهر باسم الشريف الإدريسي لصلة النسب إلى آل البيت أما عائلته فتعود إلى إدريس الأول مؤسس الأسرة الذي نزح من المشرق واستقر في منطقة الريف وأسس الإمارة المستقلة عام 172 هــ /789م واستمرت من أواخر القرن الثامن حتى القرن العاشر الميلادي وتوسعت حتى عادت تشمل المغرب كله.[3]

بدأ الإدريسي رحلته وأسفاره مبكرا واستطاع أن يزور مناطق كل من عرفها في ذلك العصر وشملت رحلاته آسيا الصغرى و هو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره كما شملت رحلته بلاد الأندلس والمغرب ومصر وبلاد الشام وجزيرة العرب ووصل إلى الجزر البريطانية وجزائر بحر المحيط [4] وذلك عام 510 هــ / 1116 م حتى عبر البحر البحر بدعوة من الملك رُجار الثاني ملك صقلية الذي كلفه بوضع كتاب في وصف مملكته وباقي الأصقاع المعروفة في ذلك الزمن، وقد أتم الإدريسي كتابه الموسوم " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " قُبيل وفاة الملك رُجار في شهر جانفي / يناير سنة 548 هــ، وبقي الإدريسي وفيا قريب الصلة بهذا الملك إلى غاية وفاته [5] ثم عاد هذا الجغرافي

---

1 صلاح الدين الصفدي: **الوافي بالوفيات**، اعتنى به برهلموت ريتير، دار النشر فرانز شتايز، دت، ج.1، الطبعة 2، ص ص.163 ــ 164.

2 ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983، ج.1، ص.84.

3 المصدر نفسه، ج.1، ص.210.

4 اغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، المصدر السابق، ج.1، ص.280.

5 خير الدين الزركلي: الأعلام، ج.7، ص.24، وينظر: **دائرة المعارف الإسلامية في مادة الإدريسي**، ج.8، ص.488.

إلى مسقط رأسه سبتة ليتوفى بها خلال عام 560 هـ / 1166 م، فكان الهدف من رحلته هو الجغرافية بمفهومها الشامل في العصور الوسطى أي دراسة صورة الأرض وذكر ذلك في مقدمة كتابه بقوله: « وأول ما أبتدئ به من ذلك الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافيا».[1]

استقصى الإدريسي معلوماته على المعاينة من خلال رحلاته وأعطى وصفا مباشرا على مشاهدته، ونقل أخبارا استعان بها كثيرا من كتب ومصنفات الرحالة الذين سبقوه وسرد لنا بعض الروايات الشعبية التي سمعها أثناء تنقلاته ومخالطة الناس مثلما فعل كثير من الرحالة المسلمين، والمتأمل في رحلة الإدريسي يلاحظ ذلك في أسلوبه دون عناء، ففي وصفه للمدينة المنورة قال: « وهي الآن في حين تأليفنا لهذا الكتاب عليها سور حصين منيع من التراب »[2] وحين عاين مدينة لوشة [3] بالأندلس قال: « ورأيت القوم في هذا الكهف عام عشرة وخمس مائة »[4] وكان القصد الاطلاع على رفات من زعم أنهم أهل الكهف، ومثل هذه المشاهدات عديدة في رحلته [5] يمكن للقارئ الوصول إليها، أما عن عن نقله من الكتب السابقة فقد ذكر الإدريسي في مقدمته أسماء العديد من المؤلفين الذين استمد من كتبهم سواء بذكر الكتاب أو ذكر صاحبه مثل قوله عند نقله عن ابن حوقل حيث قال: « وأخبر الحوقليّ في كتابه أن المرأة العظيمة من نساء القبط ربما ولدت الاثنين والثلاثة في بطن واحد وبحمل واحد ولا يجدون علّة إلاّ ماء النيل »[6] وتتكرر هذه الطريقة الطريقة من النقل عند الإدريسي في مواضع متعددة. [7]

وكان في مواطن أخرى ينقل من كتب سابقة دون ذكر أو إشارة إلى الكتاب أو المؤلف، وهذا ما وقفنا عليه خاصة في المناطق التي لم يزرها، وكان لها حيزا في كتاباته

1 محمد الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1994، ج.1، ص.07.

2 الإدريسي: المصدر السابق، ج.1، ص.143.

3 **لوشة**: مدينة بالأندلس غربي إليزة قبل قرطبة، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، المصدر السابق، ج.5، ص.26.

4 الإدريسي: المصدر نفسه، ج.2، ص. 803.

5 المصدر نفسه، ج.1، ص ص.280 ـ 281 ـ 282 ـ 297 ـ 360 ـ 552.

6 المصدر نفسه، ج.1، ص ص.343 ـ 344.

7 المصدر نفسه، ج.1، ص ص.43 ـ 66 ـ 75 ـ 112 ـ 212 ـ 934.

الجغرافية، وهنا نخص بالذكر بلاد الهند وجزر المحيط الهندي، فقد قسم هذا الإقليم ووصف مدنه وحدد مواقعها مع ذكر أنشطة أهلها وما تشتهر به، مقتديا بزملائه الجغرافيين، وسار وفق نهجهم في وصف هذه المنطقة من العالم في العصور الوسطى ملتزما في تحديد المسافات للمراحل والأيام، ومكثرا في استعماله للأميال التي أثبتت دقتها مع مرّ الأيام.[1]

ومن أشهر المدن التي جاء ذكرها في كتاب الإدريسي مدينة المولتان وكنباية وسوبارة وسندان وصيمور وصندابور وكولم ماي.[2]

وحظيت المعادن النفيسة باهتماماته حيث لم يغفل عن رصدها وتحديد أنواعها وأماكن وجودها إلا أنه لا ينافس في هذا المجال أبو دُلف أو البيروني ممّن سبقوه.

كما أفرد مجالا كبيرا في رحلته للبحار والأنهار ونافس في هذا المجال زميليه من الجغرافيين: المقدسي وابن حوقل لأنه نقل عنهما كثيرا، وانفرد من بين زملائه الجغرافيين بحديثه المفصّل عن صناعة السفن بأنواعها المختلفة مع رصد أماكن تصنيعها وكيفية تجهيزها بدقة عالية [3] وأشار إلى مواضيع أخرى متميزة وإن كانت غير محصورة في الجغرافية مثل تطرقه إلى تجارة الرقيق في إفريقية وما تتسم به من حيل في التغرير بأولادهم قصد استدراجهم وأخذهم، حيث قال في حديثه عن بلاد سفالة [4]: « إن المسافرين المسافرين في بلادهم يسرقون أبناء الزّنج بالتمر يخدعونهم به فينقلونهم من مكان إلى آخر حتى يقبضون عليهم ويخرجوهم من بلادهم إلى البلاد التي يكونون بها».[5]

وكان للتاريخ إفراد في رحلته قلَّ نظيره للأهمية التي جاءت بها معلوماته، ومن أمثلة ذلك حديثه عن تاريخ مدينة بجاية حيث قال: « عمرت بخراب القلعة التي بناها

---

1 ينظر دراسة علمية حول المدن الهندية كما وصفها الإدريسي مقارنة مع من سبقوه من الرحالة المسلمين وهي موسومة باسم **شبه القارة الهندية وبلاد الصين من خلال الرحالة والجغرافيين المسلمين**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، إعداد الباحثة شفيقة عيساني.

2 المصدر نفسه، ج.1، ص ص.178 ــ 181 ــ 182 ــ 183.

3 الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج.1، ص ص. 348 ــ 349.

4 **سفالة:** آخر مدينة تعرف بأرض الزنج، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج.3، ص.224.

5 الإدريسي: المصدر السابق، ج.1، ص.61.

حمّاد بن بلقين وهي التي تنسب دولة بني حمّاد إليها، والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حمّاد، وفيها كانت ذخائرهم مدّخرة وجميع أموالهم مختزنة، ودار أسلحتهم والحنطة تخزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير».[1]

واشتملت رحلة الإدريسي فضلا عن الجغرافية والتاريخ موضوعات أخرى لها أهمية كحديثه عن عادات الشعوب وتقاليدها وعن تصرفاتها وصناعتها مثل الرسم عند الصينيين والشعر في بلاد الأندلس والضباب في أوروبا [2] وغيرها من الحكايات الطريفة والغريبة أحيانا.

تعتبر رحلة الإدريسي مجالا بحثيا بامتياز فقد تناول الدّارسون والنقاد هذه الرحلة فشهدوا له بالدقة في الملاحظة وأنّه يمثل بحق مدرسة جغرافية خاصة [3] لم تبق رحلته مقتصرة على الجغرافية فحسب بل تعدت إلى مناحي الحياة التي عاينها بنفسه أو نقلها عن الآخرين، وظلّ كتابه المصدر الأساسي لعلماء الغرب في الجغرافية على حدّ قول محمد حسن[4] وأشاد كراتشكوفسكي بمؤلفات الإدريسي في الجغرافيا حيث وجد أنها « تمثل بكل تأكيد ظاهرة ممتازة في محيط الأدب الجغرافي العربي خاصة، وفي النشاط العلمي لجميع العصور الوسطى عامّة».[5]

1 الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج.1، ص.261.

2 المصدر نفسه، ج.1، ص.212، ص.543 ص.556.

3 مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، ص. 99، وينظر نقولا زيادة: كتاب الرحالة العرب، ص.40.

4 زكي محمد حسين: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص.60.

5 أغناطيوس كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ج.1، ص.291.

ــ خاتمة:

ما يلاحظ في الرحلات الجغرافية عند المسلمين خلال العصور الوسطى هو وحدة المواضيع المتقاربة ذات الصلة بعلم الجغرافية وفق مفهومه الشامل في هذه المرحلة من تاريخ العالم الإسلامي، فجاءت معلوماتهم متقاربة وأوصافهم متشابهة فهم يتفقون في تقسيم البلدان إلى أقاليم وأمصار وبحار وأنهار في دراستهم للمناخ، وفي استخدامهم للمصطلحات القياسية كالبريد والفراسخ، والمراحل والأميال، وفي تناولهم لأنشطة المدن من حيث الاقتصاد في مجاله الزراعي والصناعي والتجاري والحِرَفي.

ويختلفون في طريقة تناولهم كلّ حسب أسلوبه، فهذا يستطرد وذاك يقلّ واختلافات أخرى متعددة، ولعلّ ذلك مرده إلى تعدد الميول وتباين الطبائع.

ومن أهم الجوانب الجغرافية التي ركّز عليها الرحالة الجغرافيون على امتداد الرقعة الجغرافية لمملكة الإسلام هي جغرافية المدن والبلدان مع اختلاف الأجناس وتعددها، وجغرافية البحار والأنهار وجغرافيا المعادن الطبيعية ودراسة المناخ وتأثيراته على سكان كل إقليم وما ينتج عنه من تنوع في المحاصيل من حيث الصنف والاختلال في الوفرة والندرة وكانت رحلاتهم فضلا في جوانبها الجغرافية مصدرا تاريخيا مهما لكثير من الأحداث والوقائع بحيث لا يمكن لأي دارس في التاريخ أن يتخلى عنها، فجاءت قضاياهم هذه التي ذكرناها متفاوتة من رحالة إلى آخر وعلى هذا المنهج جاءت قضية المجتمع الهندي مقتضبة عند الإدريسي ونادرة عند اليعقوبي وهي باستطراد عند رحالة آخرين أمثال المسعودي والبيروني وابن بطوطة، هؤلاء الذين أخذناهم كنماذج لهذه الدراسة.

المبحث الثالث: رحلات رسمية ومهمات

هو نوع من الرحلات التي ظهرت مع الدولة العباسية لتأدية مهمة رسمية أو سفارة بين مملكة العرب المسلمين والدّول التي ترتبط معها بعلاقات وثيقة وهي رحلة خاصة مموّلة من قِبل السلطة المركزية في الدولة وقد خُطّط لها مسبقا ولها أهداف معلومة، وأغراض محدّدة منذ البداية[1] وتعتبر رحلة البيروني من الرحلات الهامة في هذا النوع من الرحلات التي رافق فيها محمود الغزنوي في فتحه لبلاد الهند[2] ومن أهم الرحلات الأخرى في هذه الحقبة من تاريخ العالم الإسلامي .

أ ــ رحلة يحيى بن الحكم البكري الجيّاني الملقب (بالغزال) [3]: 156 هــ ــ 250 هــ / 770 م ــ 864 م

كان شاعرا كثير القول ذا أخلاق فاضلة سريع البديهة، عالما بعلم النجوم حتى عرف بحكيم الأندلس وشاعرها وعرّافها.[4]

أُرسل الغزال في مهمتين الأولى كانت إلى الملك توفلس إمبراطور القسطنطينية يحمل إليه كتابا رسميا وهدايا من السلطان عبد الرحمن الثاني ردّا على سفارته التي وصلت إلى قرطبة في زيارة رسمية، وعاد الغزال من هذه الرحلة إلى قرطبة بعد غياب

---

1 مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، ص.171.

2 ينظر الفصل الخاص بالرحالة البيروني، ص.

3 **يحيى بن الحكم:** ولد سنة 156 هــ في إمارة عبد الرحمن بن معاوية وعاش في إمارة هشام وإمارة الحكم وإمارة عبد الرحمن الثاني ومات في إمارة الأمير محمد سنة 250 هــ، ونسبته البكري تدل على أنه كان ينحدر من قبيلة بني بكر ذات الأصول العربية العريقة، والجياني نسبة إلى مدينة واسعة بالأندلس قريبة من قرطبة، ينظر أحمد بن يحيى الضبي: بغية الملتمس، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص.485، وينظر أغناطيوس: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ج.1، ص.135 وهو الوحيد الذي يرى أن مولده كان عام 153 هــ.

4 أحمد المقري: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ج.2، ص.254، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.

دام عدة أشهر وقد بهرته القسطنطينية في روعة عمرانها وقد أشار أحمد المقري إلى هذه الرحلة باقتضاب.[1]

أما الرحلة الثانية فكانت سفارة إلى ملك المجوس ــ النورمنديون ــ استجابة لندائه من أجل عقد صلح مع العرب والمسلمين بعد هزيمة قواته البحرية عند غاراتهم على الأندلس فأوفده السلطان عبد الرحمن مع رسل ملك المجوس وكان برفقته العالم المالكي أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي (174 هــ ــ 238 هــ) ارتحل إلى مدينة شِلِب [2] حيث أُعدّ له موكب لائق بكامل تجهيزاته.

وأعطي له كتاب سلطاني وهدايا ثمينة ردا على هدايا ملك النورمد وأدت هذه الرحلة مهمتها على أحسن حال لما أتم الوفد هذه السفارة على الغزال عن طريق شنت يعقوب [3] ثم غادرها إلى قشتالة [4] ومنها خرج إلى طُليطلة [5] في رحلة لم تنقطع حتى وصل إلى حضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهرا، وأول من دوّن أخبار هذه الرحلة تمّام بن علقمة الحاجب وكان معاصرا للغزال وقد احتفظ ابن دحية بتفاصيل وافية عن هذه الرحلة في كتابه المطرب.[6]

ذكرنا هذه الرحلة من هذا النوع لقيمتها العلمية والأدبية ودورها التاريخي في أول رحلة عربية تنفرد في زيارتها إلى شعوب الفايكينج في شمال غرب أوروبا، وجعلت الغزال يأخذ المكانة والريادة بين الرحالة المسلمين في العصور الوسطى، وتعتبر هذه الرحلة وثيقة أصلية ذات أهمية بالغة في ميدان الدبلوماسية الإسلامية لما تمثله هذه المهمة

---

1 المقري: **نفح الطيب**، ج.1، ص. 346.

2 **شلب**: مدينة أندلسية غربي قرطبة، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.3، ص.375.

3 **شنت يعقوب**: قلعة حصينة بالأندلس، المرجع نفسه، ج.3، ص. 368.

4 **قشتالة**: إقليم عظيم بالأندلس قصبته اليوم طليطلة، المرجع نفسه، ج.4 ،ص.352.

5 **طليطلة**: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس، المرجع نفسه، ج.4، ص.39.

6 أبو الخطاب عمر بن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق. إبراهيم الأبياري، أحمد أحمد بدوي، حامد عبد الحميد، طه حسين، **مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة**، د.ت، ص.146.

من تواصل حضاري مباشر بين حضارة العرب المسلمين وحضارة شعوب أوربا الغربية في هذه الفترة المبكرة من التاريخ، كما وثّقت هذه الرحلة في تقريرها المقدم إلى الأمير عبد الرحمان الثاني لنشأة البحرية الأندلسية بأسطولها الكبير في بحر الشمال لما لهذا التوسع من ربط علاقات تجارية مع بلدان أوربا الغربية.[1]

ب ــ رحلة سلاّم الترجمان (227 هــ - 232 هــ / 842 م – 847 م):

هي رحلة من رحلات المُهمات الرسمية تردد ذكرها في المصادر التاريخية، فقد ذكره القزويني[2] فقال: « إن سلاّما الترجمان أمره الخليفة العباسي الواثق بالله [3] بالرحيل ليتفقد السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين وذلك تنفيذا لرؤيا رآها في المنام مؤداها أنه رأى السد الذي بناه الإسكندر والذي يقع بين بلاد المسلمين وبين يأجوج ومأجوج [4] مفتوحا مفتوحا فأخافته الرؤيا» [5] فيبدو أن هدف هذه الرحلة هو مهمّة التحقق من سلامة اختياره على سلاّم الترجمان [6] الذي أخبر عن ذلك بقوله: فدعاني الواثق، وقال: «أريد أن تخرج إلى السدّ حتى تعاينه وتجيئني بخبره».[7]

1 ينظر دراسة حول السفارتين: كتاب **أدب الرحلات عند العرب**، المرجع السابق، ص. 172.

2 القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، ص. 93.

3 **الواثق بالله:** بويع سنة 227 هــ بعد انقضاء أيام المعتصم، كان الواثق من أفاضل خلفائهم وكان فاضلا لبيبا فطنا فصيحا شاعرا، وكان تشبيهه بالمأمون في حركاته وسكناته، ولمّا وُلّي الخلافة أحسن إلى بني عمّه الطالبيين وبرّهم ولم يقع في أيامه من الفتوح الكبار والحوادث المشهورة ما يؤثر، ومات في سنة 233 هــ... ثم ملك بعده أخوه جعفر المتوكل. ينظر كتاب **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقة، دار صادر، بيروت، د.ت، ص.236.

4 يُدعى هذا السد بسدّباب الحديد وقد حدّد عبد الحكيم الصعيدي موقعه اليوم حيث قال: « يقع فيما وراء جيحون ويقال: إنه في آسيا الوسطى شمال الصين، ويقال: إنه سدّباب الأبواب بين جبلين، هما جبلا أرمينية وأذربيجان» ينظر عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: **الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها**، مكتبة الدار العربية القاهرة، 1996، ص.98.

5 القزويني: المصدر السابق، ص. 93.

6 يبدو أن اختيار سلام الترجمان لأنه يجيد عدّة لغات حتى قيل أنه يتكلم بثلاثين لسان وإن كان في هذا القول مبالغة فإنه كان يجيد أكثر من لغة وبطلاقة تامة، كما أشار إلى ذلك عبيد الله بن خرداذبة في **المسالك والممالك**، ج.1، ص. 163.

7 عبيد الله بن خرداذبة: المرجع السابق، ج.1، ص.163.

وسار سلاّم من مدينة (سُرَّ من رأى) حاضرة الدولة العباسية في تلك الفترة ومعه خمسون رجلا ومائتا بغل تحمل الزاد والماء، وقد استجاب حاكم أرمينية لخطاب التوصية الذي أرسله الخليفة إليه مع سلاّم ليقضي له حوائجه ويسهل مهمته فزوده حاكم أرمينية بدوره بخطاب يرجو فيه حاكم إقليم السّرير والخزر بالعناية والرعاية [1]، وذكر الإدريسي فقال: «وكتب حاكم إقليم السّرير إلى أمير إقليم اللان، وكتب الأخير إلى أمير فيلاشاه وكتب هذا بدوره إلى ملك الخزر في إقليم بحر قزوين الذي أرسل معه خمسة من الأدلاء، ساروا حتى وصلوا بعد ستة وعشرين يوما إلى أرض سوداء كريهة الرائحة، ولكن الأدلاء كانوا مستعدين لاتقاء هذه الرائحة الكريهة بحمل الخل معهم، وأخيرا انتهوا إلى الصور والسد المنشود، وعلى مقربة منه وجدوا حصونا تسكنها أمة مسلمة تتكلم العربية والفارسية ولكنها لم تسمع بخليفة المسلمين» [2] ويبدو أن سلاّم الترجمان كان حريصا على رصد جلّ معلوماته عن طريق المعاينة الحقيقية تلبية لأمر الخليفة الواثق بالله، فلما وصل إلى السدّ وجد ببابه شقّا، آثر أن يعاينه بنفسه بدقة متناهية، حيث قال: « فدنوت وأخرجت من خفيّ سكينا، فحككت موضع الشق، فأخرج منه مقدار نصف درهم، وأشدّه في منديل لأريَه الواثق بالله » [3] كما نقل بعض أخباره من الروايات المحلية المحلية المنتشرة بين السكان خاصة تلك الأخبار المتعلقة بيأجوج ومأجوج، وهي حكايات ممزوجة بالأساطير كما يتجلى ذلك في قوله: « وذكروا أنهم رأوا مرة عددا فوق الجبل، فهبت ريح سوداء، فألقتهم إلى جانبهم وكان مقدار الرجل في رأي العين شبرا ونصفا» [4]

---

1 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مادة الصين، ص.

2 الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص.127.

3 عبيد الله بن خرداذبة: **المسالك والممالك**، ج.1، ص.168.

4 المصدر نفسه، ج.1، ص.168.

والقصد من هؤلاء هم أتباع يأجوج ومأجوج وهناك حكايات أخرى تداولتها الرحلة [1] ولما فرغ سلاّم الترجمان ورفقاؤه من مشاهدة السور رجعوا إلى سر من رأى مارين نجرسان، وكان غيابهم في هذه الرحلة ثمانية عشر شهرا [2] ومهما يكن من أمر رحلة سلاّم الترجمان فإننا لا نستطيع الاعتماد عليها من حيث تقويم البلدان أو المعلومات الجغرافية باعتبارها غير مدونة من صاحبها مثلها مثل رحلة ابن وهب القرشي أو سليمان التاجر في وصفهما لبلاد الصين والهند، حيث لم نعثر على رحلاتهم مدونة باستثناء ما جمعه من أتى بعدهم من الرحالة أو الجغرافيين أمثال أبو زيد حسن السيرافي أو المسعودي ومثل هؤلاء رحلة سلاّم الترجمان التي جُمعت مقتطفاتها عن القزويني وياقوت الحموي والإدريسي ... وابن خرداذبة.

ومهما يكن فإن هذا النوع من الرحلة امتاز بصفته الرسمية حيث قوبل الوفد بكل ترحاب من قبل الولاة والأمراء، وقدم سلاّم الترجمان تقريرا مفصلا عن مهمته إلى الخليفة الواثق بالله بعد عودته حيث قال: « فدخلت على الواثق فأخبرته بالقصّة وأريته الحديد الذي كنت حككته من الباب، فحمد الله وأمر بصدقة يتصدّق بها وأعطى الرجال كل رجل ألف دينار».[3]

وعلى الرغم ما قيل حول هذه الرحلة فهي من أنواع الرحلات الرسمية التي ساهمت في توطيد دعائم هذا النوع من ألوان الرّحلات التي حققت مرادها بالنسبة للخليفة.

وإن كنا غير قانعين بما أورده الخليفة في منامه أنه رأى السدّ الذي بناه ذو القرنين مفتوحا أمام يأجوج ومأجوج ليتأكد من ذلك، ولعله أراد غير ذلك من هذه المهمة

---

1 قام بجمعها زكي محمد حسين من مصادرها واستطاع أن يعطينا فكرة متكاملة عن رحلة سلاّم الترجمان في كتابه **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص.15. كما أن المصادر التي تداولتها موجودة في كتاب القزويني وياقوت الحموي والإدريسي وأبو حامد الأندلسي.

2 محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص.16.

3 عبيد الله بن خرداذبة: **المسالك والممالك**، ج.1، ص.170.

التي ربما أخفى من خلالها الأسباب الحقيقية مثل تحققه من طاعة الأمراء والولاة له ومدى قدرته على بسط نفوذه وسلطانه على تلك الأقاليم البعيدة عن حاضرته.

جـ ــ سفارة ابن فضلان إلى ملك الصقالبة (309 هــ / 921 م):

إذا كنا قد ذكرنا بعض الرحالة المسلمين الذين فقدت مدوناتهم عن رحلاتهم ففي هذا النوع من الرحلات يمكننا إضافة رحلة لها من الأهمية بمكان نظرا لوصول مدونة الرحلة إلينا ألا وهي رحلة ابن فضلان بن عباس بن رشد بن حمّاد [1]، كان مولى الخليفة العباسي المقتدر والقائد العباسي محمد بن سليمان الذي أفلح في إلحاق الهزيمة بالدّولة الطّولونية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية سنة 292 هــ [2] كانت سفارته تلبية لطلب من ملك البلغار الذي أرسل إلى الخليفة المقتدر بالله كتابا مع وفد يرأسه عبد الله بن باشتو الخزري، يناشد فيه أمير المؤمنين: أن يرسل له بعثة من قبله تفقهه في الدين وأن يبني له مسجدا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار المملكة ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له.[3]

وقد أوضح ياقوت الحموي سبب خوف ملك البلغار من الملوك المخالفين له فيقول: « وكان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغار وكانت مملكتهم عند مصب نهر الفُلجا ولكنهم كانوا من أتباع الديانة اليهودية وكانوا يعدون ملوك البلغار تبعا لهم».[4]

غادرت البعثة بغداد سنة 309 هــ متجهين إلى بُخارى فخوارزم فبلاد البلغار حيث وصلوا في سنة 310 هــ / 922 م وصادفوا في سفرهم متاعب كبيرة، ومشاكل جمّة، وقد ترك لنا ابن فضلان في رحلته صورة واضحة للبلغار وحضارتهم وعاداتهم

---

1 خير الدين الزركلي: **الأعلام**، المصدر السابق، ج.1، ص.195.

2 أبو العباس أحمد المقريزي: **الخطط**، المصدر السابق، ج.1، ص.322.

3 أحمد رمضان أحمد: **الرحلة والرّحالة المسلمون**، ص.45.

4 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، المصدر السابق، ج.1، ص.مادة بلغار.

وتجارتهم [1] ونقل عن رسالة ابن فضلان المؤلفون المسلمون منذ القرن الرابع الهجري ــ العاشر الميلادي كالإصطخري والمسعودي، ونقل ياقوت الحموي أجزاء كبيرة منها فيما كتب عن مادة " أبل " و " باشغرد " و " خزر " و " خوارزم ".[2]

وأشار زكي حسن إلى شرح رسالة ابن فضلان لأول مرة من طرف المستشرق فرهن Faehn سنة 1823 في سنت بطرسبورج.

أما مصادر ابن فضلان التي استقصى من خلالها أخباره ومشاهداته العديدة فقد انحصرت في معاينته الشخصية، وما سمعه من روايات محلية شائعة بين الناس ولو قارنا بين الأخبار التي عاينها بنفسه مع التي سمعها لكانت الأولى أكثر عدّا وأصدق خبرا[3]، والأمثلة عديدة لمن ترومه هذه الدراسة بالتفصيل من القراء والباحثين.

وما دام أن هذه الرحلة كانت من نوع رحلات المهمّات على شكل سفارة لتقديم كتاب الخليفة المقتدر بالله لملك الخزر، فقد جدّ ابن فضلان السير نحو مملكة الخزر حتى وصلوا إلى ملك الصقالبة، وكان ذلك في يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة عشر وثلاثمائة حيث استقبلهم ولاته بكلّ ترحاب وحفاوة، وفي يوم الخميس التقوا بملك الخزر في حفل مهيب ضم أولاده وجميع وجوه مملكته ووقف ابن فضلان على رؤوس الأشهاد وفي يده كتاب أمير المؤمنين المقتدر بالله، وشرع في قراءة الكتاب بقوله: « وبدأت فقرأت الكتاب فلما بلغت منه سلام عليك فإنّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، قلت: رُدّ على أمير المؤمنين السّلام، فردّ وردّوا جميعا بأسرهم، ولم يزل التّرجمان يترجم لنا حرفا حرفا فلمّا استتمنا قراءته كبّروا تكبيرة ارتجت لها الأرض»[4] وما زال ابن

---

1 زكي حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص. 46.

2 ينظر هذه الأسماء في كتاب **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، ج.1، ص.87، ج.2، ص.367.

3 أحمد بن فضلان: **رسالة ابن فضلان**، تحقيق وتعليق وتقديم سامي الدهان، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، 1413 هــ – 1993.

4 المصدر نفسه، ص. 114.

فضلان يؤدّي السفارة على أتم وجه في جميع مجالاتها حتى الدينية منها لأنه فقيه وشيخ من رجال الدين، وإن كان قد أقرّ في تغيير بعض عادات الصقالبة التي لا تتناسب مع شريعة الإسلام كرفع أصواتهم [1] وقوانين ميراثهم... [2]

فمجال البحث في هذه الرحلة يمكن أن يستحوذ على اهتمام الكثير من الدارسين لفن الرحلات، وإن جاءت أراء جلّ من تطرق إلى رسالة ابن فضلان متفقة على قيمتها المتعددة في جوانبها المختلفة وعلى رأس هؤلاء المستشرق كراتشكوفسكي الذي يرى أنّه: « لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصي السّلس ولغتها الحية المصورة التي لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدُّعابة التي ربّما لم تكن مقصودة» [3] ويرى محقّق الرّسالة سامي الدهّان أن: « رسالة ابن فضلان تفصل الدقائق وتوضيح الحركات في شكل دقيق لا نراه في مصدر عربي أو غربي غيرها» [4] وذكر مصطفى سالم عبد الله حيلوس: « ابن فضلان لو لم يكن كذلك ما أرسله الخليفة المقتدر في سفارة تنوب عنه إلى بلغار الصقالبة»[5]، وأضاف شوقي ضيف وهو يشهد له بالدقة حيث قال عنه: « وقام بمهمته خير قيام... وألمّ إلماما دقيقا بأحوالهم وبكلّ ما بديارهم من مظاهر الحضارة والعمران».[6]

أما نيقولا زيادة فيرى أننا ننعم اليوم بعد مرور أكثر من ألف سنة على قيام هذه الرحلة: « بوصف دقيق طريف بأسلوب ممتع شائق»[7] والمتأمّل في رحلته التي اعتبرت مصدرا من مصادر التاريخ الروسي يجد من القواسم المشتركة ما يجمعه مع الرحالة

---

1 أحمد بن فضلان: **رسالة ابن فضلان**، ص. 82.

2 المصدر نفسه، ص. 132.

3 أغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، المصدر السابق، ج.1، ص.186.

4 أحمد بن فضلان: المصدر السابق، ص. 33.

5 مصطفى سالم عبد الله حبلوس: **أدب الرحلة عند العرب**، المرجع السابق، ص. 193 .

6 شوقي ضيف: **الرحلات**، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1979، ص ص.49 – 50.

7 نقولا زيادة: **الجغرافية والرحلات عند العرب**، الشركة العلمية للكتب، القاهرة، 1962، ص.196.

العرب الآخرين في المنهج السردي للمواضيع التي تثير انتباههم أو ما هو غريب وغير مألوف عندهم وحتى نقرّب الصورة نعطي مثالا عن ذكر ابن فضلان إحراق الروس للموتى عندهم، فقد وصف الحرق وصف شاهد معاين، فالجغرافيون والرحالة العرب في القرن الرابع ذكروا أن الروس كالهنود يحرقون موتاهم، فقال ابن حوقل: « والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ويحترق مع مياسيرهم الجواري منهم بطيبة أنفسهن، كما يفعل الهند وأهل غانة وكوغة وغيرهم» [1] وقال المسعودي: « فأما من في بلاده من الجاهلية فأجناس منهم صقالبة وروس وهم أحد جانبي هذه المدينة، ويحرقون موتاهم ودوابهم، والألبسة والحلية، وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته في الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل... وهذا فعل من أفعال الهند ».[2]

فرسالة ابن فضلان مرجع من أهم المراجع عن البلاد التي زارها خاصة بلاد البلغار وبلاد الروس، وذلك سبب عناية المستشرقين بها.

التقت هذه الرحلات في طابعها العام فهي رحلات رسمية لا ندّعي أننا ألممنا بجميعها، فهي سفارات أشرفت عليها الدول والإمارات بتمويل من السلاطين والحكام حيث حُدّدت أهدافها ورُسمت مساراتها قبل انطلاقها، وهي مدعومة بتسهيلات من الدول التي تربطها بالمملكة الإسلامية علاقات جيدة فتمكنت رحلة يحيى بن الحكم البكري الجياني الأندلسي الملقّب بالغزال ورحلة ابن فضلان من توطيد دعائم الإخاء والسلام بين العرب المسلمين ودول شمال وشرق أوروبا.

أما رحلة سلاّم الترجمان فجاءت مهمتها استطلاعية لتُميط اللّثام عن حقيقة الحكايات والأساطير التي هيمنت على أروقة القصور العباسية فضلا عن انتشارها بين الأوساط الشعبية ولعلها نسجت من أطراف مختلفة لتحقيق أغراض كانت مخفية أو

---

1 ابن حوقل النصيبي: **صورة الأرض**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص.397.

2 المسعودي: **مروج الذهب**، ص.

مشبوهة، كقصة أصحاب الكهف في الرقيم ويأجوج ومأجوج في السدّ الذي بناه ذو القرنين.

ويبقى هذا النوع من الرحلات مصدرا من مصادر التاريخ التي تحدّد معالم الوصف الجغرافي والاجتماعي والثقافي للبلاد التي يزورها الرحالة.

المبحث الرابع: الرحلات الدينية

اشتهر هذا النوع من الرحلات مع انتصار رسالة الإسلام، وهي الرحلة التي تتناول وصف الأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين ومزارات الشهداء والأولياء الصالحين وتتحدث عن شعائر الحج والعمرة من مناسك وعبادات وغيرها لما لهذه الأماكن من القدسية وجلب القلوب المؤمنة وتحريك الجماعات في رحلات جماعية منظمة، وقد أرفق هذه الجموع الرحالة العرب المسلمون ووصفوا بأسلوبهم هذه المواكب في حلها وترحالها وفي أمنها وخوفها عبر المفازات الواسعة أو بين الأمواج العاتية، وأفاضوا في وصف المدن التي مرّوا بها والبلدان التي اجتازوها والبحار التي ركبوها [1] وأشهر هؤلاء الرحالة ابن جبير والعبدري وابن بطوطة الذي أخذناه أنموذجا في هذه الدراسة في رحلته إلى بلاد الهند.[2]

ويعتبر هذا النوع من أقوى الدوافع المحركة للرحلات من المشرق الإسلامي إلى بلاد الحجاز أو من بلاد المغرب إلى المشرق وذلك لأن الرحلة إلى الأماكن المقدسة أصبحت واجبا دينيا مرتبطا بفترة زمنية محدّدة تهون في سبيل تحقيقها كل التضحيات انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾[3] فمن استقرائنا لغايات الرحلة وأهدافها نجد أنها كانت تتوخى إحدى هذه

---

1 نواف عبد العزيز الجحمة: **رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي،** المرجع السابق، ص.25.

2 أما عن الرحلات الهندية إلى مكة المكرمة التي صدرت في كتاب منفصل وبشكل واضح رغم أن آلاف الحجاج سافروا إلى الأراضي المقدسة من شبه القارة الهندية لم نجد رحلة كتبت حتى عام 1285 هــ ــ 1868 م وربما كتبت بعض الرحلات وفقدت إلا أنه من الواضح أن هذا النمط الأدبي في شبه القارة الهندية بدأ أولا عبر اللغة الفارسية على يد الشيخ عبد الحق الدهلوي المعروفة باسم "جذب القلوب إلى ديار المحبوب" 997 هــ ــ 1589 م وهي تعد من أقدم الرحلات إلى الحج الهندية التي كتبت باللغة الفارسية في شبه القارة الهندية وقام محمد شفيع المراد آبادي بترجمتها إلى الأردية بعنوان "ديار حبيب" وظهرت لها ترجمة ثانية بعنوان"راحت القلوب" ترجمة حكيم عرفان علي، وقد كتبت رحلات الحج الأولى باللغة الفارسية لغة العلم والأدب ولغة الحكام المسلمين في الهند وكان العامة والخاصة يفهمونها بسهولة وظلت اللغة الفارسية رسمية في الهند إلى أن سيطر الإنجليز على حكم الهند بعد الثورة الهندية 1857 م فشجعوا اللغة الأردية وفرضوها على سكان الهند بدلا من الفارسية ساهموا في تطوير النثر الأردي خاصة عندما أنشئوا كلية فورت وليم Fort William Colleg في كولكات kolkat سنة 1800م. راجع مقال حول **رحلات الحج الهندية إلى مكة المكرمة وأثرها في مسلمي شبه القارة الهندية،** جمال السعيد الحفناوي، ثقافة الهند، المجلد 55، العدد 4، 2004.

3 **القرآن الكريم: سورة الحج،** الآية: 27.

الغايات وهي تأدية فريضة الحج والقيام بالمناسك وما يصحبها من زيارة قبر النبي ﷺ والصحابة الكبار أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وكانت الرحلة الدينية لا تقتصر على بلاد الحجاز، فكان الرحالة يقصد دمشق والقدس والخليل وغيرها نظرا لماضيها السياسي المشرق وريادتها العلمية والثقافية التي استمرت لفترة طويلة والتي استأثرت باهتمام الكثير من المؤرخين والعلماء الذين كتبوا مؤلفات عديدة في بيان فضلها ومركزها [1] فمكانة القدس الشريف في نفوس المسلمين من أقصى شرق آسيا إلى بلاد المغرب الإسلامي عظيمة فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين ولها من الفضائل ما ذكره النبي ﷺ، بالإضافة إلى احتوائها أضرحة الكثير من الأنبياء عليهم السلام، وإذا تمعنا في كتب التراجم نجد أسماء العديد من الرحّالة الذين رحلوا إلى بلاد المشرق لزيارة الحرم الشريف في مكة والمدينة المنورة والقدس الشريف من بلاد الأندلس والمغرب أو من بلاد الهند ودول شرق آسيا.[2]

ولم يكتف هؤلاء بزيارة الأماكن المقدسة فقط بل حرصوا على زيارة الحواضر العلمية ومراكز النشاط الثقافي، ومن أقدم الرحلات العربية التي ورد فيها بيان الحج رحلة أبي عبد الله المقدسي [3] ورحلة أبي القاسم البغدادي [4] وتعد رحلة حكيم ناصر خسرو وهي بداية رحلات الحج في اللغة الفارسية حيث سافر إلى الحج عام 437 هـ / 1045 م وقضى في رحلته نحو ثمانية أعوام أدى الفريضة وطاف بلاد الإسلام فزار مصر والقدس والشام، وتعد رحلته "زاد المسافرين" مرآة صادقة لمشاعره عند رؤية مكة المكرمة وبيت المحبوب وهذه الرحلة من أهم رحلات الحج إلى مكة المكرمة في الأدب الفارسي.[5]

---

1 أبو الحسن الربعي: **فضائل الشام ودمشق**، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. المجمع العلمي بدمشق، 1950 م، ص.16.

2 يمكن الرجوع لكتاب: **رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري (12 هـ ـ 14 هـ)**، نواف عبد العزيز الحجمة، الطبعة الأولى، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2008.

3 ينظر كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سابق، ص.67، ص.95.

4 أبو القاسم البغدادي: المسالك والممالك.

5 للمزيد حول رحلة ناصر خسرو، ارجع إلى كتاب: ناصر خسرو: **سفر نامة**، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط.3، بيروت، 1983. محمد نور الدين عبد المنعم: **رحلة ناصر خسرو إلى الجزيرة العربية**، بحث مقدم لندوة الحج الكبرى، مكة المكرمة، 1424 هـ.

ومن رحلات الحج القديمة "رحلة ابن بطوطة" (703 ــ 779 هــ / 1304 ــ 1377 م) فابن بطوطة رحالة بالفطرة طاف العالم وأمضى ثمانية وعشرين عاما في الترحال ونال شرف الحج أربع مرات ويحتل تجربة الحج ومشاهدة الأماكن المقدسة في مكة المكرمة ووصفها حيزا كبيرا في رحلته [1] وقد أفردنا لرحلته كما أشرنا سابقا فصلا خاصا في هذه الدراسة.

ومن المغاربة والأندلسيين الذين اتسمت رحلاتهم بصيغة دينية الرحالة ابن جبير والعبدري. [2]

ــ رحلة ابن جبير (540 ــ 614 هــ / 1145 ــ 1217 م):

ذكر المقري نسبه " أنه أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتّاني الأندلسي الشاطبي البلنسي [3] ولد ليلة السبت عاشر من ربيع الأول سنة 540 هــ ببلنسية، وقيل في مولده غير ذلك وتسمع من أبيه بشاطبة [4] ومن أبي عبد الله الأصيلي وأبي الحسن بن أبي العيش وأخذ عنه القراءات وعُني بالأدب فبلغ الغاية فيه وتقدم في صناعة القريض* والكتابة". [5]

وزاد صاحب نفح الطيب في ذكر سبب رحلته إلى الحج وإن كنا لا نجزم حقيقة هذا السبب في ارتياده إلى تلك البلاد فقال: « وذُكر أن الأمير أبا سعيد بن عبد المؤمن [6] صاحب غرناطة استدعاه يوما ليؤلف فيه كتابا » وهو في مجلس شرابه وحدث أن دفع

1 ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة**، ص ص. 90 ــ 116.

2 لا يمكن التطرق إلى جميع الرحّالة الأندلسيين والمغاربة الذين ارتحلوا إلى المشرق واكتفينا بهؤلاء نظرا لقيمة رحلاتهم التي دونها أصحابها بأكثر تفصيل ودقة، وأشرنا من قبل إلى دراسة نواف عبد العزيز الحجمة حول **رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي**، ومن هؤلاء عبد العزيز اللمطي الفاسي الذي حج أزيد من ثلاث حجات ومات بالمدينة، وأبو زكريا يحيى الصنهاجي الذي حج عشر حجج وجاوز سنتين. ينظر أحمد بابا التنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، بيروت، د.ت، ص.183.

3 **بلنسية:** valencia كورة ومدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة، وهي بريّة بحرية ذات أشجار وأنهار، وتعرف بمدينة التراب، وأهلها خير أهل الأندلس يسمّون عرب الأندلس، بينها وبين البحر فرسخ. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج1، ص.490.

4 **شاطبة:**jativa مدينة شرقي الأندلس وشرقي قرطبة، وهي مدينة كبيرة قديمة، قد خرج منها خلق من الفضلاء، اشتهرت في العصر الإسلامي بصناعة الورق (الكاغد) وكانت بموقعها الطبيعي من أعظم حصون الأندلس. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج3، ص.309.

* القريض: الشعر.

5 أحمد المقري: **نفح الطيب**، ج.2، ص.382.

6 **الأمير أبو سعيد:** عثمان بن عبد المؤمن جعله أبوه أميرا على غرناطة. **سير أعلام النبلاء**، ج15، ص.141.

إليه كأسا من الخمر، ولكنّه اعتذر بحجة أنه ما شرب الخمر قطّ فقال له الأمير، والله لتشربنّ منها سبعا، ولم يستطع إلا الرضوخ ثم كافأه الأمير، حيث قدّم له الكأس سبع مرّات أخرى مملوءة بالدنانير، وصبّ ذلك في حجره ثم انصرف ابن جبير وهو يضمر في نفسه بأن يجعل كفارة شربه الحج، وأن ينفق تلك الدنانير في سبيل البرّ مضيفا إليها دنانير أخرى من ملكٍ له قد باعه ليتزود به.[1]

بدأ ابن جبير رحلته يوم الخميس الثامن من شوّال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة الموافق لليوم الثالث من شهر فبراير سنة ثلاثة وثمانين ومائة وألف [2] قاصدا الحجاز عبر مدينة سبتة، فأدرك سفينة للخبويّة مقلعة إلى الإسكندرية فركبها يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال الرابع والعشرين من فبراير سنة 1183 م وبعد ثلاثين يوما وصلوا إلى الإسكندرية ثم اتجه إلى القاهرة، ثم اجتاز البحر الأحمر إلى جدة، ومنها إلى مكة حيث استقل مركبا متجها إلى صقلية ثم عاد إلى موطنه غرناطة.

وأقام في سفره هذا سنتين وثلاثة أشهر وكتب مشاهداته في مذكرات يومية مستعملا فيها دائما التأريخين القمري من السنة الهجرية والشمسي دون ذكر السنة، وأطلق عليها اسم " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " وهي المعروفة برحلة ابن جبير، هذه الرحلة التي بنى أكثر أخباره فيها عن طريق معاينته الشخصية وهي كثيرة في رحلته [3] كما رصد أخبار رحلته عن طريق السّماع بعد المعاينة [4] ونقله من مصنفات المؤلّفين وهي قليلة جدا تحسب على أصابع اليد.. [5]، والمتأمل في رحلته يدرك صبغتها الدينية من خلال حرصه على زيارة قبور آل البيت وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وتهفو نفسه إلى زيارة الأولياء والصالحين سواء أكانوا أحياء أم أمواتا ولا يمر بمسجد مبارك إلاّ

---

1 أحمد المقري: **نفح الطيب**، ج.2، ص.383.

2 محمد ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، دار صادر، بيروت، 1980.

3 المصدر نفسه: ص.8، ص.11، ص.19، ص.47، ص.85، ص.113، ص.135، ص.179، ص.209، ص.306، ص.315.

4 المصدر نفسه: ص.188، ص.9، ص.12، ص.40، ص.104، ص.113.

5 المصدر نفسه: ص.93.

ويصلي فيه، وفي القاهرة أول ما بدأ بذكره من مشاهداته هو مسجد الحسين بن علي بن أبي طالب الذي به قبره.[1]

وازدادت أشواقه وهاجت جوارحه في اضطرابها كلّما اقترب من البيت العتيق حين دخل مكة المكرمة في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر من شهر ربيع الأول ونظر إلى الكعبة المُشرفة بقلبه " عروسا مجلوّة مزفوفة إلى جنّة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن... ثم سعينا بين الصفا والمروة ثم حلّقنا وأحللنا، فالحمد لله الذي كرّمنا بالوفادة عليه وجعلنا ممن انتهت الدعوة الإبراهيمية إليه وهو حسبنا ونعم الوكيل [2] وعندما هطلت الأمطار على البيت العتيق عصر يوم الجمعة تأججت عاطفته من بركة ما عاينه من هذا الغيث المبارك وتبادر الناس الحجر فوقفوا تحت الميزاب المبارك... فلا تسمع إلاّ ضجيج دعاء أو نشيج بكاء" [3] وتزداد أشواقه عند عتبات الحرم المقدس بالمدينة المنورة ويعبر عنها حين لحظة وداعه بقوله:

محبّتي تقتضي مقامي وحالتي تقتضي الرحيلا [4]

وهذا النوع من الرحلات الدينية لا يخلو من القضايا الأخرى التي تثير انتباه الرحالة، فابن جبير وإن كانت رحلته أهدافها دينية لتأدية فريضة الحج، والتكفير عن خطيئته وطلبا لزيارة العلماء والصالحين، فقد تناول فيها الحروب الصليبية مبدئيا إعجابه بحكمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، فكان يرى فيه صلاح البلاد وخير العباد، مستشرفا فتح بيت المقدس بعد منازلة حصن الكرك [5] كما تناول مدن العلم وأخبر عن مميزات هذه هذه الحواضر العلمية وحركتها الأدبية والفكرية مبديا إعجابه بهذا العالم أو ذاك سواء في القاهرة أو مكة والمدينة المنورة أو في الكوفة وبغداد ودمشق وغيرها من المدن، حتى أنه

---

1 محمد ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ص.15، ص.20.

2 المصدر نفسه: ص.20، ص.58.

3 المصدر نفسه: ص.95.

4 المصدر نفسه: ص ص ص. 167 ـــ 168 ، ص.180.

5 المصدر نفسه: ص.260.

طلب في بعضها إجازات فأجازوه [1] كما تناول آثار مصر الفرعونية [2] ويعتبر من الرحالة القلائل الذين اهتموا بظاهرة خسوف القمر [3] وأفرد في رحلته صفحات هامة لجزيرة صقلية في جانبها الحضاري [4] كما تناول مواضيع عدة متفرقة مثل صناعة السفن وعادات الناس وعلاقة المسلمين بالمسيحيين في صقلية.

وكان جريئا في نقده طوال رحلته، حيث لا يسكت على شيء لم يعجبه ويُثني على ما يسرّه [5] وانتقد ديانة أهل الحجاز القائمة على الفِرَقِ والشِيَع [6] كما انتقد خطيب مسجد المدينة المنورة لأنه أطال جلوسه بين خطبتي الجمعة عن قصد ليترك المجال لأعوانه في تسوّلهم له في موقف شائق[7] وابن جبير كثير الانتقاد لأخبار رحلته لا يتوانى عن توجيه نقده لكثير من القضايا [8] وتعتبر هذه الرحلة قيمة تاريخية وجغرافية لا يمكن الاستغناء عنها فقد رجع إليها صائغ رحلة ابن بطوطة [9] في نقله أوصاف مدينة حلب ودمشق وغيرها، ونقل العبدري عنها، وقد عدّها الكثيرون علاقة فارقة في أدب

---

1 ــ أخبرنا عن إجازته في المدينة المنورة من العلامة صدر الدين الشافعي الأصبهاني الذي وصفه ابن جبير بقوله: " شاهدنا مجلسه فرأينا رجلا يذوب طلاقة وبشرا، ويحفّ للزائر كرامة وبرّا، على عظيم حرمته وفخامة بنيته وهو أُعطي السبطين علما وجسما استجزناه، فأجازنا نثرا ونظما، وهو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات "، رحلة ابن جبير، ص.179.

2 ــ المصدر نفسه: ص.28.

3 ــ المصدر نفسه: ص.204.

4 ــ المصدر نفسه: ص.299.

5 ــ انتقد أمناء السلطان في ميناء الإسكندرية لقهرهم للحجاج حيث كانوا يجمعونهم لغرض التفتيش في صورة من الخزي والذل لكنه استثنى السلطان صلاح الدين الأيوبي من هذه التصرفات المهينة لضيوف الرحمن لأنه لا يعلم بهذه التجاوزات: "ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك" راجع رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص ص.13 ــ 14.

6 ــ وهذا بقوله: " لا دين لهم قد تفرقوا شتى، وهم يعتقدون في الحجاج ما لا يعتقد في أهل الذمة... واعتقد اعتقادا صحيحا أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب " ينظر رحلة ابن جبير، المصدر نفسه، ص ص.54 ــ 55.

7 ــ بقوله: " جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل في السرعة وابتدر الجمع مردة من الخدمة يخترقون الصفوف ويتخطفون الرقاب كُدية ــ ظاي يلحون في الطلب ــ كما جاء في قاموس المحيط للفيروزآبادي في باب الدال فصل الكاف على الأعاجم والحاضرين لهذا الخطيب قليل التوفيق" ينظر المصدر نفسه، ص.179 ــ 180.

8 ــ مصطفى سالم عبد الله حبلوس: أدب الرحلات عند العرب، ص.204.

9 ــ وهو أبو عبد الله بن جزي كلفه السلطان أبي عنان بإعادة صياغة ما كتبه ابن بطوطة بأسلوب مسترسل فنقّح ما كتبه وربط أجزائه وأضاف إليه بعض ما لديه من حديث عن البلاد، ينظر: الهند في رحلة ابن بطوطة، دراسة حضارية، جلال السعيد الحفناوي، مجلة ثقافة الهند، المجلد56، العدد1، ص.10.

الرحلات[1] وقد حظيت رحلة ابن جبير باحترام كبير من أدباء القدامى الذين شهدوا ببراعة ببراعة الأسلوب ودقة الوصف، فذكر صاحب الإحاطة في أخبار غرناطة أنها كتاب " مُؤنس ممتع مثير سواكن النفوس إلى الرفادة على تلك المعالم المكرّمة والمشاهد العظيمة".[2]

وقد جلبت رحلته اهتمام المستشرقين لِمَا لَها من قيمة علمية وجغرافية فترجموا القسم المختص بصقلية وطبع عام 1846 م، ثم طبع الكتاب كله لأول مرة عام 1852م بإضافة مقدمة إليه وضعها المستشرق رايت Rayt الأستاذ في جامعة كمبرج ثم ظهرت منه طبعة جديدة عام 1907 م في لندن راجعها المستشرق دي خويه De Geo The Travils Of Ibn Jubayr.[3]

ونظرا لما يتمتع به ابن جبير من ثقافة واسعة جاءت رحلته متميّزة، فكانت أكثر ثراءً في العصور الوسطى، جلبت إليها اهتمام الرحالة اللاحقين مما بوّأها المكانة التي أشرنا إليها من قبل بأنها غارقة في أدب الرحلات.

ـ رحلة العبدري (ت. 700 هـ / 1300 م):

وهي الرحلة الدينية التي استوقفتنا بالدراسة، فهي شبيهة في مضمونها العلمي والاجتماعي والعمراني لرحلة ابن جبير، وشاءت الأقدار أن يتوفى العبدري في الفترة التي يولد فيها ابن بطوطة (703 هـ / 1304 م) الذي كان مميزا في رحلته التي لم تتوقف في بلاد الحجاز بل استمرت إلى غاية الصين وبلاد الهند.

1 اغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**،ج.1، ص.298. ينظر عبد الرحمن حميدة: **أعلام الجغرافيين العرب**، ص.411. حسني محمود حسين: **أدب الرحلة عند العرب** ص.25. ينظر نقولا زيادة: **الرحالة العرب**، ص.58. ينظر شوقي ضيف: **الرحلات**، ص ص.71 ــ 72.

2 لسان الدين ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عنان، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1975م، ج.2، ص.282.

3 نواف عبد العزيز: **رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي**، المصدر السابق، ص.67.

العبدري هو أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحاحي[1] وتدل نسبة العبدري على أنه من أصل عربي قرشي، وكان سلفه يقطنون بلاد حاحة القبلية البربرية التي تحيط بمدينة الصويرة [2] على الشاطئ الأطلسي، ولم تخبرنا المصادر حتى الآن عن تاريخ ولادته أو تاريخ وفاته وإذا أخذنا برأي محقق الرحلة افتراضا، تكون ولادته حوالي سنة 643 هـ / 1245 م، أما وفاته فكانت بعد سنة سبعمائة للهجرة.[3]

بدأ رحلته من حاحة في الخامس والعشرين من ذي القعدة من عام ثمانية وثمانين وستمائة للهجرة (688 هـ / ديسمبر 1289 م)، اجتاز شمال إفريقية مارًّا بالسوس الأوسط، ثم هبط تلمسان والجزائر ثم بجاية وقسنطينة وتونس ثم عبر الأراضي الليبية وواصل سفره صوب الإسكندرية ومنها انطلق إلى مكة المكرمة عبر الطريق البري مارا بينبع بين مكة والمدينة [4] وبعد تأديته للحج عاد إلى فلسطين فأقام بها فترة من الزمن [5] ثم قفل معرجا على الإسكندرية ويبدو أنه سلك الطريق البري ذهابا وإيابا تحاشيا لمخاطر ركوب البحر في هذه الرحلة التي بدأ تدوينها بمجرد انطلاقه وذلك بقوله: « وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان ولم يمكنني إظهارها هناك، وأظهرتها بعد خروجنا منها» وتنحصر في أهدافها الدينية ممثلة في تأدية فريضة الحج وزيارة مشاهد الأنبياء والأولياء الصالحين، فضلا على حرصه الشديد على إتمام دراسته والاستفادة من علماء المشرق

1 **حاحة**: بلدة في إقليم يحده من الغرب والشمال المحيط الأطلسي ومن الجنوب جبال الأطلس من الشرق نهر أسيف نوال، ويشمل على مدن كثيرة. ينظر عمر كحالة: **معجم المؤلفين**، ج.11، ص.244، وينظر إلى ترجمته أبا عبد الله العبدري: **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1968 م.

2 **الصويرة**: مدينة على المحيط الأطلسي قمت بزيارتها انطلاقا من مراكش مشهورة بشجرة لرجان Argan وقلعتها الرومانية الشهيرة، وينظر في نسبه عبد الكريم السمعاني: **الأنساب**، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى، بيروت، 1980م، ج.8، ص. 349.

3 محمد العبدري: **رحلة العبدري**، تحقيق علي إبراهيم كردي، الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق ــ سوريا، 1999م، ص.8.

4 **ينبع**: بين مكة والمدينة وهي قريبة من طريق الحج الشامي، ينظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، المصدر السابق، ج.5، ص.450.

5 زكي محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، دار الرائد العربي، 1981م، ص.132.

العربي كما كان حريصا على « وصف بعض البلدان وأحوال من بها من القطّان »[1] فهي رحلة شبيهة إلى حد قريب في مضمونها الاجتماعي والعمراني برحلة ابن جبير وقد زَوّدنا العبدري في معلومات هامة عن الطرق والمسالك في شمال إفريقيا نظرا لطبيعة رحلته البرية قاطعا المفازة التي بين جنوب المغرب ومدينة تلمسان وهو يصف كل المحلات التي يمر بها ويذكر أحوال أهلها، وكانت تلمسان في عهده مركزا مهما يكتمل فيه تجمع الحجاج إلى بيت الله الحرام، فلقد شاهد العبدري بها جمعا من الحجاج ينيفون على الألف وردوا هذه المدينة وهم يتأهبون للانطلاق نحو المشرق [2] ثم خرج من تلمسان ووصل إلى مليانة التي قال بعد وصفها « وما بقي بها من العلم أدنى عناية» [3] ولما وصل إلى مدينة الجزائر قال عنها: « ولكنها قد أفقرت من المعنى المطلوب كما أفقر من أهله ملحوب، فلم يبق بها من أهل العلم محسوب».[4]

وعند وصوله إلى مدينة بجاية أطنب في ذكر محاسنها والثناء عليها إلى أن وصل إلى تونس وفيها جالس العبدري ثلة من العلماء الأعلام فأخذ عنهم علما وإجازة، وأطنب في مدحهم ومدح بلادهم ولعلها البلاد الوحيدة التي سلمت من لسانه السليط، وشرع يعدد من التقى بهم من العلماء، ووقف طويلا مع أحدهم وهو: « الفقيه الأديب الفاضل ذو العناية والتهمُّم صاحبنا ولينا في الله أبو عبد الله بن عبد المعطي بن محمد النّفري مشهر بابن هريرة » [5] الذي قال فيه "لقيت منه خيرا". [6]

1 العبدري: **الرحلة المغربية**، ص.6، ص.28.

2 المصدر نفسه، ص.11.

3 المصدر نفسه: ص.24.

4 المصدر نفسه: ص.26.

5 نواف عبد العزيز الحجمة: **رحالة الغرب الإسلامي وصورة الشرق العربي**، ص.86. وينظر مصطفى سالم عبد الله حبلوس، **أدب الرحلات عند العرب**، ص.209.

6 محمد العبدري: **رحلة العبدري**، المصدر السابق، ص ص.49 ـــ 50.

وتحامل العبدري على أهل طرابلس وبرقة ووصفها بقوله: «... وهي للجهل مأتم وما للعلم بما عُرس، أقفرت ظاهرا وباطنا الخبير بها سائرا وقاطنا»[1] ولما وصل إلى الإسكندرية أعجبه موقعها ومناظرها وبناياتها التي صنعت بدقة وإتقان واستاء من حرس الديوان في أخذ المكوس من الحجاج وطريقتهم الفظة والغليظة في التعامل معهم ويبدو جليا في حديثه عنهم بقوله: «جاءت شرذمة من الحرس ــ لا حرس الله مهجتهم الخسيسة ولا أعدم منهم لأُسد الآفات فريسة فمدّوا في الحجّاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعا من المظالم، وأذاقوهم ألوانا من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كلّه»[2] وأما القاهرة فلم تسلم هي الأخرى فأكثر انتقاده لها وتحامل عليها في قسوة وجفاء، فقال: "وما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم، ولا بإفريقية وأرض برقة والحجاز والشام فريقا من الناس أرذل أخلاقا وأكثر لؤما وحسدا ومهانة نفوس وأضغن قلوبا، وأوسخ أعراضا، وأشد دمامة وخيانة وسرقة وقساوة وأجفى للغريب من أهل المدينة المؤسسة على غير التقوى".[3]

ومن جانب نجده لم يغفل عن ذكر الآثار التاريخية القديمة قبل الفتح الإسلامي أو بعده وما اشتهرت به من عجائب فرعونية وحضارته، ومن القاهرة سار الركب إلى العقبة ودخلوا الحجاز ثم تابعوا سيرهم إلى أن وصلوا إلى مكة المكرمة فأبدع في وصفها وأمتع، ثم زار المدينة المنورة بعد الحج فوصف مشاهدها ومدح النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالحرم النبوي في الروضة المباركة، وكان رجوعه عبر فلسطين غير مكترث لمدنها وقراها فيكتفي بالإشارة الموجزة، مما جعل ذكره لتلك المدن لا يضيف جديدا إلى ما سبق في ذهابه، ولكنه يفيض في الحديث عندما يصل إلى تونس إذ يطيل مقامه بها وهذا قد ألفناه في كثير من الرحلات المغاربية في تلك الفترة.

---

1 محمد العبدري: **رحلة العبدري**، ص.184.

2 المصدر نفسه، ص ص.216.

3 المصدر نفسه، ص.278.

تعتبر رحلة العبدري من الوثائق المهمة عن الحياة الثقافية في القرن السابع الهجري لما فيها من الشواهد العظيمة على ما بلغت إليه المعارف الإسلامية في المغرب[1] فكان شديد الحرص على مقابلة الأدباء والعلماء وأينما حلّ، فعساه أن يأخذ عنهم أو يطلب إليهم أن يجيزوه ولا همّ له إلا الاستفادة من أدب الأدباء وعلم العلماء[2] وكانت أحكامه قاسية وحادّة على ما يلقاه من سوء الحال أو قلة العلم أو خلو المساجد من العباد، ويضيق صدرا من معاملة الناس في بعض البلاد فيصيب جام غضبه على كل السكان في ذلك الإقليم.

وأهم ما يميز هذا النوع من الرّحلات الدينية هو التزامها بمنهج موحّد، حيث يظهر جليّا حرص الرحالة الشديد على لقاء العلماء وزيارة الصالحين وصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقبور الأولياء من أجل الدعاء والتبرك بهم والوقوف بالأماكن المقدسة في مكة والمدينة وبيت المقدس، ونظرا لعاطفتهم الدينية احتفظت رحلاتهم بأخبار قيّمة وهامة عن العلماء والفقهاء وقبور الصالحين، ومسالك دروب الحجاج وما فيها من المعالم الأثرية من الآبار والاستراحات المأمونة وغيرها.

وعلى هذا الطريق سار ابن جبير وابن بطوطة فأولوا هذه الأمور عناية فائقة، فكانت رحلاتهم على أهدافها الدينية مليئة بأغراض متعددة نجدها تتناول الجغرافية والتاريخ والحياة الاجتماعية والاقتصادية [3] بكثير من التفصيل سواء في بلاد المغرب الإسلامي وشمال إفريقيا أو بلاد الهند التي بدأت الرحلات إلى الحج فيها متأخرة مقاربة مع الأولى.

1 نواف عبد العزيز الحجمة: **رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي**، المصدر السابق، ص.87.

2 مصطفى سالم عبد الله حبلوس: **أدب الرحلات عند العرب**، المصدر السابق، ص.210.

3 كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي**، المصدر السابق، ص.398.

المبحث الخامس: رحلات علمية

هي الرحلات التي تهتم بالنواحي العلمية مثل الفلك والتنجيم والرياضيات والطب ودراسة الفلسفة وعقائد الآخرين، وقد وجدنا من هؤلاء الرحالة من تنقل لهذا الغرض إلى بلدان بعيدة طلبا للعلم والمعرفة فنجدهم يعددون النباتات ويدرسون العقائد والفلسفات أو يبحثون في ظاهرة ما، وقد دوّنوا ملاحظاتهم في رحلاتهم المتعددة والمختلفة، ومن أشهر هؤلاء الرحالة البيروني الخوارزمي الذي أفردناه بالدراسة في فصل خاص في هذه الأطروحة وابن بطلان وعبد اللطيف البغدادي وهؤلاء سنذكرهم بقليل من التفصيل.

أ ــ رحلة ابن بطلان (439 هــ ــ 1049 م): هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، نصراني من أهل بغداد [1] مارس الطب ودرس المنطق وكان شاعرا رحالة، تتلمذ على يد كثير من العلماء ببغداد وكان رأسهم أبو الفرج عبد الله بن الطيب، وأبو الحسن ثابت بن إبراهيم الذي أخذ عنه الطب، ولم تذكر المصادر تاريخ ميلاده أو وفاته.

وارتحل ابن بطلان من بغداد في شهر رمضان (439 هــ - 1049 م) مُتجها صوب الأنبار العراقية الرحبة مارّا بالرصافة والهاشمية ووصل رحلته حتى دخل إلى حلب وأقام بها مدة وأحسن إليه معزّ الدولة "ثمال بن صالح وأكرمه إكراما كثيرا ثم انتقل إلى أنطاكية فاللاّذقية ".[2]

وقد واصل رحلته إلى الديار المصرية، رغبة في لقاء صديقه علي بن رضوان المصري فيلسوف زمانه، حيث جرت بينهما مساجلات علمية ونوادر طريفة آلت في نهايتها إلى غضب ابن بطلان مما دفعه إلى مغادرة مصر بعد أن أقام في الفسطاط ثلاث

---

1 أحمد بن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت، ج.2، ص.238.
2 المصدر نفسه، ج.2، ص. 239.

سنوات متوجها إلى القسطنطينية وأقام بها سنة إلا أنه لم يتناولها بالوصف، ثم رجع إلى أنطاكية حيث استقر بها إلى غاية وفاته.[1]

رحلته كانت محدودة القضايا إذا ما قورنت برحلتي زميليه البيروني والبغدادي وصُنفت رحلته من ضمن الرحلات العلمية على أساس ميوله العلمية التي برزت واضحة في ممارسة مهنة الطب، حتى أن خروجه في سفره هذا كان من أجل العلم ومناقشة العلماء، واعتمد ابن بطلان في مصادره على مشاهده بنفسه من خلال أسفاره، وما عاينه من مخالطته للناس ولم يعتمد على مصادر أخرى.

وبالرغم من أن اهتماماته العلمية لم تبد بحجمها المطلوب إلا أنها كانت بارزة في ثنايا رحلته فعندما وصف مدينة يافا قائلا " إنها بلد قحط، والمولود فيها قلّ أن يعيش حتى لا يوجد فيها معلّم للصبيان" [2] فهذا الحديث يدل على ملاحظة لا تصدر إلا عن مُدرك وخبير لمجريات الأمور.

وامتاز هذا الرحالة بنقده للظواهر الاجتماعية غير السوية التي لاحظها ببعض المدن العربية، ويبدو أن ميوله العلمية هي التي كانت وراء انتقاداته، إذ أنه لا يقبل إلا ما هو منطقي وسليم فقد أبدى تبرّمه واستياءه من أهل بلدة أعمّ [3] الصغيرة التي " فيها من الخنازير والنساء والعواهر والزنا والخمور أمر عظيم" [4] وواصل انتقاده إلى هذه الظواهر في مدينة اللاذقية التي كان يسكنها المسلمون والمسيحيون مستغربا انتشار البغاء بين الطائفة المسيحية جهارا تحت مرأى ومسمع رجال دينهم، ووفق قوانين سلطاتهم المحلية حيث قال: " من غرائب هذا البلد أنه يجمع الزانيات والغرباء المؤثرين للفساد من الرّوم

---

1 المختار بن بطلان: **خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري**، تحقيق.شاحت يوسف وماكس مايرهوف، الطبعة الأولى، القاهرة، د.ت، ص ص.16 – 17.

2 المرجع نفسه، ص.21.

3 بلدة **عمّ**: صُقع في برية خُساف بين بالي وحلب، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.4، ص ص.149 – 150.

4 المختار بن بطلان: المصدر نفسه، ص.18.

في حلقة، وينادي على كل واحدة منهن وتتزايد الفسقة فيهن لليلتها تلك، ويؤخذن إلى الفنادق التي هي الخانات لسكن الغرباء، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتما هو خاتم المطران حجة بيدها من تعقّب الوالي لها، فإنه من وُجد خاطئا مع خاطئة بغير ختيم المطران ألزمه جناية ".[1]

وفي مقابل هذه السلوكيات الشائنة هناك وجه مشرق لهذا المجتمع المسيحي العربي وصفه ابن بطلان ولم يغفل عنه، حيث قال عنه " وفي هذا البلد... من الزهّاد في الصوامع والجبال كل فاضل يضيق عن ذكر أحوالهم والألفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم وأذهانهم".[2]

أما مصر فرغم مكوثه الطويل بها فلم يسجل انطباعاته عنها ولم يذكر ظواهرها الاجتماعية وعادات أهلها كما فعل ابن بطوطة، ولعله انشغل بتنميق مقالاته التي وجّهها إلى صديقه ابن رضوان المصري.

تعتبر رحلة ابن بطلان قيمة مضافة إلى الرحلات التي تناولتها، فبالرغم من أن ابن بطلان من الأطباء المشاهير والعلماء البارزين، إلا أنه لم يُظهر هذه القدرات في رحلته ولم يركز على القضايا الطبية إلا ما ندر، ولعلّ ميوله الدينية طغت عليه ويرجع ذلك أن والي مدينة حلب قلده شؤون النّصارى وآلت إليه أمورهم، فانشغل بهذه القضايا عن سواها، وما يلاحظ في هذه الرحلة هو اهتمام ابن بطلان بالنّواحي الاجتماعية والثقافية مع إبراز وضع السكّان النصارى العرب وعاداتهم وأماكن العبادة عندهم.[3]

ولابن بطلان قدرة نقدية جيدة وله وصف جغرافي واجتماعي وثقافي يلامس الحياة ويصوّرها في شكلها القائم آنذاك، وبالرغم من أن رحلته مُقلّة في مادتها العلمية إلا

1 المختار بن بطلان: **خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري**، ص ص.20–21.

2 المصدر نفسه، ص.21.

3 أغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي**، ج.1، ص.216.

أنها تتبوّأ مكانا لائقا بين الرحلات العلمية، وتزداد أهميتها إذا علمنا أن ابن بطلان كان طبيبا مشهورا في عصره [1] وما يلاحظ في أسلوب كتابة رحلته أنه علمي في لغة واضحة جاءت في سرد ممتع كما بدا ذلك في وصفه لمدينة اللاذقية، أما أسلوبه في مقالاته التي كتبها في صديقه ابن رضوان فكان « أعذب ألفاظا وأكثر ظرفا وأَمْيَز في الأدب وما يتعلق به، وكان ابن رضوان أطبّ وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها ».[2]

ب ــ رحلة عبد اللطيف البغدادي (557 ــ 629 هــ / 1162 ــ 1231 م):

من فلاسفة الإسلام هو الشيخ الرحّالة موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، ولد ونشأ في بغداد بدار لجدّه في درب الفالوذج.[3]

تعلم ودرس في مدارس ومساجد بغداد الحديث والقرآن، ودرس الحديث في بغداد ودمشق والقدس وحلب، وكان ملما بجميع العلوم المعروفة في عصره.[4]

تحصّل على عدّة إجازات من شيوخ بغداد وخُرسان والشام ومصر، أقام في حلب ولم يبق في بغداد التي تعلم فيها ونشأ بها وهو القائل: « حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملأ عيني ويحلّ ما يشكل عليّ».[5]

انتقل إلى بلاد الموصل موطن أجداده سنة 585 هــ وحدّث في مدرسة ابن المهاجر ودار الحديث، وأقام بالموصل سنة يشتغل ليلا ونهارا، وحظي باحترام أهل

---

1 مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، ص.119.

2 أحمد بن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج.2، ص.239.

3 المرجع نفسه، ج.3، ص.320-331.

4 المرجع نفسه، ج.3، ص ص. 331-332.

5 المرجع نفسه، ج.3، ص.334.

الموصل وبإعجابهم لغزارة علمه، ولم يلتق فيها سوى العالم الفقيه الرياضي الكمال بن يونس الذي ذاع صيته آنذاك واستمع إليه البغدادي وجالسه.[1]

وفي الموصل سمع بمكانة وحظوة العلماء عند صلاح الدين الأيوبي وما يلقونه من حفاوة ورعاية لذا اتجه إلى دمشق بطلب لقاء علمائها، ووقعت بينه وبينهم مناظرات شهدت له بالسبق والتمكن عليهم، ثم ارتحل إلى القدس قاصدا معسكر صلاح الدين بظاهر عكّا، حيث لقي بهاء الدين شدّاد قاضي العسكر وعماد الدين الكاتب الفاضل الذي طلب إلى البغدادي الرجوع إلى دمشق، ولمّا أصرّ على الارتحال إلى مصر زوّده بكتاب توصية إلى وكيله في مصر ابن سناء الملك [2] وفي مصر تمتع البغدادي برعاية الأيوبيين وهناك التقى بالقاضي الفاضل، الذي كان من أبرز رجال دولة صلاح الدين، والتقى بياسين السيميائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشّارعي: « أما ياسين فوجدته محاليا كذابا مشعبذا... وجاءني موسى فاضلا في الغاية قد غلب عليه حبّ الرئاسة وخدمة أرباب الدنيا»[3] فقد أعرض البغدادي عن السيميائيّ وعن موسى بن ميمون لعله لم يكن راضيا عنهم، ولكنه وجد ضالته عند أبي القاسم الشّارعي الذي كان فاضلا عفيفا « سيرته سيرة الحكماء العقلاء وكذا صورته... وإذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللّسن ويغلبني بقوة الحجة وظهور المحجّة».[4]

بقي عبد اللطيف البغدادي مدة في مصر يدرس الفقه ويتابع أبحاثه في الطب وعلم النبات ولكن إقامته لم تطل بها حيث خرج إلى القدس يطلب لقاء صلاح الدين الأيوبي بعد الهدنة مع الصّليبيين، واندهش لرؤيته، إذ رأى ملكا يملأ العيون روعة والقلوب محبة « وأوّل ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم، يتذاكرون في أصناف العلوم وهو

---

1 أحمد بن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج.3، ص.334.

2 المرجع نفسه، ج.3، ص ص، 335–336.

3 المرجع نفسه، ج.3، ص.336.

4 المرجع نفسه، ج.3، ص ص.336–337.

يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع».[1]

قام صلاح الدين وأولاده على تخصيص راتب شهري للبغدادي ليرتحل قافلا إلى دمشق مشتغلا بالعلم وإقراء الناس بجامعها، إلا أنه لم يمكث بها طويلا خاصة بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي عام 598 هـ / 1193 م ونقل صورة رائعة في حب الناس له « لأنه كان محبوبا، يحبه البر والفاجر والمسلم والكافر».[2]

وعاد مرة ثانية إلى مصر وجالس الشيخ الشّارعي وشرع يلقي محاضراته على الناس بالجامع الأزهر ليلا ونهارا ودرّس الطب لكثيرين في وسط النّهار، وفي الليل كان يشتغل مع نفسه، ثم عاد إلى القدس وأقام بها مدرسا في مساجدها وكان المسجد الأقصى أوفر مكانا له وتوجه إلى دمشق سنة 604 هـ وفيها اشتهر بصناعة الطب ودرس كافة العلوم، خاصة بالمدرسة العزيزية.[3]

ثم ارتحل إلى حلب ومنها فكر في الحج جاعلا طريقه بغداد، وبها جاءه مرض توفي على إثره وذلك: « يوم الأحد ثاني عشر من المحرّم سنة تسع وعشرين وستمائة ودفن بالوردية عند أبيه وذلك بعد أن خرج من بغداد وبقي غائبا عنها خمسا وأربعين سنة».[4]

ما يلاحظ في رحلة البغدادي العلمية أنه وبالرغم من تنوع الأماكن التي قصدها ودخوله إلى عدة بلدان ومخالطته لشعوب مختلفة فإنه لم يكتب عنها شيئا واكتفى بما شاهده في مصر في رحلته الموسومة" كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة

1 أحمد بن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج.3، ص ص.336 ــ 337.
2 المرجع نفسه، ج.3، ص.338.
3 المرجع نفسه، ج.3، ص ص.338 ــ 339.
4 المرجع نفسه، ج.3، ص.342.

والحوادث المعاينة بأرض مصر" وهي دراسة عقلية متخصصة يغلب عليها الطابع العلمي ومن خلالها برزت ميول البغدادي في المجالات العلمية كافة، وعلى رأسها العلوم الطبية.

وقد قسم رحلته إلى مقالتين: الأولى تحتوي على ستة فصول تناول فيها خواص مصر العامة، ثم خواص نباتها وحيوانها وآثارها القديمة وغرائب أبنيتها وعجائب أطعمتها.

أما المقالة الثانية ففيها ثلاثة فصول تناول فيها أسباب فيضان النيل وحوادث سنتي سبع وتسعين وخمسمائة، وثمان وتسعين وخمسمائة المفجعة.

وكانت مصادر أخباره تعتمد على جلها عمّا عاينه بنفسه، وهذا ما أكّده في مقدمة رحلته بقوله: « لمّا أنهيت كتابي في أخبار مصر المشتمل على ثلاثة عشر فصلا، رأيت أن أفرد منه الحوادث الحاضرة والآثار البادية المشاهدة، إذ كانت أصدق خبرا وأعجب أثرا».[1]

وقد تكررت مشاهداته في رحلته في عديد المرات خاصة عندما يتحدث عن كارثة المجاعة التي حلت بمصر أواخر القرن السادس الهجري ومثل هذه المعاينات كثيرة في رحلته[2] وهي تلتقي في كثير من الأحيان مع النماذج التي اخترناها للدراسة في هذه الرسالة.

ولم يكتف بما عاينه حيث استمع إلى الناس من خلال مخالطته لهم والدخول معهم في حوارات، ورحلته غنية بمثل هذه الأخبار التي نقلها سماعا عن الآخرين مثل قوله: « وخبّرني بعض الثقات أنّه قاس دوره، وكان خمسا وسبعين شبرا بالتّمام» [3] وقوله:

---

1 عبد اللطيف البغدادي: **كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**، تحقيق. أحمد غسان، الطبعة الأولى، دار قتيبة، دمشق، 1983، ص.11.

2 المصدر نفسه، ص.29، ص.31، ص.44، ص.45، ص.52، ص.65، ص.84، ص.89.

3 المصدر نفسه، ص.52.

« وخبّرني بعض أصحابي، وهو تاجر مأمون حين ورد من الإسكندرية...»[1] ومثل هذه الأخبار عديدة في رحلته.[2]

كما أخذ معلوماته وأخباره من عديد المصنّفات لمؤلفين سابقين وكان حريصا على إسناد النصوص إلى أصحابها فقد نقل عن أبو حنيفة الدّينوري[3] وآخرون ومثل هذه المنقولات في رحلته عديدة.[4]

المتأمل في هذه الرحلة يلاحظ أنه انفرد من بين العديد من الرحالة العرب بدراسة أرض مصر وتنوع فصولها حيث أخضعها لدراسة علمية وتحليلات دقيقة لم نجدها عند الرحالة الجغرافيين الذين هم أولى بها من غيرهم فعندما يقول: « لشدة الرطوبة... يتسارع العفن إليها ويكثر فيها الفأر ويتولد من الطّين »[5] وفي هذا لعله ينبّه إلى تأثير هذه النتائج على المحاصيل الزراعية، وفي حديثه عن النباتات لا يصفها وصف العابر بل ينظر إليها نظرة الطبيب المعالج في فوائد وخصوصيتها فالملوخية التي يسميها الأطباء الملوكية وجد أنها « رديئة للمعدة ولكنّها تسكن الحرارة »[6] وعندما تحدث عن اللّبخ أظهر فوائده العلاجية فقال: «وثمرته جيدة للمعدة ... وورقه إذا جُفّف قطع الدّم ذرورا والإسهال شربا»[7] كما تناول في رحلته حيوانات مصر بطريقة علمية خاصة تربية الدّجاج الدّجاج وهي سابقة في كتب الرّحالة حيث لم نجد من الرّحالة العرب والمسلمين من تطرق إلى معامل تفريخ الدّجاج، فقال: « قلّما تجد بمصر فراريج عن حضانة الدّجاجة،

---

1 عبد اللطيف البغدادي: **كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**، ص.92.

2 المصدر نفسه، ص.21، ص.24، ص.27، ص.33، ص.63، ص.52، ص.65، ص.96.

3 **أبو حنيفة الدينوري**: أحمد بن داود بن وتند أبو حنيفة الدينوري أخذ عن البصريين والكوفيين، وكان نحويا لغويا مهندسا منجما حاسبا. معجم الأدباء: ج1. ص258.

4 عبد اللطيف البغدادي؛: المصدر السابق، ص.19، ص.20، ص.22، ص.24، ص.26، ص.29، ص.32، ص.40، ص.41، ص.51، ص.58، ص.67، ص.86.

5 المصدر نفسه، ص.18.

6 المصدر نفسه، ص.19.

7 المصدر نفسه، ص.21.

وربّما لم يعرفوه أيضا وإنّما ذلك عندهم صناعة، ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها، وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدّة، تعمل ذلك ويسمّى الموضع معامل الفروج»[1] وتحدث عن الحيوانات المائية مثل فرس النهر والأسماك مبرزا فوائدها الطبية.[2]

وفي وصفه لأهرامات مصر استوقفته أشكالها المخروطية فناقش ذلك مناقشة علمية على غير الرحالة السابقين بقوله: « ومن خواص الشكل المخروطي أن مركز ثقله في وسطه، فهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض، فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها، ومن عجيب وضعه أنه شكل مربّع قد قوبل بزواياه مهابّ الرّياح الأربعة، فإن الرياح تنكسر سَوْرتها عند مصادمتها الزّاوية، وليست كذلك عندما تلقى السّطح»[3] وتابع البغدادي بصورة الطبيب العالم المجاعة الكبرى التي حلت بمصر سنتي 597 هـ ـ 598 هـ بطريقة انفرد بها لوحده من بين الرحالة العرب، واضعا مآسيها التي لا يقوى على استدامة النظر إليها إلا طبيب ذو رباطة جأش[4] جأش[4] في كل من أسوان والفيوم والمحلّة والإسكندرية ودمياط وفي سائر نواحي مصر.

انتقد البغدادي في رحلته سارقي الآثار الذين ينشئون بحثا عنها: « وقد تتبعها الأنذال والمحدودون، فقلعوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا لأجلها كثيرا من الحجارة حتى يصلوا إليها، ولعمر الله لقد بذلوا الجهد في استخلاصها وأبانوا عن تمكّن من اللّؤم وتوغّل في الخساسة»[5] وهذا النقد لم نجد له مجالا واسعا في رحلته وإن كان ذلك من صميم عالم محقق لا يمكن له التغاضي عن ذكرها لأهمية مواضيعها.. كما تناول قضايا تاريخية هامة إلى جانب أهدافه العلمية مثل تطرقه للحروب الصليبية وإنشاء الأهرامات

---

1 عبد اللطيف البغدادي: **كتاب الإفادة والاعتبار**، ص.35.

2 المصدر نفسه، ص.41.

3 المصدر نفسه، ص.46.

4 مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، ص.127.

5 عبد اللطيف البغدادي: المصدر السابق، ص.55.

وإحراق مكتبة الإسكندرية وغيرها، وختم كتابة رحلته في شهر رمضان سنة ستمائة هجرية بمدينة القاهرة.[1]

وعلى ضوء هذا الإيجاز تُعدّ رحلة عبد اللطيف بن يوسف محمد البغدادي دراسة متخصصة في بلد بعينه لا تتعدّاه إلى بلدان أخرى وهي دراسة إقليمية شاملة لمصر، تتسم بدقة البحث العلمي وصدق النّقل والمعاينة.

ولم يمنع هذا من احتوائها على بعض الأساطير والأعاجيب، وذكرنا لهذه الرحلة المتخصصة يدخل في صميم الموضوع محل الدراسة فكذلك سنجد البيروني كرحالة عالم يتناول الهند كإقليم بالدراسة والتمحيص، وهي دراسة شاملة يتناولها البحث.

وأهم ما يجمع هذه الرحلات ذلك التوجه العلمي الذي يُخضع الأخبار والمشاهدات والمنقولات عن الآخرين وغيرها إلى منهجية تلتزم في مجملها بالدقة والتحليل، وهي تلتقي في هذا الخط ولم تَحِد عنه إلاّ ما ندر، لذا انطبعت مضامينها بالصيغة العلمية التي كثيرا ما تخضع لقوانين ثابتة تخص كل رحّالة على حدى، ما يميز هؤلاء الرحّالة عن غيرهم من الرحّالة الآخرين أنّهم خصّوا رحلاتهم ببلد واحد دون غيره، وهي دراسة عقلية محدودة بمجال جغرافي ضيق ما عدا ابن بطلان الذي خصّ بدراسته مجالا أوسع وبلدانا أكثر، ويغلب على هذه الرحلات الأسلوب العلمي المتأدّب الذي يتوخى التحليلات الفلسفية والمقاييس المنطقية منهجا ولكن في تفاوت بيّن بينهم فهو عند البيروني أميل إلى العلم منه إلى الأدب، وهذه خاصة تميّز بها عن غيره بالإضافة إلى اللغة الواحدة التي تتسم بالوضوح والدقّة، وإن كانت متفاوتة بينهم وإن كان البيروني أكثر التزاما بها وسيظهر ذلك بيّنا في الفصل الثالث من هذا البحث خاصة في تحليله لعلم النحلة الهندية.

لتبقى كتب الرحلة العلمية رافدا مهما بالدراسة في مجالات مختلفة مثل دراسة البغدادي لمصر والبيروني لبلاد الهند.

---

1 عبد اللطيف البغدادي: **كتاب الإفادة والاعتبار**، ص.106.

المبحث السادس: رحلات تاريخية

الرحلة التاريخية تُعدّ شاهدا حيا على كثير من الأحداث والوقائع في تاريخ الأمم، فهي تلك الرحلات التي تتحدث عن الحوادث التاريخية وسيرة الملوك والأمراء والأولياء الصالحين، وتنصبّ رحلات هؤلاء على ذكر التاريخ المعاصر لهم، حيث ينقلونه بصدق وأمانة في سرد ممتع، وبطرق مختلفة فتصبح هذه الرحلات وثائق تاريخية مهمّة وشاهدة عيان لا غنى لأي باحث من الرجوع إليها في جميع المجالات وإن كان التاريخ هو السائد في محتوياتها.

ومن خلال الدراسة لأنواع الرّحالة الذين جابوا الأقطار في بلاد الإسلام وغيرها من البلدان استوقفنا في هذا النوع من الرحلات: المسعودي (346 هـ ــ 957 م) الذي أفردناه بالدراسة لاهتمامه ببلاد الهند في رحلته في الفصل الثاني، ومن بعده رحلات أسامة بن منقذ (488 هـ ــ 584هـ / 1095 م ــ 1188 م) ورحلة الهروي السّائح (611 هـ ــ 1215 م).

أ ــ رحلات أسامة بن منقذ (488 هـ ــ 584 هـ / 1095 م ــ 1188 م):

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ محب الدين مؤيّد الدولة [1] ولد في يوم الأحد 27 جمادى الآخرة سنة 488 هـ [2] كان فارسا شجاعا عاملا مدبّرا.[3]

رحل أسامة متنقلا بين مصر والشام والجزيرة العربية، وتعتبر رحلاته مقارنة مع زملائه الرحالة التاريخيين ضيقة ومحدودة من حيث الاتساع الجغرافي إذا ما قارناها مع رحلة المسعودي ولكنها رحلات بالغة الأهمية ، ففي أيامه الأخيرة أقام بحصن كيفا[4]

---

1 صلاح الدين الصفدي: **الوافي بالوفيات**، دار نشر فرانز شتايز، بفيسبادن، 140 هـ ــ 1981 م، ج.8، ص.278.

2 ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج.3، ص.193 .

3 ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة 1963، ج.6، ص.107.

4 **حصن كيفا**: وهي بلدة وقلعة كبيرة مشرفة على دجلة، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.2، ص.265.

لتدوين رحلته وما عاينه من وقائع وأحداث أثناء سفره في كتابه الموسوم " الاعتبار" الذي يدخل ضمن الرحلات التاريخية في سياق هذه الدراسة، فهو حافل بالتفاصيل الدقيقة والنادرة عن الحروب الصليبية التي دارت رحاها في بلاد مصر والشّام بين المسلمين والأوروبيين في القرن السادس الهجري وهو قرن الحروب الصليبية، فضلا عمّا احتواه من دسائس ومؤامرات كانت تحاك في البلاط الفاطمي بين الأمراء أنفسهم.

يُعدّ كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ من الكتب الهامة التي أُلفت في ذلك الزمن.. وهو كتاب سجّل فيه المؤلف مذكراته وذكرياته على مدى يقارب ثمانين عاما، فقسمه إلى ثلاثة أبواب الأول خصّه للحروب والأسفار والثاني للنّكبات والنوادر، وضمّ الباب الثالث أخبار الصيد، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أخباره المبنية على المعاينة لا سيما وأن مؤلفه عاش ما يزيد عن تسعين عاما من أسرة عريقة ورمز من رموز الإسلام في عصره، شارك في أحداثه ما أتاح له أن يكون في هذه المذكرات شاهدا على عصره بإيجابياته وسلبياته، حيث أكثر في سرده من ألفاظ تدل على المشاهدة مثل قوله: « شهدت أو شاهدت، أو رأيت، أو ما حضرته » وهو القائل: « وشهدت يوما وقد غارت علينا خيل كفر طاب [1] في قلة ففزعنا إليهم طامعين فيهم لقلتهم»[2] وهكذا في بقية سرده ومشاهداته.[3]

ومن مصادره بعد المعاينة والمشاهدة ما سمعه من مخالطته للعلماء والفرسان وهو القائل: « وسمعت وما رأيت أن في السّباع الببر، وما كنت أصدّق ذلك فحدّثني الشيخ الإمام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد رحمه الله قال: سافرت من المغرب

---

1 **كفر طاب**: بلدة بين المعرة ومدينة حلب، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج.4، ص.470.

2 أسامة بن منقذ: **كتاب الاعتبار**، تحقيق قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، عمان ــ الأردن، 1987، ص.28.

3 المصدر نفسه، ص.9، ص.12، ص.17، ص.20، ص.36، ص.38، ص.75، ص.104، ص.106، ص.192، ص.194، ص.222.

ومعي غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرّب الأمور... فقصدنا الماء في طريقنا فوجدنا عليه الببر... هكذا حدّثني ــ رحمه الله ــ وكان من خيار المسلمين في دينه وعلمه».[1]

وما يلاحظ في كتابه "الاعتبار" أنه لم يعتمد النقل من مصنّفات الكتّاب والعلماء ولكنه استشهد ببعض الأخبار السّابقة من باب المقارنة وفي حالات قليلة أيضا[2] ومن منطلق شخصيته العسكرية امتازت رحلاته بتأخيرها للحروب الصليبية ومتابعة معاركها التي كانت عديدة حيث قال عنها: « وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها الحروب مع الكفار والمسلمين ما لا أحصيها ».[3]

ويذكر أنه أول يوم شارك فيه في القتال كان في الخامسة عشرة من عمره شارك قومه في صد الهجوم الذي شنّه حاكم أنطاكيا الصليبي تنكريه علي شيزر « وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي وأنا صبي وهو أول يوم رأيت فيه القتال».[4]

ولعل هذا يدل على العلاقة الحميمة بينه وبين والده ترجمه عليه بكل ما سرد عنه إجلالا وحبا واحتراما.[5]

وفي ذكره للمعارك لم يلتزم أسامة بترتيب المعارك والأحداث التاريخية حسب التسلسل الزمني لها ولكنه التزم بربطها ببطولات الفرسان سواء كان الفارس من العرب أو من الإفرنج أو بطعنة مميزة قوية لعلها تكون سببا في برءٍ من داء عضال والأمثلة عديدة في الاعتبار، ولعل أسامة يرى في الطعّان شفاءً من داء مزمن وليس فيه بالضرورة موت أو هلاك محقق، فهذا النُميري قد شُفي بضربه على رأسه: « فلما أصابه

1 أسامة بن منقذ: **كتاب الاعتبار**، ص.112.

2 المصدر نفسه، ص.52، ص.71، ص.80، ص.94، ص.170، ص.178، ص.182، ص.215.

3 المصدر نفسه، ص.38.

4 المصدر نفسه، ص.160.

5 براءة محمود السترات: **كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ**، دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2011، ص.32.

ذلك الجرح وخرج منه الدّم الكثير زال ما كان يشكوه من غيبة ولم يعد يناله منهما رمد ولا ألم ».[1]

وفي الحروب هزيمة وانتصار والفارس المحارب يتقبل نتائج المعارك بكل موضوعية وهذا أسامة الفارس المغوار بعد أن هزم مع جمعة النّميري ثمانية من فرسان الإفرنج خرج عليهما من الحصن رويجل « معه قوس ونشاب، فرمانا ولا سبيل لنا إليه فهزمنا والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة».[2]

ويعتبر أسامة من القلائل الذين انفردوا من بين الرحّالة بذكر تاريخ النساء اللائي يشاركن في القتال أسوة بالرجال سواء أكنّ من المسلمات أم من الأجنبيات، فهذه إفرنجية قد ضربت مسلما بعد أن قتل زوجها « فمشت إليّ امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي، جرحتني هذا الجرح»[3] وهذه امرأة من المسلمين أسرت ثلاثة من الجنود الصليبيين من الذين دخلوا إلى مدينة شيزر[4] ليلا وهم تائهون، إذ أنها: « خرجت مع الناس أخذت إفرنجيا أدخلته بيتها وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها وعادت خرجت أخذت آخر واجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم».[5]

وأفرد في كتاب الاعتبار جانبا من طبائع النصارى التي تختلف أيّما اختلاف مع طبائع المسلمين[6]، وكان حريصا على تناول أخبار الأولياء الصالحين والحديث عن الحيوانات والطيور على اختلاف أنواعها فهو لا يصفها من الخارج بل يرصد أفعالها وفق

---

1 براءة محمود السترات: **كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ**، ص.59.

2 أسامة بن منقذ: **كتاب الاعتبار**، المصدر السابق، ص.58.

3 المصدر نفسه، ص.128.

4 **شيزر**: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرّة، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.3، ص.383.

5 أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص.129.

6 المصدر نفسه، ص.132.

انفعالاتها في دقّة خبير بها كقوله: « ولقد رأيت رأس الأسد يُحمل إلى بعض دورنا، فترى السّنافير تهرب من تلك الدّار، وترمي نفوسها من السّطوحات وما رأت الأسد قطّ »[1] وتجده يعقد مقارنة بين الفهد والنمر في قوله: « والفرق بين النمر والفهد أن وجه النّمر طويل مثل وجه الكلب وعيناه "زرق" [2] والفهد وجهه مدوّر وعيناه "سود" [3] ». [4]

وكانت رحلته لا تخلو من نقد الكثير من الشواهد التي لا تعجبه مثل نقده للإفرنج في قوله: « وليس عندهم من النخوة والغيرة، يكون الرّجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها، ويتحدث معها والزوج واقف ناحية، ينتظر فراغها من الحديث»[5] ويمكن حصر هذه الانتقادات في مواطن عديدة من رحلته.[6]

المتأمل في هذه الرحلة من خلال "الاعتبار" يدرك قيمتها التاريخية والفنية في نفس الوقت، فقد صور الكتاب رحلة أسامة وكأننا نشاهد حركتها ونعيش أحداثها المتنوعة مما يعطي الانطباع على قدرة وبراعة صاحب الرحلة في وصفه لأهم الأحداث في عصره وإن كان فيليب حتي[7] يرى أن كتاب: « الاعتبار ما هو إلا ذكريات استطاع أسامة أسامة أن يضمنها الدسائس والخصومات والآثام التي حدثت في قصور الفاطميين آنذاك والتي بلغت حدّا لم يعرف في أي بلاط في دول العالم، وإن كتابه لم يكن رحلة بالمعنى الفني للكلمة»[8] لكن الباحث في كتاب الاعتبار لن يجد كثير عناء كي يؤكد كثرة رحلات وأسفار ابن منقذ التي تركت بصماتها في مصادر التاريخ من الطراز الأول.

---

1 أسامة بن منقذ: **كتاب الاعتبار**، ص.108.

2 زرق: صوابها زرقاوان لأنه نعت لمثنى.

3 سود: صوابها سوداوان لأنه نعت لمثنى.

4 أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص.111.

5 المصدر نفسه، ص.135.

6 المصدر نفسه، ص.22، ص.24، ص. 79، ص. 83، ص. 89، ص.136، ص.138.

7 يعتبر فيليب حتي من حقق كتاب الاعتبار الذي طبعته له جامعة برنستون الأمريكية عام 1930.

8 فيليب حتي: **تاريخ العرب مطول**، تر. إدوارد جرجي، جبرائيل جبور، الطبعة الرابعة، بيروت، 1965، ج.2، ص.738.

ب ــ رحلة السّائح الهروي: (ت.611 هــ ــ 1215 م):

هو علي بن أبي علي الهروي الحسن الموصلي رحالة مؤرخ ولد بالموصل أصله من هراة مشهور[1] لم تذكر مصادر التاريخ ميلاده، عُرف بالسائح الهروي قضى حياته متجولا في أرجاء المشرق والمغرب الإسلامي فشملت رحلته بيت المقدس ومصر والحجاز والعراق واليمن ثم زار بلاد المغرب وصقلية والقسطنطينية والهند وكان يحرص على كتابة اسمه على الآثار التي يزورها حتى قال عنه المنذري: «كان يكتب على الحيطان، وقلّما يخلو موضع مشهور من مدينة أو غيرها إلا وفيه خَطهُ، حتى ذكر بعض رؤساء الغزاة البحرية أنهم دخلوا في البحر المالح إلى موضع، وجدوا في برّه حائطا وعليه خطّه».[2] وذكر ابن خلكان في الهروي قائلا: «إنّه لم يترك برا ولا فاجرا ولا سهلا سهلا ولا جبلا من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطّه على حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها».[3]

كان الهروي معاصرا لابن جبير وأسامة بن منقذ عاش في فترة مزدهرة من تاريخ العرب المسلمين في عهد حكم صلاح الأيوبي وشهد معه استعادة بيت المقدس وكثيرا ممّا كان بين أيدي الصليبيين من البلاد الإسلامية توفي في رمضان سنة 611 هــ ــ 1215 م في مدينة حلب السورية.[4]

ويعتبر كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات" ترجمة حية لأسفاره وزياراته التي بدأها انطلاقا من مدينة حلب وقام بتدوين أخبارها أولا بأول لكنّها أُخذت منه بعد وقعة بين

---

1 خير الدين الزركلي: **الإعلام**، ج.5، ص.73.

2 عبد العظيم المنذري: **التكملة لوفيات النقلة**، بيروت، 1981، ج.2، ص.315.

3 أحمد بن خلكان: **وفيات الأعيان**، دار صادر، بيروت، 1972، ج.3، ص.346.

4 علي الهروي: **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، تحقيق. علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص.5.

المسلمين والصليبيين، حيث قال: « فإن كتبي أخذتها الفرنج نوبة الوقعة بخويلفة[1] لما قصدهم الانكتار ملك الفرنج »[2] لكنه استطاع أن يستظهر جل رحلته من ذاكرته رغم هذا الضياع.

حاول الهروي منذ البداية رسم معالم رحلته وأهدافها قائلا: « فإنه سألني بعض الإخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات وما شهدته من العجائب والأبنية والعمارات...»[3] فإن كانت رحلته في ذكر زيارات الأولياء الصالحين وقبور الأنبياء فإنه كان يؤرخ لهم ولما احتوته من أحداث تاريخية هامة في حضارة المسلمين وتزداد أهمية رحلته في كونها واكبت الحروب الصليبية في بلاد مصر وبلاد الشام، فكانت المعاينة مصدرا أساسيا في رحلته حيث كان يستقصي أخباره ويقف على شواهد القبور بنفسه، لذا اعتبرت رحلته في عداد الرّحلات التاريخية وهو القائل: « وقد زرت أماكن ودخلت بلادا من سنين كثيرة وقد نسيت أكثر ما رأيته، وشذّ عني أكثر ما عاينته، وهذا مقام لا يدركه أحد من السّائحين والزّهاد إلا رجل جال الأرض بقدمه وأثبت ما ذكرته بقلبه وقلمه»[4] وكان حريصا على إثبات أخباره بالمعاينة بنفسه والأمثلة عديدة منها حديثه عن الأهرام في قوله: « ودخلت إلى هذا الهرم وصعدت إليه ورأيت هذا الحوض...». [5]

كما كان يستقصي أخباره من أفواه الناس على اختلاف أجناسهم حتى وإن كانوا من الإفرنج [6] كما نقل بعض أخبار رحلته من كتب السّير والمصنفات الأخرى فضلا عن

---

1 **خويلفة:** موضع بنواحي فلسطين، **معجم البلدان** للحموي، ج.2، ص.408.

2 علي الهروي: **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ص.35.

3 المرجع نفسه، ص.13.

4 المرجع نفسه، ص.14.

5 المرجع نفسه، ص.41، ص.14، ص.22، ص.28، ص.31، ص.53، ص.73.

6 المرجع نفسه، ص.23، ص.24، ص.26ـــ 28، ص.46، ص.35ـــ36، ص.54، ص.64، ص.70.

الكتب، وفي مقدمتها القرآن والتوراة إذ يقول: « وقرأت في التوراة في السِّفر الأول والجزء الثاني أنّ آزر مات بحرّان[1] لما سكن بها عند خروجه من العراق، وآزر لم يدخل الشّام»[2] ومثل هذه الاقتباسات عديدة في رحلته مع حرصه على إسناد النصوص إلى أصحابها.[3]

وما يستهوي الباحث في رحلته هو اتسامها بطابعها التاريخي خاصة عند ذكره للمدن وربطها بأحداثها التاريخية في فترات زمنية مشهورة كذكره لمدينة حطّين حيث قال:« وبهذه القرية كانت وقعة حطّين المشهورة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وأُسرت ملوك الفرنج وفُتح القدس والسّاحل والعواصم».[4]

وسار على النسق نفسه وهو يتحدث عن الخليل التي بها قبور الأنبياء، إذ قال: «دخلت القدس سنة تسع وستين وخمسمائة واجتمعت فيه وفي مدينة الخليل ــ عليه السلام ــ بمشايخ حدّثوني أنه لما كان زمان الملك، فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب ــ عليهم السلام ــ قد بُليت أكفانهم»[5] وكان يهتم بما يكتب على شواهد القبور ففي جزيرة قبرص شاهد قبرا مكتوبا عليه « هذا قبر عروة ابن ثابت، توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة»[6] وهذا قبر أبي أيوب الأنصاري « واسمه خالد بن زيد، ولما قُتل دفنه المسلمون وقالوا للروم: هذا من كبار أصحاب نبينا فو الله إن نُبش لا دُقّ بناقوس في أرض العرب أبدا»[7] ويسميه الأتراك اليوم قبر السلطان أيوب، ولعله انفرد من بين الرحالة

---

1 **حرّان:** مدينة مشهورة من جزيرة أقور، وهي على طريق الموصل والشام والروم، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.2، ص.235.

2 علي الهروي: **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ص.21.

3 المرجع نفسه، ص.19، ص.23، ص.29، ص.35، ص.49، ص.57، ص.62، ص.69، ص.82.

4 المرجع نفسه، ص.27.

5 المرجع نفسه، ص.35. بردويل انخسف الموضع فى هذه المغارة، فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك.

6 المرجع نفسه، ص.53.

7 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الرحالة المؤرخين في مسحه الشّامل لقبور الأنبياء والأولياء والصالحين على امتداد مملكة العرب والمسلمين في عصره وحتى مزارات الملة المسيحية لم يهملها وتحدث عنها بموضوعية [1] وكان من أكثر الرحالة انتقادا لمعلوماته في كثير من المواضع خاصة ما تعلق بتحديد أماكن القبور الخاصة بالأنبياء والأولياء الصالحين مثل حديثه عن قرية كَفَرنَغد التي هي من نواحي مدينة حمص والتي « بها قبر أبي أسامة الباهلي ـــ رضي الله عنه ـــ والصحيح أن قبره بالبقيع وهو أول من دُفن به، وقيل عثمان بن مظعون أوّل من دُفن به»[2] وفي قرية بَرزة التي هي من غوطة دمشق، إذ قيل: « بها مولد إبراهيم الخليل عليه السلام والصّحيح أنّ مولده بالعراق بكوثى».[3]

وانتقد ما أشاعه أهل الأندلس من أقوال تدّعي أنّ المسيح عليه السلام قد دخل بلادهم وحفر بئرا بجامع قرطبة، حيث قال: « وقد ذكر أهل الأندلس أن البئر التي بجامع قرطبة من غربيه حفرها المسيح عليه السلام والحواريون معه، والصّحيح أن المسيح عليه السلام لم يتعد مصر، وأنه أقام بها سبع سنين مع أمه، هذا نص الإنجيل وقرأت الأناجيل الأربعة فلم أجد أنّ المسيح دخل بلاد المغرب» [4] ومثل هذه الانتقادات عديدة [5] وأنهى الهرويّ رحلته في بلاد العجم بمدينة سمرقند التي بها قبر محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصّحيح.[6]

1 علي الهروي: **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ص.34.

2 المرجع نفسه، ص.18.

3 المرجع نفسه، ص.20.

4 المرجع نفسه، ص.20.

5 المرجع نفسه، ص.21، ص.24، ص.26، ص.30، ص.31، ص.33، ص.52، ص.58ـــ59، ص.66ـــ70، ص.73، ص.82.

6 المرجع نفسه، ص.84.

وتؤكد مصادر النقد التاريخي على اشتمال رحلة الهروي على حقائق تاريخية وملاحظات عامّة ذات أهمية بالغة ويبرز ذلك جليا في حديثه عن التحنيط في مصر وكان يسجّل كل ما وقعت عليه عينه أو سمعه من أفواه النّاس.[1]

ما يميّز هذه الرّحلات تركيزها على القضايا التاريخية ورصدها لأهم الأحداث التي هبّت رياحها على المجتمعات ومراكز الحكم، وما يلاحظ في هذا النوع من الرحلات هو التقاؤها في قواسم تاريخية مشتركة من حيث التناغم والتجانس والنسق التاريخي المميّز في الأهداف والمضامين فلغتها واحدة ومنهجها التاريخي محدّد بين المؤرخين حيث ذكر الأسباب وتحديد التاريخ بالأيام والأشهر من أهم العلامات التاريخية الفارقة، وقد أشاح الرحّالة التاريخيون بوجوههم عن قضايا الناس خاصة الاجتماعية وغضّوا الطرف عن حياتهم اليومية ولم يتحسّسوا مشاعر الناس وأرائهم تجاه الأحداث الجارية، وإن كنا نستثني منهم الرحّالة المسعودي الذي جمع في رحلاته كل ما يثير هواجس الناس حتى أنه لم يغفل عن كثير من همومهم وطموحاتهم وهذا ما ستكشف عنه الدراسة في نماذجها الثلاثة باعتبار المسعودي واحدا من هؤلاء الرواد خاصة في دراسة المجتمع الهندي.

---

1 ينظر اغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، المصدر السابق، ص.11، ص.321، وكتاب نقولا زيادة: **رواد الشرق في العصور الوسطى**، ص.69، وينظر كتاب مصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، المصدر السابق، ص.156.

الفصل الثاني



المبحث الأول: عصر المسعودي وسيرته

المبحث الثاني: رحلته

المبحث الثالث: قيمة الرحلة في تاريخ الهند

خاتمة الفصل

المبحث الأول: عصر المسعودي وسيرته

أولا ــ عصر المسعودي:

أ ــ الحياة السياسية: دأب المؤرخون على تقسيم عهد الدولة العباسية إلى عصرين متميزين: العصر العباسي الأول الذي استمر مائة عام (132هـ ــ 232 هـ) والذي تغلب فيه النفوذ الفارسي في إدارة شؤون الحكم، واعتمدت فيه الدولة على العناصر غير العربية واصطبغت الحياة الاجتماعية والثقافية بصبغة فارسية متميزة، ما يفسر نقل مركز الخلافة بعد سقوط بني أمية من دمشق إلى بغداد، أما العصر العباسي الثاني فيبدأ سنة 232 هـ، وقد تميّز هذا العصر بظهور العنصر التركي وهو العصر الذي عاش فيه المسعودي[1] وقد اعتاد أيضا المؤرخون أن يقسموه إلى فترات متميزة فيبدأ بعصر النفوذ التركي، ثم عصر إمرة الأمراء، ثم العصر البويهي وأخيرا العصر السلجوقي، وقد كتب للمسعودي أن يعيش العصرين الأولين ومطلع العصر الثالث.

أما العصر الأول: فهو عصر ظهور الأتراك كما أسلفنا (232 هـ ــ 324 هـ) فكان الخليفة المأمون هو أول خليفة عباسي استعملهم ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم واستعان بهم في شؤون السياسية والعسكرية[2] وأغدق عليهم الأموال وألبسهم الملابس الفاخرة من الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده[3] حتى بلغوا في عهده بضعة عشر ألفا [4] فاضطر بسبب كثرتهم ومزاحمة الناس من العامة ببغداد لهم أن يشيد مدينة جديدة وينقل قصره إليها وهي مدينة سمراء ليزداد نفوذهم حتى صارت السلطة الحقيقية في أيديهم[5] خاصة بعد مقتل الخليفة المتوكل سنة 247 هـ[1] وقد

---

1 جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، الطبعة الرابعة، تحقيق. محي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1969، ص. 245 ــ 247 .

2 سليمان بن عبد الله السويكت: **منهج المسعودي في كتابة التاريخ**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، الطبعة الأولى، 1984، ص. 27.

3 أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس، بيروت، 1401 هـ ــ 1981م، ج.3، ص. 465.

4 السيوطي: المصدر السابق، ص. 335.

5 انظر المسعودي: **مروج الذهب**، المصدر السابق، ج.3، ص ص. 465 ــ 466.

عانت الدولة العباسية في هذا العصر نتيجة الاستبداد السياسي والإداري وتسلط النفوذ التركي الذي أصبح يتحكم في اختيار الحكام والشخصيات المناسبة له من أبناء الأسرة العباسية ليولّوهم الخلافة حتى إذا لمسوا من بعضهم ميلا إلى التمسك بحقوقهم في الحكم والسلطة عزلوهم أو قتلوهم أو سملوا عيونهم مما أدى إلى اضطراب الأحوال الداخلية في الدولة العباسية وانتشار الفوضى والقلاقل في بغداد، فأصاب الخلافة والناس منهم شر كثير.[2]

في هذه الأجواء المشحونة بالتنافس والاختلاف كان مولد المسعودي حوالي سنة (287 هـ/ 900 م) في أواخر عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله[3] وتميز المعتضد بالحزم، وحدثت في عصره أحداث هامة أثرت في تاريخ الدولة العباسية وفي الحياة في بغداد حيث ولد ونشأ المسعودي فقد خرج عمرو بن الليث الصفار أحد زعماء الصفارية واستولى على معظم بلاد الفرس، كما ظهر في عهده القرامطة في الكوفة بزعامة حمدان قرمط، وفي البحرين بزعامة أبي سعيد الجنابي، كما ظهر ابن حريش في بلاد اليمن حيث نشر الدعوة الفاطمية ودعا إلى البيعة للمهدي الذي أصبح فيما بعد أول الفاطميين في المغرب كما ظهر أبو عبد الله الشيعي الذي نشر الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب وقامت على دعوته الدولة الفاطمية في هذه البلاد.

---

1 قال المسعودي: وفي سنة سبع وعشرين ومائتين كانت وفاة المعتصم على دجلة في قصره المعروف بالخاقاني يوم الخميس لثماني عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول وهو ابن ثمان وأربعين سنة... وبويع هارون بن محمد بن هارون الواثق بالله في اليوم الذي كانت فيه وفاة المعتصم، انظر **مروج الذهب**، المصدر نفسه، ج.3، ص ص. 476 ــ 477.

2 علي حسن الخربوطلي: **نوابغ الفكر العربي**، دار المعارف، مصر، 1968، ص ص. 5 ــ 6.

3 **المعتضد بالله**: هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل، بويع سنة تسع وسبعين ومائتين، كان المعتضد شهما عاقلا فاضلا حمدت سيرته، ولي والدنيا خراب والثغور مهملة، فقام قياما مرضيا حتى عمرت مملكته وكثرت الأموال وضُبطت الثغور، وكان قويّ السياسة شديدا على أهل الفساد حاسما لمواد أطماع عساكره عن أذى الرعيّة، محسنا إلى بني عمّه من آل أبي طالب، وكانت أيامه أيام فتوق وخوارج كثيرين، منهم عمرو بن الليث الصفّار، كان قد عظم شأنه وفخم أمره واستولى على أكثر بلاد العجم، وكان يقول: لو شئت أن أعقد على نهر بلخ جسرا من ذهب لفعلت، وكان مطبخه يحمل على ستمائة جمل، فآلت عاقبته إلى القيد والأسر والذلّ، فقام المعتضد في إصلاح المتشعّب من مملكته والعدل في رعيته حتى مات وفي الخزائن بضعة عشر ألف ألف دينار، الألف مكررة مرتين، ومات سنة تسع وثمانين ومائتين. انظر محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن طقطقا: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص.256.

أما الخليفة الثاني الذي عاصره المسعودي فهو المكتفي بالله[1] وقد وصف المسعودي عصره قائلا: «أفضى الأمر إليه بعد توطئة أبيه الأمور له فبلي بكثرة الفتوق عليه واضطراب الأطراف وكان ماله جما وجيوشه كثيفة فقام بتلك الأمور مقتفيا فعال أبيه، محتذيا طرائقه ولم يكن ممن يوصف بشجاعة ولا جبن».[2]

وفي عهد المكتفي كان السامنيون[3] أصحاب نفوذ مطلق في بلاد فارس كما استفحل شر القرامطة حول بغداد والبصرة وفي سوريا، وأثاروا مخاوف أهالي هذه البلاد ورعيتهم فقد ذكر المسعودي قتلهم لقوافل الحجاج بعد عودتهم من مكة، وشهد عهد المكتفي سقوط الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة المكتفي سنة 292 هـ، ثم زاول نفوذ قرامطة الشمال سنة 294 هـ.

ثم تولى الخليفة المقتدر في ذي الحجة سنة 295 هـ وكان في الثالثة عشر من عمره وقال المسعودي: « وبويع المقتدر جعفر بن أحمد المعتضد ويُكنّى أبا الفضل وقيل إن اسمه إسحاق أفضت الخلافة إليه وهو صغير غِرٌّ ترف لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك فكان الأمراء والوزراء والكتاب يدبرون الأمور ليس له في ذلك حل ولا عقد ولا يوصف بتدبير ولا سياسة وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم فذهب ما كان في

1 **المكتفي**: هو أبو محمد علي بن المعتضد، بويع في سنة تسع وثمانين ومائتين، كان المكتفي من أفاضل الخلفاء، هو الذي بنى المسجد الجامع بالرحبة ببغداد، وفي أيام المكتفي ظهر القرامطة وهم قوم من الخوارج، خرجوا وقطعوا الدّرب على الحاج واستأصلوا شأفتهم وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة وسرّح المكتفي إليهم جيوشا كثيرة فأوقع بهم وقتل بعض زعمائهم، والمكتفي هو الذي بنى التاج بالدار الشاطئية ببغداد، وكانت وفاة المكتفي سنة خمس وستين ومائتين. انظر كتاب" **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، المصدر السابق، ص. 258.

2 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ط. ليدن، 1893، تصوير مكتبة صادر، بيروت، د.ت، ص. 371.

3 **السامنيون**: من أصول فارسية حكمت في بلاد ما وراء النهر من بلاد فارس وأفغانستان في الفترة ما بين 819-999م، أسسها سامان وخلفه ابنه أسد بن سامان الذي أعطى بيعته للخلافة العباسية. راجع **الموسوعة العربية العالمية**. **World Book Encyclopedia**، بتصرف عن دائرة المعارف العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض.

خزائن الخلافة من الأموال والعدد بسوء التدبير الواقع في المملكة فأداه ذلك إلى سفك دمه واضطربت الأمور بعده وزال كثير من رسوم الخلافة.[1]

وتولى بعده الخليفة المرتضى بالله فهو عبد الله بن المعتز مكث يوما واحدا في الخلافة ثم استظهر المقتدر عليه، فأخذه وقتله، ولم يُعدّ عبد الله بن المعتز في الخلفاء لقصر الزمان الذي تولى فيه.[2]

وفي هذه الأجواء المشحونة كان يعيش المسعودي وهو في سن الشباب ولم يكن قد بدأ رحلاته خارج بغداد ويبدو أن تطرق المسعودي للخليفتين المقتدر والمرتضى في كتابه "مروج الذهب" و"التنبيه والإشراف" يعود لوجوده في هذه المرحلة الهامة ببغداد[3] وتحدث المسعودي عن ابن المعتز واصفا إياه كشاعر مقتدر فقال عنه: « إنه كان أديبا، بليغا، شاعرا، مطبوعا، مجودا، مقتدرا على الشعر، قريب المأخذ، سهل اللفظ جيد القريحة، حسن الاختراع للمعاني» وفي حديثه عن أشعاره شعر المسعودي بأنه أسرف في ذلك فقال: فاكتفينا بذكر البعض عن إيراد ما هو أكثر منه في هذا الكتاب لما قدمنا ذكره فيما سلف قبله من الكتب.[4]

وقد وصف المؤرخ (وليام موير William Muir) (1819 ــ 1905) [5] الدولة العباسية في عهد المقتدر فقال في عهده انحدرت إلى الحضيض إذ فقدت معظم ممتلكاتها في الخارج فضاعت إفريقيا، وأوشكت مصر على الضياع واستقل أمراء بني حمدان بالموصل وواصل البيزنطيون هجومهم على حدود الدولة العباسية وأصبح المقتدر ألعوبة

---

1 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص ص. 376 ــ 377 ، ينظر: **مروج الذهب**، ص ص. 203 ــ 204.

2 بن طباطبا: **الفخري في الآداب السلطانية**، المصدر السابق، ص ص.264 ــ 265، ينظر **التنبيه والإشراف**، ص.369.

3 المسعودي: **مروج الذهب**، ص ص. 210 ــ 211 ــ 212.

4 المصدر نفسه،ج.4، ص.293.

5 William Muir :**The Caliphate**. University Of Michigam. pp.567 – 568.

في يد الحاشية الفاسدة واستبد القواد الأتراك بالسلطة... وقد خُلع هذا الخليفة مرتين وذُبح في النهاية على يد أحد قواده المخلصين وتلاشت هيبة الدولة في الداخل والخارج.

ويمضي وليام موير في وصف حالة بغداد عشية رحيل المسعودي عنها فيقول: أن الشعب قد فسدت أخلاقه ولم تعد بغداد تقدر الدفاع عن نفسها لأنهم أصبحوا أحزابا وشيعا متطاحنين على نص من النصوص، كما حدث عندما ثار الحنابلة ورموا الطبري بالإلحاد وحالوا دون دفنه.

وبعد موت المقتدر خلفه أخوه القاهر بالله[1] وفي عهده سادت الفوضى والاضطرابات، فقال عنه المسعودي إنه كان: « شديد الإقدام على سفك الدماء، فهو محب لجمع المال على قلته في أيامه قليل الرغبة في اصطناع الرجال، غير مفكر في عواقب أموره، راكبا روعه، واطئا عشواته، يزيد الشبه بمن تقدم من آبائه فلا يمكنه ذلك لسوء تدبيره وقبح سياسته».[2]

وما لبث أن خُلع وسُملت عيناه بعد أن حكم عاما وستة أشهر وخلفه الخليفة العباسي الراضي[3] وفي هذا العهد شعر الخلفاء العباسيون بضعفهم وعدم قدرتهم عن

---

1 **القاهر بالله:** هو أبو منصور محمد بن المعتضد، بويع سنة عشرين وثلاثمائة، وكان مهيبا مقداما على سفك الدماء أهوج محبا لجمع الأموال رديء السياسة، صادر جماعة من أمّهات أولاد المقتدر، وصادر أم المقتدر فعلّقها برجل واحدة منكّسة الرأس وعذّبها بصنوف عظيمة من الضرب والإهانة، واستخرج منها مائة وثلاثين ألف دينار، وبقيت بعد ذلك قليلا وماتت حزنا على ولدها ومما جرى عليها من العذاب.

وفي سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة خُلع القاهر، وكان سبب ذلك أن وزيره ابن مقلة قد استتر خوفا منه، فكان يفسد عليه قلوب الجند ويحذّرهم منه، وحسّن لهم أن هجموا عليه وخلعوه وسمّلوه حتى سالت عيناه على خديه، ثم حبس في دار السلطنة ومكث في الحبس مدة، ثم أخرج منه عند تقلّب الأحوال، وكان مرة يحبس ومرة يُفرج عنه، فخرج يوما ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس، وقصد بذلك التشنيع على المستكفي، فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم، ولم يجر في أيامه من الحوادث المشهورة ما يؤثر. ينظر **الفخري في الآداب السلطانية**، المصدر السابق، ص.276، ينظر **التنبيه**، ص.387.

2 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، المصدر السابق، ص. 377.

3 **الراضي بالله:** هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن المعتضد، بويع في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، كان شاعرا فصيحا لبيبا ختم الخلفاء في أشياء، منها أنه آخر خليفة دُوّن له شعر، وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدّمين، وفي أيامه سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة عظم أمر مرداويج بأصفهان ، وهو رجل خرج بتلك النواحي،=

مباشرة سلطاتهم، فعهدوا بالحكم إلى بعض رجالهم وفوضوهم تفويضا كاملا فاستأثروا بالسلطة دون الخلفاء واتخذوا لقب "أمير الأمراء" وعلت مكانتهم على مكانة الوزراء، ولما كان المسعودي في هذا العهد قد بدأ رحلاته الطويلة لم يهتم بتفصيل الأحداث في عهد الخليفة الراضي بالله، بل نجد معظم حديثه في جوانب فرعية، وقدم اعتذاره على ذلك الاختصار في حين قال: «وقصدنا فيما ذكرنا في هذا الكتاب إلى الاختصار، دون الشرح والإكثار، إذ كان في الإكثار من الأخبار ثقل في القلوب، وملل السامع، وقليل الأخبار يغني عن كثير الاقتدار»[1] ومات الراضي في ربيع الأول سنة 329 هـ وكان آخر خليفة له شعر مدون وآخر خليفة خطب له على منبر الجمعة، وذكر ابن الأثير أنه «لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها»[2] وتولّى بعده الخليفة المتقي بالله[3] وما لبث أن دخل أبو الحسن البريدي بغداد في جيش كثيف من الأتراك والديلم، واضطر الخليفة إلى الفرار وقتل البريديون من وجدوه في قصر الخلافة من حاشية الخليفة ونهبوا أمتعته، وكافح الخليفة حتى نجح في إجلاء البريديين عن بغداد.

وبعد صراع عنيف بين الأتراك والبريديين والحمدانيين، اضطر الخليفة إلى الهرب خارج بغداد وللالتجاء إلى الحمدانيين وأمدّهم بكثير من الأموال ونجح في العودة

=وقيل أنه يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب، فورد الخبر في أيام الراضي بأن غلمان مرداويج اتفقوا عليه فقتلوه، وفي أيام الراضي ضعف أمر الخلافة العباسية، فكانت فارس في يد علي ابن بويه، والري وأصفهان والجبل في يد أخيه الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد ابن طغج، ثم في أيدي الفاطميين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الأموي، وخراسان والبلاد الشرقية في يد نصر بن أحمد الساماني، وكانت وفاة الراضي في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج4، ص.246، دار الأندلس، بيروت، 1401هـ–1981م.

2 ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج8، ص.112.

3 **المتقي بالله:** بويع له سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، ولم يكن له من السيرة ما يؤثر، واضطربت عليه الأمور، واستولى عليه رجل من أمراء الديلم يقال له توزون، فهرب المتقي ومعه ابنه وأهله إلى الموصل خوفا على نفسه من حرب بغداد، وجرت في تلك الأيام حروب وفتن ونُهبت دار الخلافة وأُخذ ما كان بها، ثم إن توزون كتب إلى المتّقي يستميله وحلف له أيمانا غليظة أنّه لا يناله مكروها من جهته، فاغترّ المتّقي بذلك وانحدر من الموصل إلى بغداد ووصل إلى السّندية من نهر عيسى، فخرج توزون إلى تلقّيه والناس كافة، فلما رآه توزون قبّل الأرض، وكان قد أوصى جماعة من أصحابه سرّا أن يحتاطوا به، فاحتاطوا به وأدخلوه إلى خيمته، ثم قبض عليه وسمل عينيه وخلعه وبايع المستكفي، ومات المتّقي في سنة خمسين وثلاثمائة.

إلى بغداد ولكن عودته لم تدم طويلا وما لبث الأتراك بزعامة (توزون) [1] أن وضعوه في السجن سنة 333 هـ، وعينّوا مكانه المستكفي بالله[2] في نفس السنة 333 هـ ولكن لم يدم حكمه إلا سنة وأربعة أشهر، إذ دخل بنو بويه[3] بغداد سنة 334 هـ وخلعوا الخليفة وسملوا عينيه دون قتله، وكان على قيد الحياة وقت تأليف المسعودي لكتابه "التنبيه والإشراف" فقد قال: «وهو حي إلى وقتنا هذا، وهو سنة 345 هـ مكرم على ما ينمى إلينا من أخباره».[4]

عزل البويهيون المستكفي ـ كما رأينا ـ وسملوا عينيه وتولى الخلافة بعده المطيع لله[5] وهو آخر الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم الرحالة المسعودي، وكان آخر

---

1 **توزون التركي:** كَانَ من خَواص بجكم غدر بالمتقي وَسمله وَكَانَ تعتريه عِلّة الصرع وَلم يحل عَلَيْهِ الْحول بَعْدَمَا فعل ذَلِك بالمتقي وَكَانَ جباراً ظَالما فَاسِقًا فاتكاً قتل خلقا كثيرا وَأخذ الْأَمْوَال. **الوافي بالوفيات:** ج.10، ص.276.

2 **المستكفي:** بويع له سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، ورد الخبر إليه بوصول معزّ الدولة ابن بويه فخاف خوفا شديدا، واضطرب الناس، وأهدى المستكفي إلى معزّ الدولة ألطافا وفاكهة، ووصل معزّ الدولة إلى حضرة المستكفي فردّ إليه إمارة الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء، وهو أول ملوك بني بويه في الحضرة الخليفية، وهو الذي لقبه معز الدولة، وأمر أن تُضرب ألقابهم على الدينار والدرهم، ونزلت الديلم دور الناس ببغداد ولم يكن يعرف ذلك من قبل، ثم إنّ معزّ الدولة ركب يوما إلى دار الخلافة وسلّم على المستكفي وقبّل الأرض بين يديه، وأمر المستكفي فطُرِح كرسي فجلس عليه معز الدولة، ثم تقدّم إلى المستكفي رجلان من الديلم بمواطأة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه، فظن المستكفي أنهما يريدان تقبيل يده، فمدّ يده فجذباها ونكّساه من السرير ووضعا عمامته في عنقه وسحباه، ونهض معزّ الدولة، وضربت البوقات والطبول، واختلط الناس ودخل الديلم إلى حرم الخليفة، وحُمل المستكفي إلى دار معزّ الدولة فاعتقل بها، وخُلع من الخلافة ونُهبت داره وسُملت عيناه، ولم يزل في دار السلطنة معتقلا حتى توفي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة. المستكفي من كتاب الفخري ص.287، ينظر المسعودي: **التنبيه والإشراف**، المصدر السابق، ص.398.

3 **البويهيون:** نسبة لبني بويه من أصل فارسي، يرتبط تاريخهم بأحمد بن بويه من الديلم، كان هو وإخوته جنودا مغامرين استطاعوا أن يحكموا بلاد فارس والريّ وهمذان وأصبهان وبلاد الجبل، وقد استدعي أحمد إلى بغداد حين ساءت الأحوال في عهد الخليفة المستكفي، فوصلها في جمادى الأولى عام 334 هـ حيث قابله الخليفة واحتفى به وخلع عليه ومنحه إمرة الأمراء ولقبه بمعزّ الدولة، وبهذا دخلت بغداد تحت حكم البويهيين. انظر شمس الدين أحمد بن خلكان: **وفيات الأعيان:** ج.1، ص.174.

4 وهكذا ولد المسعودي ونشأ في هذه الأجواء المشحونة بالتناخر والاختلاف، فبمجرد أن وصل البويهيون إلى بغداد ومكنوا لأنفسهم تنكروا للخلفاء العباسيين وعاملوهم معاملة سيئة واعتدوا على أملاكهم وضيقوا عليهم حتى أنهم صاروا يزاحمونهم في المظاهر والألقاب والخطبة، وأصبحت أسماؤهم تنقش على الدراهم والدنانير. انظر. أبي الحسن علي بن محمد بن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ثالثة، دار الكتاب العربية، بيروت، ج.8، ص.16. وانظر أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، د.ت، وزارة الثقافة، القاهرة، ج.4، ص.268، وانظر. السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، ص ص.406 ـ 407.

5 **المطيع لله:** بويع سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان أمره ضعيفا، في أيامه رُدّ الحجر الأسود إلى مكانه، وكانت القرامطة الخوارج قد أخذوه ثم ردّوه، وقالوا: قد أخذناه بأمر ورددناه بأمر، وقوي الفالج على المطيع وثقل لسانه فدخل عليه سبكتكين حاجب معزّ الدولة فدعاه إلى خلع نفسه ومبايعة ولده الطائع، ففعل ذلك وعقد الأمر لولده وخلع نفسه، ومات في سنة أربع وستين=

الخلفاء الذين تحدث عنهم المسعودي في مدوناته فقال عنه: « وغلب على الأمر بني بويه الديلمي، والمطيع في يده لا أمر له ولا نهي، ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر»[1] وانتهى المسعودي من تأريخه لعهد المطيع إلى سنة 345 هـ وقد كتب هذا التاريخ وهو مقيم في مصر، فقال:« وزالت أكثر رسوم الخلافة والوزارة في وقتنا هذا وهو سنة 345 هـ على ما ينمى إلينا من أخبارهم ويتصل بنا من أحوالهم لطول غيبتنا عن العراق، ومقامنا بأرض مصر والشام».[2]

ووصف المسعودي هذه الحالة المترهلة للدولة الإسلامية وناقش هيبة السلطة التي ضعفت، ومدى تطلع الأمراء والقادة إلى الاستقلال بولايتهم والانفراد بحكمهم، مما جعل العالم الإسلامي يصاب بانقسام كبير حتى كأنه عقد انفرط أو صخرة تفتت.[3]

وقد لاحظ المسعودي ذلك الانقسام وحزّ في نفسه وآلمه، فشبه حال المسلمين في ذلك الوقت بحال ملوك الطوائف بعد قتل الإسكندر المقدوني ملك بابل[4] ولو دققنا النظر في حال أقاليم العالم الإسلامي في تلك الفترة لوجدناها عفارا قد تغلب عليها أمراؤها وولاتها ووهى رباطها بحاضرة الخلافة بغداد وقد وصف ابن الأثير هذه الحالة التي آلت إليها الخلافة وأقاليمها، فعلى سبيل المثال نجد البصرة قد تغلب عليها ابن رائت، وفارس، استولى عليها علي بن بويه الديلمي، وأخوه الحسن بن بويه استولى على أصبهان والجبل والري، وكانت كرمان في يد محمد بن إلياس، أمّا الحمدانيون فقد سيطر نفوذهم على الموصل وديار بكر وربيعة وديار مصر، وانفرد الإخشيديون بحكم بلاد مصر والشام، وكانت المغرب وإفريقية في يد الفاطميين والبحرين واليمامة في يد القرامطة، أما خراسان

=وثلاثمائة، ثم ملك بعده ابنه عبد الكريم أبو بكر الطائع لأمر الله، بويع له سنة ثلاث وستين وثلاثمائة. ص.289 من كتاب **الفخري**، وانظر المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص.399، وانظر المسعودي: **مروج الذهب**، ج.4، ص.277.

1 المسعودي: **مروج الذهب**، المصدر السابق، ص ص.277 ــ 287.

2 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، طبعة صادر، د.ت، ص.401.

3 أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، المصدر السابق، ج. 1/2.

4 المسعودي: المصدر السابق، ص.400.

وما وراء النهر فتغلب عليها السامانيون وطبرستان وجرجان تغلب عليها الديلم، وخوزستان أصبحت بيد البريدى، ولم يبق للخلافة العباسية سوى بغداد وما حولها، وحتى هذه كانت تحكم إسميا فحسب وليس هناك سيطرة عليها.[1]

من خلال ذلك يبدو جليا سبب رحلة المسعودي المبكرة وخروجه من بغداد في ريعان شبابه وهي حاضرة الخلافة الإسلامية.

ب ــ الحياة الثقافية: تميز عصر المسعودي وهو النصف الأخير من القرن الثالث والقرن الرابع الهجري في مجاله الثقافي بالثراء الفكري وبلوغ المجد العلمي الذي تشكلت مظاهره في اتساع نظرة الناس وتشبعهم بروح الأمة الإسلامية وتخلص العلماء من أنانية التعصب للعرق والأصل والعشيرة، وصار أكثر العلماء ينتمون إلى بلادهم أو مدنهم التي ظهروا فيها، وأصبح تنقل العلماء من قطر إلى قطر سمة من سمات العصر، لما يجدونه من تسهيلات وخدمات[2] وظهر أمر آخر حيث برزت في ذلك العصور تلك الموسوعية التي اتصف بها العلماء وعدم قصر اهتمامهم على علم دون آخر، فكان العالم يجتمع عنده مواهب عدة بين التفسير والفقه والحديث واللغة والتاريخ والجغرافيا وعلوم الفلك وغيرها كما هو الحال لرواد الدراسات الهندية من الرحالة المسلمين: المسعودي وأبو الريحان البيروني.

وما يلاحظ في هذا العصر ذلك التلاقح والامتزاج الثقافي بين الحضارة الإسلامية وعلومها وحضارات أخرى وعلومها خاصة بعد تلك الحركة والنشاط الحثيث في مجال الترجمة من اللغات اليونانية، والسريانية والفارسية والهندية والتعرف على مختلف العلوم من طب وفلك وعلوم طبيعية ورياضيات وفلسفة... وغيرها.

---

1 ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، المصدر السابق، ج.6، ص ص. 254 ــ 255، وانظر. عماد الدين إسماعيل أبو الفدا: **المختصر في أخبار البشر**، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت، ج.1، ص. 84.

2 علي الخربوطلي: **المسعودي "سلسلة نوابع الفكر العربي"**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1968، ص.16.

وقد عكف العلماء المسلمون على دراسة العلوم المترجمة والنظر فيها حتى تم لهم إدراكها وهضمها جيدا، وقاموا بشرحها وتحليلها ثم الرد عليها والزيادة فيها، «وقد لاقت تلك الزيادات التي أصبحت من صلب المادة ترحيبا عظيما».[1]

ويبدو أن ذلك التفكك السياسي وتحلل أجزاء الخلافة الإسلامية، وإن أضعف جانبا من الأمة فقد حفّزها ذلك الانقضاض من الأمم الحاقدة وبعث في علمائها ملكة الابتكار والإنتاج، فانتشرت مراكز العلم والحضارة تنافس بغداد حاضرة الثقافة الأولى، وصارت الأقاليم المستقلة تتبارى في تكريم العلماء واحتضانهم وأخذ كل أمير بشتى الوسائل يحاول اجتذاب العلماء وإجزال العطايا لهم حتى أن ذلك أصبح مصدر فخر واعتزاز لهم مع الأقطار الأخرى المجاورة لهم.[2]

فقد برز في العراق والبصرة والكوفة أعداد كبيرة من جهابذة الفكر واللغة والنحو والصرف، وبقيت البصرة محتفظة بمكانتها العلمية إلى غاية القرن الرابع الهجري وكان "إخوان الصفا" يتخذون منها مركزا لنشاطهم العلمي[3] فظهر في بغداد أبو جعفر الطبري المفسر والفقيه والمقرئ والمؤرخ المشهور، ولد في آمل إحدى قرى طبرستان سنة 225 هـ وتوفي في بغداد عام 310 هـ [4] وقد عاصر المسعودي الطبري وأخذ عنه العلم واطلع على مؤلفاته وأثنى عليها[5] ومن أصحاب المذاهب علماء كثير بالعراق في ذلك العصر أشهرهم فقيه المالكية إسماعيل ابن إسحاق بن حمّاد أبو إسحاق[6] وعبد الله بن

---

1 دي لاس أوليري: **الفكر العربي ومركزه في التاريخ**، تر. إسماعيل البيطار، الطبعة الأولى، بيروت، الكتاب اللبناني الجديد، 1972، ص. 96.

2 أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، المصدر السابق، ج.4، ص.95.

3 محمد جمال الدين سرور: **تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري**، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1396 هـ ــ 1976 م، ص.209.

4 انظر ترجمته بتوسع لدى: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي: **معجم الأدباء**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج.18، ص.40 إلى 94، وكتاب ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، المصدر السابق، ج.4، ص.191.

5 المسعودي: **مروج الذهب**، المصدر السابق، ج.1، ص.15.

6 انظر عنه أبا بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج.6، ص. 284.

أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الرحمن[1] وأبو الحسن عبيد الله الكرخي[2] وأبو الحسن الماوردي[3] وغير هؤلاء كثير.[4]

وهناك مدن أخرى أخذت حظها من الإنتاج العلمي وأصبحت تنافس بغداد حاضرة الخلافة ومن أشهرها: أصبهان والري وفارس، ونبغ فيها العديد من الفقهاء والفلاسفة والأدباء أمثال علي بن الحسين الأموي الأصبهاني، ولد بأصبهان سنة 284 هـ[5] وعلي بن محمد بن العباس التوحيدي أحد الفلاسفة المرموقين، ولد بشيراز ثم انتقل إلى الري[6] وقد أخرجت هذه البلاد من المحدثين والفقهاء والنحاة والفلاسفة ما لا يحصى كثرة[7] وقد زار المسعودي كل هذه البلاد في رحلاته.[8]

وفي مصر والشام ازدهر الاشتغال بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات وكذا الاهتمام بالتاريخ والجغرافيا، وكانت هذه العلوم تبعث في أصحابها والمشتغلين بها ميلا كبيرا إلى الرحلة والتجوال في سبيل العلم من أجل الإفادة والاستفادة ومن هنا كنا نلاحظ دائما عالما يحل هنا وعالما يرحل إلى هناك، وقد قوى هذا الدافع وضع المملكة الإسلامية في ذلك الوقت، حيث كان المسلم يستطيع أن يرحل داخل حدود

---

1 انظر عنه: القاضي محمد بن أبي يعلى: **طبقات الحنابلة**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ج.1، ص.180.

2 انظر عنه حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، منشورات مكتبة المثنى، د.ت، ج.1، ص. 563.

3 **الماوردي**: من أكبر فقهاء الشافعية ومن القضاة المشهورين في عصره كتب الحاوي في الفقه، والأحكام السلطانية، توفي عام 450 هـ، انظر عنه تاج الدين تقي الدين السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، الطبعة الأولى، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، ج.3، ص. 303.

4 وللتوسع في هذا الباب انظر أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، ج.1، ص.223 وما بعدها.

5 انظر عنه أحمد بن علي الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ج.11، ص.398.

6 انظر عنه **طبقات الشافعية**، المصدر السابق، ج.4، ص.2.

7 أحمد أمين: المصدر السابق، ج.1، ص.245.

8 علي حسن الخربوطلي: **المسعودي**، المصدر السابق، ص.18.

هذه المملكة في ظل دينه وتحت رايته... وكان يوجد داخل هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حق المواطنة بحيث يكون آمنا على نفسه وماله وأهله.[1]

ولذا رأينا المسعودي وغيره من العلماء يفدون إلى مصر والشام لطلب العلم ونشره كما أن علماء هذين الإقليمين رحلوا إلى أقطار أخرى للغاية نفسها وكان من أشهرهم في مصر في عصر المسعودي الربيع بن سليمان المرادي[2] وأبو جعفر الطحاوي الطحاوي أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي، انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر توفي عام 321 هـ[3] وأبو بكر بن الحداد أحد فقهاء الشافعية الكبار تولى القضاء وتوفي عام 344 هـ[4] وفي التاريخ اشتهر في هذا العصر بعد ابن عبد الحكم[5] ثلاثة مؤرخين وهم : ابن يونس[6] والكندي[7] وابن زولاق[8] وفي الشام ظهر أحمد المقدسي الشامي[9] وقد تجلت في عصر المسعودي هذه الحركة في بلاد الشام عند الأمراء الحمدانيين بحلب وخاصة أيام

1 آدم ميتز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تر. محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتاب العربي، 1387 هـ / 1968 م، ص.22.

2 صاحب الإمام الشافعي وراوي كتبه، امتاز بقوة الحفظ وقلة الذكاء، أول من أملى الحديث بجامع ابن طولون، توفي سنة 270 هـ. انظر عن سيرته. المسعودي: مروج الذهب، 119/5، ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 291/2.

3 ابن كثير: البداية والنهاية، ط.2، دار المعارف، بيروت، 1974، ج.11، ص. 174.

4 انظر عنه. ابن خلكان: المصدر السابق.

5 **ابن عبد الحكم**: اهتم بالتاريخ وكانت له صولات في الرواية والحديث، يعتبر أول مؤرخ لخطط مصر، توفي سنة 257 هـ، له كتاب" فتوح مصر وأخبارها" انظر عنه. **وفيات الأعيان**، 3/ 35، و**كشف الظنون**، 2/ 1240، و**هداية العارفين**، 1/ 512.

6 هو عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي اهتم بالتاريخ بعد أن تثقف بالفقه والحديث، ألف كتابين في تاريخ مصر: " أخبار مصر ورجالها" و "ذكر الغرباء الوافدين على مصر"، توفي سنة 347 هـ. انظر عنه محمد بن شاكر الكتبي: **فوات الوفيات**، تحقيق. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1973، ج.2، ص.267.

7 **الكندي**: هو محمد بن يوسف بن يعقوب من بني كندة، من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها له كتاب "الولاة والقضاة" وكتاب "الموالي" انظر عنه في كتاب **هداية العارفين** 46/2، توفي عام 347 هـ.

8 **ابن زولاق**: هو الحسن بن إبراهيم بن الحسن من ولد سليمان بن زولاق كان مهتما بتاريخ مصر، كتب ذيلا لكتاب الكندي قضاه مصر سماه أخبار قضاة مصر وله مختصر تاريخ مصر توفي عام 387 هـ. انظر ترجمته في **البداية والنهاية**، ج.11، ص. 321.

9 **أحمد المقدسي**: هو محمد بن أبي بكر البناء أبو عبد الله المقدسي. انظر عنه كتابنا **ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني**، ط.1، دار الأمل، 2014، ص.61.

سيف الدولة حيث بلغت نهضة الشعر والأدب درجة كبيرة من الرقي[1] وقد عاش الرحالة المسعودي فترته الأخيرة في بلاد الشام ومصر.[2]

ولا يتسع المقام لتعداد علماء وأدباء بلاط سيف الدولة الحمداني ويكفي أن نشير إلى أشهر الأدباء واللغويين والنحويين وعلى رأسهم ابن خالويه[3] وأبو علي الفارسي[4] وابن وابن جني [5] إضافة إلى الفيلسوف الكبير الفارابي[6] والشاعر العربي العملاق أبو طيب المتنبي.[7]

هكذا نرى أن هذا العصر وهو يضم أواخر القرن الثالث مع القرن الرابع الهجري يعتبر عصر النهضة في الإسلام[8] حيث بلغت فيه أكثر العلوم شأوا بعيدا، وازدهرت وتطورت وأينعت ثمارها، وقد ولد المسعودي ونشأ في تلك البيئة العلمية في فترة من أكثر الفترات نهضة وحيوية وتحفيزا، واستطاع أن ينهل من معين العلوم في ذلك العصر.

1 جمال سرور: **الحضارة الإسلامية في الشرق**، ص.7.

2 علي حسن الخربوطلي: **المسعودي**، المصدر السابق، ص.18.

3 الحسين بن أحمد بن خالويه: أبو عبد الله، لغوي من كبار النحاة، استوطن حلب فعهد إليه سيف الدولة بتأديب أولاده، وكانت له هناك مجالس ومناظرات، توفي سنة 370 هـ، له من المؤلفات: الاشتقاق، ليس في كلام العرب ... وغيرها .انظر عنه **وفيات الأعيان** 178/2، وأبا الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، ج.3، ص. 71 .

4 **الحسن بن أحمد عبد الغفار**: الفارسي الأصل، أبو علي، أحد أئمة العربية، عاش في حلب مدة وفي العراق مدة، وصحب عضد الدولة، توفي سنة 377 هـ، من مؤلفاته: الإيضاح، والتذكرة وغيرهما. انظر عنه **تاريخ بغداد** 275/7، **وفيات الأعيان** 80/2.

5 **عثمان بن جني الموصلي**: أبو الفتح، أحد أئمة الأدب والنحو، له فيه آراء وابتكارات، توفي سنة 392 هـ، من مؤلفاته: الخصائص في النحو، سر الصناعة في اللغو وغير ذلك كثير. انظر عنه: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده: **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، مراجعة وتحقيق كامل كامل بكري عبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1968، ج.1، ص. 134.

6 **محمد بن محمد بن طرخان الفارابي**: أبو النصر، من أكبر فلاسفة المسلمين، عرف بالمعلم الثاني لشرحه لمؤلفات أرسطو في المنطق ـ المعلم الأول ـ كان زاهدا مشتغلا بالعلم والتأليف، توفي في دمشق سنة 339 هـ، من مؤلفاته: إحصاء العلوم، والسياسة المدنية وغيرهما كثير.

7 **أحمد بن الحسين بن الحسن الكندي**: أبو الطيب، أحد مفاخر الأدب العربي، صاحب الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة، كانت له حظوة عند سيف الدولة الحمداني بما قال فيه من مدائح وأشعار، وزار مصر فمدح كافور الإخشيدي ثم هجاه، قتل سنة 354 هـ .انظر عنه **تاريخ بغداد** 102/4.

8 أغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، المصدر السابق، ج.1، ص. 177.

ثم ركب الأخطار والأهوال وسلك المسالك البرية والبحرية كي يطلع عن كثب على أحوال الأمم والشعوب والأقطار وتمكن أن يصوغ لنا جميع ما وعاه من علوم وما أكتسبه من تجارب ومشاهدات أثناء رحلاته في كتبه ومؤلفاته التي بحق تدل على أنه ابن زمانه زمن النهضة .

ثانيا ــ سيرة المسعودي:

أ ــ نسبه وولادته:

هو علي بن الحسين بن علي بن عبد الله المسعودي[1] الهذلي، أبو الحسن، وقد حمل لقب المسعودي والهذلي بسبب انتمائه إلى جده الأعلى عبد الله بن مسعود الهذلي الصحابي الجليل[2] وجاء في كتاب تنقيح المقال في أحوال الرجال[3] أن نسبه يعود إلى منطقة بغداد اسمها مسعودة من وراء المأمونية، وهي رواية مرجوحة عند الشيعة لكن لا سند لها لأن النسب الأول هو الأقوى والأرجح، نظرا لدعم جميع المصادر التي ترجمت للمسعودي للرأي الأول.[4]

---

1 هكذا عرف المسعودي نسبه في كتابيه **المروج** 1 /254، 33/3، و**التنبيه والإشراف**، ص.1، 136،198، 227، 328، 400، 401.

2 **عبد الله بن مسعود** بن غافل بن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمان، أحد كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي بالمدينة المنورة سنة 32 هـ... انظر عن حياته محمد بن سعد: **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، د.ت، ج.3، ص.150، والحافظ أبا نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ط.1، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت، ج.1، ص. 124، والحافظ ابن حجر العسقلاني: **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الإحياء التراث العربي، بيروت، ط.1.

3 عبد الله المامقاني: **تنقيح المقال في أحوال الرجال**، المطبعة المرتضوية، النجف، د.ت، ص. 282.

4 أثارت عبارة لابن النديم صاحب الفهرست ذكر فيها أن المسعودي كان من أهل المغرب مشكلة لكل من ترجم للمسعودي خاصة الذين جاؤوا من بعد ابن النديم، لأنه معروف أن الصحابي الجليل ابن مسعود رضي الله عنه استوطن العراق منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وارتبطت أسرته من ذلك الحين بالعراق وانصرفت إلى العلم، ولم تشتغل بالسياسة في العهدين الأموي والعباسي وحينما أسس أبي جعفر المنصور ببغداد وظف هذه الأسرة.انظر علي الخربوطلي، ص.22، وكتابنا **ثقافة الهند**، ص.51.

أما مولده فكان في بغداد ولكن تاريخ ولادته مجهول ولم يذكر في كتبه عن تاريخ ولادته[1] وحسب ما ذكر كراتشكوفسكي وآخرين فإن ولادته كانت في بداية القرن العاشر الميلادي أي في حدود 900 م / 287 هـ[2] وهي السنة التي ذكرها الدكتور علي الخربوطلي في كتابه المسعودي.[3]

وتعتبر بغداد بخصائصها الحضارية الكبرى وباشتهارها بمكتباتها ووفرة الورّاقين بها وعدد الفقهاء والقراء والأدباء والأئمة منطلقا هاما لهذه الشخصية التي ترعرعت فيها ونشأت في معينها، وصدق المقدسي عندما وصفها بقوله: " أن لأهلها الخصائص والظرافة والقرائح واللطافة، هواء رقيق وعلم دقيق، كل جيد بها وكل حسن فيها وكل حاذق منها وكل قلب إليها وكل حرب عليها وهي أشهر من أن توصف وأحسن من أن تنعت وأعلى من أن تمدح"[4] فكانت نشأته في بغداد في العصر السياسي الثاني في أواخر عهد الخليفة المعتضد العباسي الذي ذكره المسعودي في كتابه مروج الذهب فقال : «ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد بالله سكنت الفتن وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب، وانفتح له الشرق والغرب، وأذيل له في أكثر المخالفين عليه والمنابذين له».[5]

ونال الخليفة المعتضد اهتمام المسعودي كمؤرخ فنجده يسهب في دراسة تاريخه وعصره فقد نال تاريخه حوالي ثلاثة وثلاثون صفحة من كتابه مروج الذهب.[6]

---

1 مقبول أحمد: **أبو الحسن علي المسعودي، ثقافة الهند**، المجلد 18، العدد 2، أفريل 1968، ص.30.

2 كراتشكوفيسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** 177/1.

3 علي الخربوطلي: **المسعودي**،المصدر السابق، ص.22.

4 أبو عبد الله المقسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط.2، دار صادر، بيروت، د.ت، ص.119.

5 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.4، ص.232.

6 علي الخربوطلي: المصدر السابق، ص.22.

ب ــ تعليمه وشيوخه:

اهتمت أسرته بتعليمه وتنشئته نشأة عربية إسلامية خاصة مع وجود مدينة وحاضرة مثل بغداد توفرت فيها كل شروط الحضارة وما حوته من تراث وشهرة فاقت الحدود.

تلقى المسعودي وهو في صباه ألوانا من العلوم والمعارف الدينية والأدبية على يد جماعة من العلماء المعروفين في بغداد والبصرة على اعتبار موطنه الأول، وهناك نخبة أخرى من العارفين سيلتقي بهم المسعودي حين يبدأ رحلاته خارج بغداد إلى بلدان أخرى ولا يسعنا المقام هنا أن نذكر كل هؤلاء، ونستثني الحديث عن أبرزهم من الذين تركوا أثرا في شخصيته العلمية، ومن أشهرهم أبو العباس أحمد بن شُريح المتوفي سنة 306 هــ[1] كان المسعودي حريصا على حضور مجالسه العلمية، وعلق المسعودي على إحدى رسائله وهي "رسالة البيان عن أصول الأحكام".[2]

ومن العلماء الذين جالسهم المسعودي في سن مبكرة: محمد بن خلف بن حبان الملقب بــ "وكيع"[3]، توفي عام 306 هــ، كان مهتما بالأخبار والتاريخ.[4]

وأخذ العلم عن أبي الحسن أحمد بن السعيد الدمشقي الأموي (ت. 307 هــ) وكان راويا للحديث.[5]

---

1 **أحمد بن عمر بن شريح القاضي:** أبو العباس، من رواد المذهب الشافعي، كان عالما جدليا له مجالات عديدة في المناظرة، توفي ببغداد عام 306 هــ، له حوالي 400 مصنف. انظر المسعودي: **مروج الذهب،** 207/5، **ووفيات الأعيان،** 65/1، **وطبقات الشافعية** 87/2 وما بعدها، و**البداية والنهاية** 11/ 129.

2 السبكي: **طبقات الشافعية** 307/2.

3 **محمد بن خلف بن حبان بن صدقة الصنبي:** أبو بكر المشهور باسم وكيع، قاض وعالم بالتاريخ والبلدان، له عدة مصنفات أهمها: أخبار القضاة وتواريخهم، الشريف، النواحي.انظر عنه **البداية والنهاية** 130/11.

4 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، المصدر السابق، ص. 293، و**مروج الذهب**، المصدر السابق، 15/1.

5 **أحمد بن سعيد بن عبد الله الدمشقي الأموي:** أبو الحسن، محدث دمشقي الأصل سكن بغداد وروى الحديث وروى عنه الكثير من الأخبار، وهو مؤدب، ولد المعتز، توفي سنة 307 هــ. انظر عنه ياقوت الحموي: **معجم الأدباء،** ج.3، ص ص.46 ــ 49.

وقد أثنى المسعودي في مقدمة المروج على أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وكان مقدرا لمنزلته العلمية ومكانته المرموقة بين أقرانه العلماء، مبرزا قيمة مصنفه التاريخي من بين المصنفات، مما يوحي أن المسعودي يكون قد سمع وأخذ عنه وإن كان نقله عنه ضئيل جدا باستثناء مرة واحدة في التنبيه والمروج :«حدثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عن بشر بن معاذ عن يزيد ...».[1]

وتنقل المسعودي في نشأته الأولى بين علماء آخرين في اللغة ونحوها وصرفها، ومن أبرزهم الزّجاج (ت.311هـ)[2] وابن دريد (ت.321هـ)[3] ونفطويه (ت.323 هـ)[4] والمتأمل في مدح المسعودي لهم يدرك إعجابه بهم وبمصنفاتهم.[5]

وإلى هؤلاء ينظم الفقيه الموصلي أبو القاسم جعفر بن حمدان (ت. 323 هـ)[6] الذي التقى به المسعودي وروى عنه الكثير[7] وكان ابن الأنباري (ت.328 هـ)[8] من محفزي المسعودي ومن رواد حلقاته والمهتمين بها.[9]

---

1 المسعودي: **التنبيه**، المصدر السابق، ص. 267، وانظر **مروج الذهب** 184/3، 202.

2 الزجاج: هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزّجاج عالم بالنحو واللغة ولد ببغداد وتوفي بها، من كتبه معاني القرآن، الأماني، الاشتقاق.انظر عنه **تاريخ بغداد** 89/6 ــ 93، و**معجم الأدباء** 130/1 ــ 151.

3 قال عنه المسعودي : «إنه ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغ ... » انظر **مروج الذهب** 215/5.

4 **ابن دريد:** هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي الواسطي النحوي أبو عبد الله نفطويه، سكن بغداد وأخذ عن المبرد، توفي سنة 323 هـ، له عدة مصنفات ذكرهم ابن النديم في الفهرست، ص.121، وياقوت الحموي في **معجم الأدباء** 254/1 ــ 272.

5 عن الزجاج انظر **مروج الذهب** 28/5 ــ 198، وعن ابن دريد ج.58/2 ــ 299، وعن نفطويه ج191/5.

6 **جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشافعي:** أديب وشاعر وفقيه له عدة مصنفات من أهل الموصل انتقل إلى بغداد، واحتك بعلمائها ووزرائها، له عدة مصنفات منها: الباهر في أشعار المحدثين، الشعر والشعراء. انظر عنه **الفهرست**، ص. 213، **معجم الأدباء** 190/7 ــ 205.

7 المسعودي: **مروج الذهب**، المصدر السابق، 38/9، 17/5 ــ 186.

8 **محمد بن القاسم بن محمد بن بشار:** أبو بكر الأنباري من علماء اللغة والأدب كان مؤدبا لأولاد الراضي، من كتبه: الزاهر، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل. انظر عنه **تاريخ بغداد** 181/3 ــ 186، **طبقات الحنابلة** 69/2 ــ 72.

9 المسعودي: **مروج الذهب**، المصدر السابق، 340/4.

وذكر السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى ان المسعودي يسمع سماعا مباشرا ودون واسطة[1] للقاضي عبد الله بن زبر الدمشقي المتوفي سنة 329 هـ[2] وان كان ذلك يبدو انه متأخرا وكأنه في دمشق وليس بغداد ويعتبر الصولي المتوفي نحو سنة 335هـ [3] [3] من الأساتذة الإجلاء للمسعودي الذي أخذ عنه صورة كاملة لما كان يحدث داخل مجالس مجالس الخلفاء في بغداد[4] وكان المسعودي يقدر شيوخه وأساتذته فلم يشر إلى احد بسوء من بعيد أو قريب.

وأخذ المسعودي عن آخرين من علماء البصرة فخرج من بغداد وتاقت نفسه إلى خارجها وكانت البصرة يومئذ زاهرة بالعلماء وكثرة الصالحين[5] فالتقى المسعودي بابي مسلم إبراهيم بن عبد الله الكجي من حفاظ الحديث[6] وكان مشهورا فأخذ عنه[7] وأخذ عن ابن أخت الجاحظ الأدب والظرافة «يموت بن المزرع المتوفي سنة 304هـ[8] وكذلك أبو خليفة الفضل بن حباب الجمحي المتوفي سنة 305 هـ[9] وكان المسعودي قد التقى به

---

1 **طبقات الشافعية** 307/2.

2 عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن زير الدمشقي أبو محمد، قدم بغداد وحدث بها، ثم انتقل إلى مصر وتوفي بها. انظر عنه تاريخ بغداد 387/9، **شذرات الذهب** 323/2.

3 المسعودي: **مروج الذهب** 340/4.

4 محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي، من علماء الأدب والتاريخ، كتب في الشعر وأخبار الخلفاء، له كتاب الأوراق، وقد أثنى عليه المسعودي في **مروج الذهب** 15/1، وأدب الكتاب. انظر عنه: **تاريخ بغداد** 427/3 ـ 432، **وفيات الأعيان** 356/4 ـ 360.

5 المقدسي: **أحسن التقاسيم**، المصدر السابق، ص.118.

6 انظر عنه **تاريخ بغداد** 120/6، و**مروج الذهب** 187/5.

7 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص. 254.

8 يموت بن المزرع أبو بكر ابن أخت الجاحظ كان اخباريا أديبا ظريفا، أخذ عنه المازري والسجستاني وتوفي عام 304 هـ. انظر عنه **معجم الأدباء** 57/20، ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، د.ت، ج.3، ص. 191، و**شذرات الذهب** 243/2.

9 انظر **معجم الأدباء** 204/16 ـ 214.

وأخذ عنه وأعجب به لفصاحته وإحاطته بعلم الأخبار والإنسان[1] كما أخذ في البصرة عن أبو إسحاق الجوهري حيث يذكر المسعودي أنه من العلماء الذين حدثوه بالبصرة.[2]

وعند عودته من البصرة أقام في بغداد وقتا قصيرا لتبدأ حلقة أخرى من حلاقاته العلمية في رحلات متتابعة، يلتقي خلالها بأعداد كبيرة من العلماء البارزين في تخصصات أخرى تأخذه إلى مصاف العلماء الموسوعيين، ويبقى عند المسعودي مهما ابتعد شوقا لوطنه جعله دائم التذكر لعلمائه ومشايخه الذين نهل من علمهم وتأصل على أيديهم.

1 انظر **المروج** 104/3، 52/4، 231، 27/5، 71ـ 143 ـ 145، و**التنبيه** ص. 254، وانظر شمس الدين الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج.15، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط.1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ص.369.

2 أشار إليه المسعودي كثيرا ولكن لم يذكر اسمه كاملا. انظر المسعودي: المصدر نفسه، ج.2، ص.298، ج.3، ص.350، ج.4، ص.310.

المبحث الثاني: رحلته

لقد صُنِّفت رحلة المسعودي في الرحلات التاريخية التي تتحدث عن الحوادث التاريخية وسيرة الملوك والأمراء والأولياء، وهؤلاء الرّحالة تنصبّ رحلاتهم في مجملها على ذكر التاريخ المعاصر لهم، بما يضفي على ما ينقلونه الصدق والأمانة في سرد ممتع وبأنماط مختلفة، وتعدّ هذه الرّحلات وثائق تاريخية مهمّة وشاهدة عيان على كثير من الأحداث في تاريخ هذه الأمة.

أ ــ أسباب الرحلة وأغراضها:

بعد أن نهل المسعودي العلوم من منابعها المختلفة في بغداد والبصرة قرر أن يرحل إلى البلاد المختلفة، عربية وغير عربية ليستمد المزيد من المعارف وليلمس بنفسه صورا من حياة الشعوب ويرى ألوانا من الحضارات[1] فكانت الرحلة لطلب العلم في العصر الذي عاش فيه المسعودي من المكونات الحقيقية لطلب العلم إذ لا يستطيع أن يُلمّ بمختلف الفنون والثقافات وهو في قطر من الأقطار فلا بد أن يشد الرّحال ليتصل بالعلماء ويستفيد من علمهم.[2]

ولا شك أن المسعودي كان من أهم رَحاليّ العالم في القرون الوسطى وارتبطت رحلته بالبحث والنقد وفي تحقيق المشاكل التاريخية والمسائل الجغرافية فإنه اعتقد أن العلم الحقيقي لا يحصل إلاّ بالعمل والتمرين والمشاهدة وليس العالم في الحقيقة من يقعد على كرسيه ويعتمد في حصول العلم على الكتب بين يديه ولا يخرج من غرفته ليشاهد العالم الخارجي، لذلك كتب المسعودي مشاهداته بين التحقيق ونظر التدقيق[3]، وقد كان الوضع الذي امتازت به دولة الخلافة في ذلك الوقت دور كبير في تشجيع هذه الرحلات

1 كفيل أحمد القاسمي: **الهند والهنود في نظر المسعودي**، مجلة ثقافة الهند، المجلد 52، العدد 2، 2001، ص. 170.

2 سليمان بن عبد الله السويكت: **منهج المسعودي في كتابة التاريخ**، ص.53.

3 أحمد مقبول: **أبو الحسن المسعودي**، ثقافة الهند، المجلد 18، عدد 2، أفريل 1967، مجلس الهند للروابط الثقافية، ص.31.

وتنميتها فلم تكن هناك حدودا سياسية لتقف حاجزا في وجه العلماء أو المسافرين أو التجار، وساعد وجود الرباطات من تسهيل الرحلة وتهيئتها للمسافرين ــ ولا سيما العلماء ــ أسباب الإقامة إضافة إلى الوضع الاقتصادي الذي كانت تتمتع به الدول الإسلامية.[1]

وقد ساعدت العادات والتقاليد السائدة آنذاك الناس والعلماء منهم على وجه الخصوص على القيام بمثل هذه الرحلات فالرجل الغريب لا يجد مانعا من اتخاذ المسجد معتكفا له ومأوى يرتاح فيه فيجد الباحث عن العلم حلق الذكر ومجالسة العلماء مكانا له، وكان علماء الحديث في زمان المسعودي يتطلب منهم البحث في متون وصحة الأحاديث من حيث الرواية الترحال إلى أهم الحواضر الإسلامية طلبا للحديث والعلم، لكن المسعودي دفعه تطلعه العلمي إلى تجاوز البلدان الإسلامية، والتجوال إلى ما وراء ذلك بحثا عن أخبار الأمم وجمعا لمعارفها[2]، وقصة المسعودي عندما عاب عن الجاحظ عندما كتب هذا الأخير عن الكركدن بالهند أنه يبقى في بطن أمه سبع سنوات وعندما تجوع يخرج رأسه ويأكل الحشائش، وبعد سبع سنين يبقر بطن أمه ويخرج، فيعجب المسعودي عن قوله هذا، وقال : ولما وصلت بلاد الهند سألت التجار عن هذا الحديث الغريب فقالوا ليس له أساس من الصحة، وردّ بذلك على الجاحظ قائلا أنه « لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا تقرّى الممالك والأمصار»[3] واقتصر على ما في كتب الورّاقين، أما المسعودي فكان يحمل قوة دافعة للاستقراء والاستكشاف دفعته إلى الرحلة والسفر خارج وطنه والوصول إلى بلدان بعيدة مثل الهند محل هذه الدراسة، لا يريد تجارة ولا امتطاء البحار بل عالما هدفه الرئيسي المعلومات والأخبار عن البلاد التي يزورها ودراسة حالتها من مصادرها الأصلية[4] فكان المسعودي في أسفاره كيِّسا مغامرا ومجازفا بل باحثا ومستكشفا

1 سليمان بن عبد الله السويكت: **منهج المسعودي**، نفس المرجع، ص. 53.

2 كارل بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة عبد الحليم النجار، ط.2، دار المعارف، القاهرة، 1969، ج.3، ص.56.

3 المسعودي: **مروج الذهب**، المصدر السابق، ج.1، ص.113.

4 Maqbul Ahmed : **Al Musudi on the King of India**(MMCV) ,P.97.

لأقطار العالم مشاهدة عيان، فجمع من الحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد.[1]

ورغم صعوبة المهمة وكثرة الأخطار الجسيمة لما يكتنف السفر والترحال في عصر المسعودي، إلا أن الأهداف كانت كبيرة والطموح كان عاليا عند هذه الشخصية الفذّة فاستصغر الصعاب واستسهلها لتحقيق أهدافه النبيلة فقضى أكثر من خمس وعشرين سنة من عمره طاف خلالها أجزاء كثيرة من العوالم ليضع بين أيدينا وصفا دقيقا لأحوال الأمم ونحلهم وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم[2] كما ستبينه هذه الدراسة مع بلاد الهند وثقافتها.

ب ــ اتجاه الرحلة:

بدأ المسعودي رحلاته حسب الدراسات التاريخية[3] بين 309 هــ ــ 311 هــ فغادر بغداد إلى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية[4] وكانت رحلاته الأولى لمنطقة خوزستان المجاورة لبلاد العراق فتجول فيها واطلع على بعض العجائب[5] وأخذ من علمائها[6] ثم انتقل إلى بلاد فارس فوصلها مع بداية عام 313 هــ وأخبرنا أنه كان في هذه

---

1 عفت محمد الشرقاوي: **أدب التاريخ عند العرب**، دار العودة، بيروت، د.ت، ص.284.

2 علي حسني الخربوطلي: **الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي**، بحث في مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 7، 1403 هــ، ص. 23.

3 كل الدراسات التي تناولت حياة المسعودي وسيرته لا تتفق عن معالم دقيقة لرحلاته من حيث الاتجاه وهذا يعود إلى كون المسعودي في كتابيه المروج والتنبيه لم يتحدث عن اتجاه رحلاته إلا عرضا وفي مناسبات متباينة ومقتضبا وبعبارات يشوبها في كثير من الأحيان الغموض، ممّا صعّب من مهمة رسم خط سير رحلات المسعودي، إلاّ إذا اعتمدنا على القراءات المتعددة وحاولنا الاستنباط من ذلك للوصول إلى الحقيقة أو القرب منها، ومن أهم هذه الدراسات دراسة علي حسني الخربوطلي " المسعودي"، عبد الفتاح محمد وهيبة " جغرافيا المسعودي بين النظرية والواقع"، كفيل أحمد القاسمي" الهند والهنود في نظر المسعودي"، مقبول أحمد " أبو الحسن علي المسعودي"...، لكنه في الغالب يكون قد سلك الطرق المعروفة والمُبيّنة في الخريطة رقم 05 المتضمنة شبكة طرق الرحالة في آسيا خلال العصر الوسيط. (انظر في الملاحق ص.247).

4 علي حسني الخربوطلي: **المسعودي**، المصدر السابق، ص.26.

5 انظر المسعودي: **مروج الذهب**، ج.2، ص.28.

6 المسعودي: **التنبيه**، ص. 106.

هذه الفترة بمدينة اصطخر[1] التي اشتهرت بخصائص عديدة وصفها المسعودي في جوانبها العمرانية والثقافية[2] ومن المحتمل أنه زار قصبة إقليم فارس وهي مدينة شيراز وهي بين جبل وبحر[3] والمعروفة حاليا بمدينة أبو شهر الإيرانية.

ثم انتقل إلى منطقة كرمان[4] ومنها تحول إلى منطقة سجستان المجاورة فتجول فيها وأخذ عن علمائها.[5]

ويبدو أن مكوثه في كرمان وسجستان لم يدم طويلا فسافر إلى السند، ثم الهند قاصدا مدينة المولتان للاطلاع على بيت الذهب وهو معبد مشهور يحج إليه الهنود من أقاصي البلاد[6] وذكر المسعودي أن ملك المولتان وقت دخوله إليها كان « أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشي السامي»[7] ومن هذه المدينة توجه جنوبا إلى مدينة المنصورة في عهد مليكها أبي المنذر عمر بن عبد الله القرشي، ورأى فيها وزيره رباحا، وابنيه محمدا وعليا وبعض العرب القاطنين فيها[8] وقد أبدع المسعودي في وصفه لمدينة المنصورة من جميع نواحيها[9] وفي أواخر سنة 313ه حدثنا المسعودي عن مشاهداته ومرئياته في مدينة كنباية الواقعة على الساحل الغربي لبلاد الهند واهتمام ملكها البرهمي بمناظرة من يدخل إليها من المسلمين وأصحاب الملل الأخرى مع عرضه لوصف المدينة جغرافيا[10] وفي طريقه إلى مدينة صيمور(Chaul) الهندية توقف في مدن سندان(Sandijan) وسوبارة

---

1 مدينة بأرض فارس ينسب إليها الرحالة والجغرافي الاصطخري صاحب " مسالك الممالك" وكتاب " الأقاليم" الذي أفاض في ذكر قراها وخواصها. انظر **مسالك الممالك**، طبعة دار صادر، بيروت، د.ت، ص. 123.

2 انظر المسعودي: **التنبيه**، ص.106، و**مروج الذهب**، ج.2، ص ص.399 ــ 400.

3 **التنبيه**، المصدر نفسه، ص.49، و**مروج الذهب**، المصدر نفسه، ج.2، ص.400.

4 **لتنبيه**، المصدر نفسه، ص.66.

5 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص. 282.

6 انظر عن هذا المعبد ابن النديم: **الفهرست**، ص.485، والمسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.199.

7 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص. 199.

8 المصدر نفسه، ج.1، ص.200.

9 المصدر نفسه، ج.1، ص ص. 200 ــ 201.

10 المصدر نفسه، ج.1، ص ص.135 ــ 136.

(Sopara) وتانه (Thana) ومع أوائل عام 314 هـ دخل صيمور الهندية على الساحل الغربي لبلاد الهند وكعادته دقّق في مداخل المدينة ومكوناتها الاجتماعية والسياسية وسنعود إلى هذه الملامح حول بلاد الهند في وقتها وفي جوانبها المتعددة، لأن ما يهمنا في هذا المقام هو سير الرحلة واتجاهها العام، وتعتبر هذه المدينة فيصلا هاما في دراسة المجتمع الهندي.[1]

وتابع المسعودي رحلته من الهند إلى جزيرة سرنديب (سيلان) فشاهد هناك مراسيم دفن الملوك، وعادات أهل تلك الجزيرة وأكد ذلك في قوله «ورأيت في بلاد سرنديب»[2] ويعتقد أنه واصل رحلته من سرنديب إلى مملكة الزابج وهي مملكة المهراج التي كانت تشمل جزيرتي سومطرة وجاوة.[3]

ويبدو أنه لم يمكث طويلا في المهراج ومر عليها سريعا عبر بحرها الذي وصفه وصفا مجملا له في كتاب المروج.[4]

أما بالنسبة للصين وإن كانت بعض المصادر ترجح أنه ركب البحر مصاحبا بعض التجار إلى بلاد الصين[5] إلا أن دراسات أخرى تشكك في رحلته إلى الصين انطلاقا انطلاقا من مصادره التي عوّد القارئ فيها على إثبات معلوماته بأدلة موثقة للبلاد التي يزورها مستشهدا بقوله: « شاهدت أو رأيت».[6]

1 من المواضيع الهامة التي طرحها المسعودي في هذه الرحلة وجود حوالي عشرة آلاف مسلم بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين في مدينة صيمور، والبياسرة هم الذين ولدوا من المسلمين بأرض الهند.انظر المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.248.

2 المصدر نفسه، ج.1، ص. 93.

3 محمد كرد علي: **كنوز الأجداد**، مقال في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الثاني والعشرين، الجزء التاسع والعشرين، دمشق، 1366 هـ، ص. 391.

4 المسعودي : **مروج الذهب**، ج.1، ص. 182.

5 علي حسن الخربوطلي: **المسعودي**، ص.26. انظر أيضا كفيل محمد أحمد القاسمي: **الهند والهنود في نظر المسعودي**، ص.16.

6 سليمان بن عبد الله السويكت: **منهج المسعودي في كتابة التاريخ**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط.1، 1986، ص.59.

ولو كان سافر إلى الصين لما أمكنه أن يصلها ثم يعود في السنة نفسها وهي سنة 314 هـ السنة التي يذكر فيها أنّه ركب البحر إلى عمان.[1]

وجاء في السنة نفسها أي إلى عمان ولم يوضح المسعودي هل عاد بعد ذلك إلى العراق أم من عمان توجه إلى زنجبار[2] التي يصفها المسعودي ويذكر لغتهم وديانتهم الإسلامية[3] ثم زار اليمن ولم يشر إلى الوقت الذي زار فيه جنوب الجزيرة العربية حيث وقف على عدة مدن مثل مأرب وحضرموت وصنعاء[4]ونظرا لوجوده قريبا من بلاد الحجاز توجه شمالا إلى مكة لأداء مناسك الحج وسمع من بعض علمائها كأبي بكر عبد الله بن محمد المعري[5] وزار المدينة المنورة وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر ابنته فاطمة، وترك نقشا على رخامة عند قبرها[6] ثم عاد من هذه الرحلة الأولى إلى العراق واستقر بها، وزار حينها مدنا عدة منها تكريت ونينوى، وكانت له عدة لقاءات مع علمائها ومناظرات[7] ثم توجه إلى الشام وتجول في بعض مدنها ثم انحدر منها عن طريق نهر الفرات يريد مدينة السلام وذلك سنة 315 هـ ولكن حروب القرامطة في العراق حالت دون وصوله إليها فتوقف في مدينة هيت التي وصلها القرامطة وحاصروها وهو مقيم[8] وليس بعيدا أن يكون قد التقى ببعض دعاة القرامطة وقادتهم.

أما رحلات المسعودي الثانية فكانت أواخر سنة 314هـ، وجاءت في ظروف سياسية مضطربة بالعراق بسبب شيوع الفوضى وظهور حركة القرامطة وانتشار السلب والنهب، عوامل لم تعد تشجع على البقاء في العراق، كان ذلك من العوامل التي جعلت

---

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.125. و**التنبيه**، ص.58.

2 المصدر نفسه، ج.1، ص.112.

3 المصدر نفسه، ج.1، ص.367، ج.1، ص.208.

4 انظر المسعودي: **التنبيه**، ص.300.

5 المصدر نفسه، ص.301.

6 المصدر نفسه، ص.155.

7 المصدر نفسه، ص.383.

8 المصدر نفسه، ص.384.

المسعودي في رحلته الثانية يتوجه ناحية الشمال الشرقي من المملكة الإسلامية فيحدثنا أنه كان بناحية الأهواز في حدود سنة 395 هــ، حيث كان يتابع حركة أسفار بن شيرويه[1] عن طريق التجار من بغداد إلى الأهواز من الغرباء من المناطق التي امتدت إليها تلك الحركة[2] ثم السفر في المسيرة شرقا حتى وصل إلى خراسان حيث قدّم لنا وصفا دقيقا للمناطق التي زارها[3]مثل مدينة نيسابور وتجول في قراها وأصقاعها فزار قرية زنج[4] وهفدرة وبلخ وهناك يذكر المسعودي أنه التقى بشيخ جميل ذي رأي وفهم، وأخبره أنه دخل الصين مرارا عبر البر المؤدي إليها وأنه لم يركب البحر.[5]

ومن خلال القراءات نجد المسعودي يُطل على بحر الخزر"قزوين" يركب سواحله متجها إلى طبرستان[6] ويزور عددا من مدنها ثم انتقل إلى المناطق الواقعة غرب بحر الخزر وهي مناطق أرمينية وأذربيجان، ويذكر المسعودي أنه ركب هناك بحيرة كبوذان (أورميا) بين مدينة أرمية والمراغة.

وقال المسعودي أنه لا يعيش في هذه البحيرة أي كائن حي[7] وتنقل المسعودي وسط أرمينية وأذربيجان وقد مكنته هذه الزيارات من جمع عدد رهيب من المعلومات عن الأمم التي عاشت في تلك المناطق، ومن المحتمل أن المسعودي بعد ذلك توجه غربا حيث أخبرنا أنه زار حران من المدن الواقعة جنوب تركيا حاليا على الحدود السورية، حيث يذكر أنه كان يبحث فيها عن الآثار وبعض الخطوط القديمة[8].

---

1 **بن شيرويه:** أحد قواد الديلم المغامرين، استولى على طبرستان والري وجرجان وقزوين وأبهر وقُم وهدان، وكثرت جيوشه، وكان لا يدين بالإسلام. انظر عنه المسعودي: **مروج الذهب**، ج.5، ص.261. وابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج.6، ص.189.

2 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.5، ص.264.

3 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص.49.

4 انظر المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.10، وياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.3، ص.153.

5 المسعودي: المصدر السابق، ج.1، ص.186.

6 المصدر نفسه، ج.1، ص.147. انظر الخريطة رقم 05 في الملاحق، ص.246.

7 المصدر نفسه، ج.1، ص.56.

8 المصدر نفسه، ج.2، ص.393.

وبعد هذه الرحلات الواسعة، لم نجد له أثرا إلى غاية سنة 324 هـ، وهو في فلسطين يراجع كتابا عن الأمويين[1]ويبدو أنه وفدها من سوريا أو بقي يتنقل بين المنطقتين، حيث شاهد البحر الميت فتحدث عنه ووصفه بخصائصه ومميزاته[2].

وفي سنة 330 هـ نجده في مصر يصف ليلة الغطاس وما يظهره المصريون مسلمون ونصارى في هذه الليلة من الفرح والمآكل والمشارب... [3] وهي ليلة يحتفل بها النصارى، ويبدو أن المسعودي في هذه المرحلة كان يتنقل بين مصر وبلاد الشام فهو في أنطاكيا عام 332 هـ[4] وعاد في نفس السنة إلى الفسطاط ليشرع في تأليف مروج الذهب ومعادن الجوهر[5] ثم انتقل إلى دمشق عام 334 هـ وعاد في سنة 336 هـ إلى مصر لينقح كتابه المروج ويهذبه ويزيد فيه[6] والظاهر أنه استقر في مصر وكانت له عدة جولات في مدنها وفي صعيدها والتقى بعلمائها.[7]

هذا وقد لاقى المسعودي ربه وهو في مدينة الفسطاط ودفن في المقبرة الكبرى في جمادى الآخرة سنة 345 هـ أو في سنة 346 هـ[8]، ويشير الدكتور الخربوطلي إلى سبب اختياره لمصر بعد كل هذه الرحلات لتكون موطنا له في آخر حياته فيرجع ذلك إلى عامل الاضطراب في بغداد وسوء الأحوال الأمنية، والعامل الثاني هو استقرار مصر في هذه المرحلة ونهضتها العلمية في فترة الأخاشدة.[9]

---

1 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص.336.

2 المصدر نفسه، ص. 74.

3 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.2، ص.80.

4 المصدر نفسه، ج.1، ص.114، ج.2، ص.26 ـ ص.34.

5 المصدر نفسه، ج.2، ص.126.

6 المصدر نفسه، ج.5، ص.273، ج.2، ص.147.

7 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص.401.

8 انظر الذهبي: **دول الإسلام**، تحقيق. فهم محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1974، ج.1، ص.213. وياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج.13، ص.91.

9 الخربوطلي: **المسعودي**، ص.27.

جـ ـ مصادر معلوماته:

لا شك أن المسعودي حدّد أهداف رحلاته عندما قال: «وكان ما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ وأخبار العالم وما مضى في أكناف الزّمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها محبّة احتذاء الشّاكلة التي قصدها العلماء وقفاها الحكماء، وأن يبقى للعالم ذكرا محمودا».[1]

فكانت هذه العبارة دالة على غاية المسعودي في مناشدته لأخبار العالم ومعرفة التاريخ، فقد مكنته تلك الرحلات من إجادة البحث والاستقصاء وجمع المعلومات من مظانها ومن مصادرها الأصلية[2] فحصر المسعودي مصادر أخباره في المشاهدة والمعاينة فضلا عن عن مصادر أخرى حيث قال: «على أن نعتذر من تقصير إن كان، ونتفضل من إغفال إن عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار، وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة».[3]

لكن الباحث في مسيرة رحلاته لا يجده يقتصر في مصادره على المعاينة فقط إنما يعتمد على مصادر أخرى أيضا، ومنها النقل عن الروايات الشعبية، ومن مصنفات المؤلّفين السابقين، ومن الشواهد على نقله من الروايات الشعبية حديثه عن رجل رحل إلى الصّين حيث قال: « وحُكي أن رجلا من التّجار من أهل مدينة سمرقند من بلاد خُرسان، خرج من بلاده ومعه متاع كثير، ثم ركب هذا التاجر من مدينة كله[4] في مراكب الصينيين الصينيين إلى مدينة خانفو»[5] ومثل هذا النوع كثير في منقولاته السماعية.[1]

---

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.20.

2 على أدبهم: **بعض مؤرخي الإسلام**، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص.55.

3 المسعودي: المصدر السابق، ج.1، ص.18.

4 **كله:** موجودة بالهند وهي منتصف الطريق بين عمان والصين. انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.4، ص.478.

5 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص ص.158 ــ 159.

أما نقله من المصنفات فهي كثيرة من أن تحصى في هذه الدراسة، ومن الشواهد على ذلك نقله عن كتاب البلخي والنوبختي حيث قال: " وقد رأيت أبا القاسم البلخي ذكر في كتابه "عيون المسائل والجوابات" وكذلك الحسن بن موسى النوبختي في كتابه المترجم بكتاب "الآراء والديانات" مذاهب الهند وأرائهم والعلة التي من أجلها أحرقوا أنفسهم في النيران [2] وكما أسلفنا هي عديدة تلك الشواهد عن الكتّاب والأدباء والعلماء والحكماء[3] وكل ذلك من أجل تقديم صورة حقيقية لأحداث ذلك الزمان، فقدّم العذر على ما بذله من الجهد معتقدا تقصيره فيقول: «على أن نعتذر عن سهوان عرض في تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية وسهوة البشرية، ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأسفار طورا مشرقين وطورا مغربين».[4]

د ــ منهجه وآثاره:

لم يتبع المسعودي سنة من سبقه من المؤرخين، بل وضع منهجا جديدا وطور الدراسات التاريخية[5] ولقد اعتبره ابن خلدون إماما في التاريخ يرجع إليه الباحثون في تحقيق أبحاثهم ويقتدي به الكثير من المؤرخين[6] وقد حاد المسعودي عن طريقة الطبري الذي كان يؤرخ بالسنين إلى التاريخ بالمواضيع، وقد أبرز المؤرخ ابن الأثير عيوب الطريقة الأولى فقال: " ورأيتهم ــ أي من سبقه من المؤرخين ــ أيضا يذكرون الحادثة في سنين، ويذكرون عنها في كل شهر أشياء، فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض، ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر، فجمعت أن الحادثة في موضوع واحد، وذكرت

1 المصدر نفسه، ج.1، ص.214، ص.230، ص.366، ج.2، ص.177، ص.134 ــ 141، ج.3، ص.21.

2 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.94.

3 المصدر نفسه، ج.1، ص.65، ص.98، ص.431، ج.2، ص.36، ص.193، ص.380، ج.3، ص.15، ص.31، ج.4، ص.67، ص.83، ص.109.

4 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، المصدر السابق، ص.236.

5 الخربوطلي: **المسعودي**، المصدر السابق، ص.29.

6 عبد الرحمن بن خلدون: **المقدمة**، المصدر السابق، ص.14.

كل شيء منها في أي شيء أو سنة كانت، فأتت متناسقة متتابعة، قد أخذ بعضها برقاب بعض ..." وهو نفس المنهج الذي سار عليه المسعودي من قبل ومن الذين عاصروا الطبري المؤرخ اليعقوبي فقد ابتعد عن التأريخ بالسنين وقسم تاريخه تقسيما موضوعيا وجعل الشخصيات التاريخية أحيانا محورا لدراسته، وهذا على شاكلته أبو حنيفة الدينوري في كتابه الأخبار الطوال، واتبع المسعودي طريقة اليعقوبي لكنه طورها وأضاف إليه تجاربه وخبراته الكثيرة ومزج الدراسات التاريخية بالجغرافية، واهتم بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية ومعالم الحضارات المختلفة وأصبحت هذه المحاور محل اهتمامه في كل الدراسات[1].

وقد عالج المسعودي تاريخ الشعوب في تلك العصور ببصيرة نيّرة كما أشار إلى ذلك الدكتور نقولا زيادة[2] ويعتقد أحد النقاد أن المسعودي أكثر دقة وعمقا من الرحّالين والجغرافيين كالمقدسي والبيروني[3].

ويبدو هذا الرأي موافقا إذا قلنا بأفضلية المسعودي عن المقدسي في مجال الدقة والعمق إلا أنه لا يصل إلى دقة البيروني ومنهجه العلمي الذي لم تتسرب إليه حكايات أو أساطير[4].

والمتأمل في أسلوب المسعودي يلاحظ تلك العفوية دون تكلف مع مراعاة اختيار الألفاظ السهلة مقارنة مع أقرانه مثل المقدسي أو البيروني عكس ما ذهب إليه المستشرق الروسي " كراتشكوفسكي" الذي شبه أسلوبه إلى أسلوب الصحافة الحديثة[5] وهذا رأي فيه إجحاف عن الواقع، لأن المسعودي أسلوبه موضوعي غير مكلف ينساب إلى العفوية كما

---

1 الخربوطلي: **المسعودي**، المصدر السابق، ص.30.

2 نقولا زيادة: **الرحالة العرب**، المصدر السابق، ص.47.

3 الخربوطلي، المصدر السابق، ص.31.

4 انظر كتاب **ثقافة الهند من خلال رحلة البيروني**، ص.113.

5 كراتشكوفسكي أغناطيوس: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، المصدر السابق، ج.1، ص.177.

قلنا، لكن هذا لا يعني أن المسعودي كان منهاجه في التنسيق الكمي للمعلومات متوازنا حيث نلاحظ اضطراب في هذا النسق، ويبدو أن ذلك راجع إلى الكم الكبير من المعلومات التي جمعها في رحلاته عن تلك البلدان والشعوب في مجالات متعددة .

أما عن آثاره فقد شملت تاريخ مملكة العرب المسلمين وغيرها من الممالك الأخرى الإفرنجية والمجوسية ويتضح ذلك في حديثه عن تاريخ بني أمية في الأندلس[1] وغارات النورمان في تلك البلاد وقد أشار اليعقوبي إليها في كتاب البلدان[2].

كما انفرد المسعودي بجمعه لأخبار الملوك والحكام وهو مغرم بتتبع أخبارهم وسيرهم وطرائفهم[3] وتطرق المسعودي إلى موضوعات أخرى شملتها مصنفاته في مجالات مختلفة كالجغرافية منتهجا وصف البلدان حسب الأقاليم كطريقة المقدسي.

وقد كتب المسعودي عشرات الكتب ضاع معظمها[4] ويمكن تصنيف تراثه إلى مصنفات ثلاثة: مطبوع، ومخطوط، ومفقود.

مصنفات المسعودي:

01 ـــ المطبوع:

وهي الكتب التي عثر عليها وتمت طباعتها ولا يوجد منها سوى كتابان: مروج الذهب والتنبيه والإشراف، وهما الكتابان الأساسيان في هذه الدراسة بالإضافة إلى كتابين آخرين مطبوعين ومنسوبين للمسعودي وهما كتابا: "أخبار الزمان ومن أباده الحدثان

1 المسعودي: **مروج الذهب**، المصدر السابق، ج.1، ص.184.

2 أحمد اليعقوبي: **كتاب البلدان**، المصدر السابق، ص.354.

3 لا يمكن الإلمام بجميع هذه الأخبار في مجالاتها المتعددة باستثناء ما ورد عن بلاد الهند من الأخبار، وحول هذه الأخبار التي تخص الحكام والملوك. انظر. **مروج الذهب**، ج.3، ص.346، ج.4، ص.221. ينظر هذه الدراسة صفحات حكام بني عباس، ص

4 انظر كتابنا حول **ثقافة الهند**، ص.52.

وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران" و"إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه".

أ ــ **كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"**: ويعتبر هذا الكتاب الذي تعتمد عليه دراستنا من الكتب التاريخية المهمة التي كان لها بالغ الأهمية والحضور في مختلف الأوساط، وكان له الانتشار الواسع بين الناس وتبادلته الأيدي ومختلف النساخ حتى أن المسعودي حينما رأى ذلك الانتشار أخذ يزيد في الكتاب ويتعاهده بالرعاية والتنقيح حتى قبيل وفاته[1] وذكر المسعودي حول تسمية هذا فقال :« وقد وسمت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى عليه من طوالع بوارع ما ضمنته كتبنا السالفة في معناه وغرر مؤلفاتنا في مغزاه».[2]

وجاء تأليف كتاب مروج الذهب بعد تأليف كتابه الأعظم وهو أخبار الزمان في التاريخ ثم تلاه بالكتاب الأوسط في معناه[3]، ويبدو أن إشارات المسعودي في كتاب المروج والتنبيه إلى تلك الكتب السابقة تدل على إدراكه بأن يد الضياع قد تعصف بتلك المصادر الغنية فبادر بالإشارة إليها من بعد حتى يترك لنا علامات ودلائل تلك الزواخر وقد حدد المسعودي غايته من تأليف المروج في قوله: «وجعلته تحفة للأشراف من أهل الملوك وأهل الدرايات لما قد ضمنته من جمل ما تدفع الحاجة إليه وتنازع النفوس إلى عمله من دراية ما سلف وعبر من الزمان... »[4].

وقد تنوع الكتاب في موضوعاته مراعيا أذواق الناس ومطالبهم المختلفة، وقد أورد المسعودي سبب ذلك التنوع بقوله: « خوفا من أن يلحق الإنسان الملل بقراءة ما لا

---

1 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، المصدر السابق، ص.155.

2 المسعودي: **مروج الذهب**، المصدر السابق، ج.1، ص.18.

3 المصدر نفسه، ج.1، ص.10.

4 المصدر نفسه، ج.1، ص.18.

تهواه نفسه فينتقل إلى غيره»[1] والكتاب يحتوي على مائة واثنين وثلاثين بابا ذكرها المسعودي[2] وقد سبق ذكرها في دراسة المصادر في مقدمة هذه الدراسة[3] أما بخصوص تاريخ تأليف هذا الكتاب اختلفت الدراسات حول تاريخ كتابته[4] والراجح أن المسعودي سرع في تصنيف الكتاب سنة 332 هـ في خلافة المتقي لله (329 ـ 333 هـ) حيث ورد ذكر هذا الخليفة في هذا الكتاب مرات كثيرة نظرا لأن المسعودي كان مقدرا أن ينهيه في عهده[5] وقد راجع المسعودي الكتاب مراجعات كثيرة خاصة الجزء الثاني، وأضاف إليه إضافات استمرت إلى غاية 345هـ.

ب ـ كتاب "التنبيه والإشراف": هو الكتاب الثاني المطبوع من كتب المسعودي، جمع فيه ألوانا متعددة متنوعة من الثقافات والعلوم[6] له أهمية خاصة إذ أن المسعودي أودعه أرائه النهائية في جميع الموضوعات التي عالجها كما أودعه أفكاره الناضجة.

بعد رحلة حياته المليئة بالتجارب والدروس والمفاجآت فقد لخص المسعودي محتويات الكتاب حينما قال أردنا أن :«نودعه لمعا من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها وكيفية أفعالها، والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة وما لكل فصل من المنازل، والتنازع في المبتدأ به منها والاستقصاء وغير ذلك، والرياح ومهابها وأفعالها وتأثيراتها، والأرض وشكلها وما قيل في مقدار مساحتها وعامرها والنواحي والآفاق وما يغلب عليها، وتأثيراتها في سكانها وما اتصل بذلك، وذكر الأقاليم السبعة وقسمتها وحدودها وما قيل في طولها وعرضها، وقسمة الأقاليم على الكواكب

---

1 المصدر نفسه، ج.2، ص.378.

2 المصدر نفسه، ج.1، ص.20.

3 انظر ص.ح.

4 يمكن الرجوع إلى دراسة حواد علي: موار تاريخ المسعودي، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الثالث، بغداد، 1399هـ، ص.10، وهناك دراسة قام بها سليمان بن عبد الله السويكت في كتابه **منهج المسعودي في كتابه التاريخ**، جامعة الرياض، 1407 هـ ـ 1986م، ص.92 ـ 93.

5 انظر المسعودي: **مروج الذهب**، ج.2، ص.63، ص.416، ج.4، ص.72، ص.74، ص.28، ج.5، ص.176.

6 الخربوطلي: **المسعودي**، المصدر السابق، ص.38.

السبعة، الخمسة والنيرين، ووصف الإقليم الرابع وتفضيله على سائر الأقاليم، وما خص به ساكنوه من الفضائل التي باينوا بها سكان غيره منها، وما اتصل بذلك من الكلام في عروض البلدان وأطوالها، والأهوية وتأثيراتها وغير ذلك، وذكر البحار وأعدادها، وما قيل في أطوالها وأعراضها واتصالها وانفصالها، ومصبات عظام الأنهار إليها، وما يحيط بها من الممالك، وغير ذلك من أحوالها، وذكر الأمم السبع في سالف الزمان ولغاتهم وآرائهم ومواضع مساكنهم وما بانت به كل أمة من غيرها وما اتصل بذلك، ثم نتبع ذلك بتسمية ملوك الفرس الأولى والطوائف والساسانية على اختلاف طبقاتهم وأعدادهم ومقدار ما ملكوا من السنين، وملوك اليونانيين وأعدادهم ومقدار ملكهم، وملوك الروم على طبقاتهم من الحنفاء، وهم الصائبون والمنتصرة وعدتهم وجملة ما ملكوا من السنين، وما كان من الكوائن والأحداث العظام الديانية والملوكية في أيامهم، وصفة بنودهم وحدودها ومقاديرها وما يتصل منها بالخليج وبحري الروم والخزر ... وذكر الأفدية بين المسلمين والروم إلى هذا الوقت[1] وتواريخ الأمم، وجامع تاريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحصر ذلك وما اتصل به، ومعرفة سني الأمم الشمسية والقمرية وشهورها وكبسها ونسيئها وغير ذلك من أحوالها...

ما يلاحظ أن الكتاب يحتوي على ثلاثة أقسام: القسم الأول مخصص للمادة الجغرافية وتشمل موضوعات من الجغرافيا الفلكية والطبيعية والوصفية[2]، والقسم الثاني مخصص للفرس والروم، والقسم الثالث مخصص للتاريخ الإسلامي[3]، وقد فرغ المسعودي من تأليف هذا الكتاب بفسطاط مصر سنة 345 هـ في خلافة المطيع[4] .

1 إن ما كتبه المسعودي عن الأفدية بين المسلمين والروم لهو من أفضل ما كتب عنها ، انظر المسعودي، **التنبيه والإشراف**، المصدر السابق، ص. 189 – 192.

2 كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، المصدر السابق، ج.1، ص.182.

3 ناصيف نصار: **مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ**، بيروت، دار الطليعة، 1978، ص.66.

4 المسعودي، المصدر السابق، ص. 401.

جـ ـ كتاب "أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران": (منسوب) هذا الكتاب طبعه الأستاذ عبد الله الصاوي في القاهرة ونسبه إلى المسعودي سنة 1357 هـ ـ 1938 م وهو ينقسم إلى قسمين غير متساويين، الأول يبحث في خلق العالم وعجائب الأمم القديمة، والثاني وهو الأكبر يعالج فيه التاريخ الأسطوري القديم لمصر دون الرجوع إلى المصادر اليونانية أو الروايات الهيروغليفية[1] والحقيقة أن هذا الكتاب يختلف عن كتاب المسعودي المعروف الذي أفاض في الحديث عنه في كتابيه المطبوعين السابقين وهو كتاب " أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة" وهو من الكتب المفقودة ضمن كتب المسعودي[2].

د ـ كتاب "إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب": وهو كتاب نسب إلى المسعودي وهو يبتدئ بهذه العبارة: « الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، روى عن عالم أهل البيت

---

1 كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، المصدر السابق، ج.1، ص.183.

2 لقد شكك في صحة انتساب الكتاب المطبوع " أخبار الزمان " كل من الدكتور جواد علي: انظر. **موارد المسعودي**، ص ص.7 ـ 9 والأستاذ هادي حسين حمود في كتابه **منهج المسعودي**، ص.64، والمستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه **تاريخ الأدب الجغرافي**، ج.1، ص ص. 185 ـ 186، والدكتور سليمان بن عبد الله السويكت في كتابه: **منهج المسعودي في كتابه التاريخ**، حيث أضاف هذا الأخير خمسة أدلة زيادة على ما كتبه السابقون تؤكد عدم صحة هذا الانتساب للمسعودي وهي: ورد في الكتاب المطبوع في حديثه عن الأنهار الأربعة (سيحان وجيحان والنيل والفرات) أنها تخرج من أصل واحد ثم قال: «وممن جاء بهذا وذكره أبو صالح كاتب الليث وغيره من المحدثين، ذكروا أن رجلا من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم يقال له حايد وصل إلى القبة، وله خبر يطول ذكره، هذا الخبر الذي قال المسعودي إنه يطول ذكره أثبته هنا» فالظاهر أن المسعودي هو أحد مصادر الكتاب وليس مؤلفه، كما ورد طغيان المادة الخرافية على محتويات الكتاب، وولع مؤلفه بإيراد القصص والحكايات الغريبة لا تمت إلى سمت العلماء ووقارهم الذي يتحلى به المسعودي بصلة.

وورد أن ترتيب الأبواب في هذا الكتاب يختلف كثيرا عن ما درج عليه المسعودي في ترتيبه التاريخي لأبوابه في مروج الذهب والتنبيه والإشراف، والمادة التاريخية المشتملة عليها هذه الأبواب تختلف كثيرا عن ما هو موجود في كتب المسعودي من حيث الشكل والمضمون.

ـ كثرة الأخطاء النحوية وتكرارها، مما يدل على جهل مؤلفه بقواعد اللغة العربية، ولاسيما في مسألة تذكير وتأنيث الأعداد.

ـ ركاكة أسلوب مؤلفه واستخدامه ألفاظا لم ترد مطلقا على لسان المسعودي في كتابيه المطبوعين.

انظر. المسعودي: **الإشراف والتنبيه**، المصدر السابق، ص.243.

عليهم السلام...» [1] وينتهي بقوله «وللصاحب ــ عليه السلام ــ من ولد إلى هذا الوقت وهو شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ست وسبعون سنة وأحد عشر شهرا ونصف شهر، قام مع أبيه أبي محمد...».[2]

وكما سبق فكلا من الدكتور جواد علي في رسالته عن موارد المسعودي[3] ورسالة المسعودي للأستاذ حمود[4] ورسالة منهج المسعودي للدكتور سليمان بن عبد الله[5] تشكك في مسألة نسبة هذا الكتاب إلى المسعودي.

ويبدو أن للشيعة نشاط مميز في هذا الكتاب لما فيه من الألفاظ المستخدمة بوضوح وكثرة لا نجدها في مصنفاته المطبوعة الأخرى مثل المروج والتنبيه، والراجح أن هذا الانتساب هو الذي جعل كثير من المؤلفين يعتبرون المسعودي متأثرا بالمذهب الشيعي لكن هذا لم نلتمسه في مؤلفاته.

02 ــ الكتب المخطوطة:

أ ــ كتاب "أخبار الزمان وعجايب البلدان" للمسعودي النسخة الأصلية في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 1471 وعدد أوراقها 132 ورقة وعند قراءتها تبين أنها أصل لكتاب أخبار الزمان المطبوع والمنسوب للمسعودي.[6]

ب ــ كتاب "أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجائب البلدان والخراب والعمران" للعلامة المسعودي: هذا المخطوط محفوظ في مكتبة فيينا الأهلية تحت رقم 666 وعدد أوراقه

---

1 **إثبات الوصية**، النجف، المطبعة الحيدرية، سنة 1955، ص.1، نقلا من كتاب منهج المسعودي في كتابة التاريخ: سليمان بن عبد الله السكويت، ص.108.

2 المصدر نفسه، ص.226.

3 جواد علي: **موارد المسعودي**، المصدر السابق، ص.15.

4 هادي حسين حمود: **منهج المسعودي**، المصدر السابق، ص.65.

5 سليمان بن عبد الله السويكت، **منهج المسعودي في كتابه التاريخ**، المصدر السابق، ص.108.

6 المصدر نفسه، ص.111.

181 ورقة من الحجم الصغير وقد اطلع على هذا المخطوط العديد من المستشرقين والباحثين العرب ممن كتبوا عن المسعودي، وتبين أن هذا الكتاب هو نفسه "أخبار الزمان" المطبوع في مصر[1].

جـ ــ كتاب "تاريخ أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجايب البلدان والغامر بالماء والعمران" للعلامة المسعودي: وهو مخطوط محفوظ في مكتبة برلين تحت رقم 9426، وهو صورة طبق الأصل عن نسخة فيينا.[2]

وهناك مخطوطات أخرى ليس المجال متاحا لذكر تفاصيلها[3] وهي منسوبة إلى المسعودي.

03 ــ الكتب المفقودة:

للمسعودي كتب أخرى كثيرة لم تصلنا وقد أشار إليها المسعودي في مواضع مختلفة من كتابيه "التنبيه والإشراف" و "مروج الذهب" وهي:

أ ــ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة. [4]

ب ــ الكتاب الأوسط[5]: جاءت الإشارة إلى هذا الكتاب في المروج مرات كثيرة جدا تزيد على 120 مرة.[6]

1 بروكلمان: تاريخ الأدب العربي،المصدر السابق، ج.3، ص.57. وانظر نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، المصدر السابق، ص.152.

2 اطلعت عليها في آخر رحلاتي في هذه الدراسة.

3 كتاب مختصر العجائب والغرائب، كتاب تاريخ مروج الذهب ومعادن الجوهر، وكتاب مختصر عجائب الدنيا للمسعودي، وكتاب أخبار الملوك للمسعودي. انظر دراسة سليمان عبد الله السويكت، ص.118 ــ 119.

4 أشار إليه المسعودي في **مروج الذهب**، ج.1، ص.241، ج.2، ص.134، ج.5، ص.57، ص.229، ص.272.

5 المصدر نفسه، ج.1، ص.10، ج.5، ص.204.

6 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، المصدر السابق، ص.2.

جـ ــ فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف: يحتل المرتبة الرابعة في السلسلة التاريخية التي ألّفها المسعودي تباعا جاء ذكره في التنبيه.[1]

د ــ ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور: هو الكتاب الخامس في المجمولة التاريخية للمسعودي أشار إليها المسعودي في التنبيه.[2]

هـ ــ الاستنكار لما جرى في سالف الأعصار[3]: ألّفه المسعودي قبل التنبيه مباشرة.

و ــ نظم الجواهر في تدبير الممالك والعساكر: هو كتاب جاءت الإشارة إليه مرة واحدة ولم يُعدّه المسعودي من كتب السلسلة التاريخية[4].

ز ــ الأخبار المسعوديات: قال المسعودي هي أخبار نسبت إلينا[5].

حـ ــ وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار[6].

ط ــ تقلب الدول وتغير الآراء والملل[7].

ك ــ راحة الأرواح[8].

ل ــ كتاب المبتدأ[9].

وقد تحدث المسعودي في كتابيه التنبيه ومروج الذهب عن بعض كتبه الأخرى التي تتناول مواضيع مختلفة ومتنوعة فقال: « وذكرنا في كتاب "نظم الإعلام في أصول الأحكام" وكتاب "نظم الأدلة في أصول الملة" وكتاب "المسائل والعلل في المذاهب والملل"»[10] وكتب أخرى في مواضيع متنوعة لم تصلنا وكان مصيرها الضياع.

---

1 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص.2.

2 المصدر نفسه، ص.2.

3 المصدر نفسه، ص.2.

4 المصدر نفسه، ص.2.

5 أي أن الناس هم الذين أطلقوا اسم أخبار المسعوديات على ما جاء في الكتاب.

6 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.5، 273 ــ 274.

7 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص.334.

8 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.2، ص.94.

9 المصدر السابق، ج .1، ص.57.

10 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص ص. 1ــ 3.

المبحث الثالث: قيمة الرحلة في تاريخ الهند

لقد اعتبر ابن خلدون المسعودي إماما في التاريخ، يرجع إليه الباحثون في تحقيق أبحاثهم ويقتدي به الكثير من المؤرخين[1] كان المسعودي رجلا يفتخر برحلاته في الشرق والغرب، وربما غالى فيها فقارن نفسه بالخضر وينشد أشعارا عن أبي تمام

خليفة الخضر من يربع على وطن   في بلدة فظهور العيس أوطاني

بالشام أهلي وبغداد الهوى وإنــا   بالرقتين وبالفسطــاط إخواني[2]

فقد حظي التاريخ الهندي باهتمام ونقص ملحوظ من قبل المسعودي ولا شك أن ذلك يرجع إلى عدة أسباب يأتي في مقدمتها تلك الرحلة التي قادته إلى عديد المدن والممالك الهندية بين سنتي (303 ــ 304 هــ) حيث وقف عن كثب على أحوال الأمم التي كانت تعيش في تلك الأصقاع، واطلع على مصادر ومعلومات جديدة استفاد منها في كتاباته لتاريخ الهند، وقد حفل الباب السابع[3] وجزءً من الباب السادس عشر[4] بتاريخ الهند، الهند، ولا شك أن المسعودي كان من أوائل الرواد من الرحالة المسلمين الذين عرّفوا العالم الناطق بالعربية بالهند وذلك من خلال مؤلفاته في وقت لم يكن فيه الهند معروفا جيدا، بل كان عند الكثير من الناس أرض الغرائب والأسرار[5] وقال المسعودي: إن الهند بيت الصلاح والحكمة والعلم والفضيلة، وأنها كانت فيهم من قديم الزمان[6].

---

1 عبد الرحمن بن خلدون: **المقدمة**، ص.14.

2 مقبول أحمد: **أبو الحسن علي المسعودي**، مجلة ثقافة الهند، مجلد 18، العدد2، أفريل 1967، ص. 30.

3 الباب السابع المعنون بــ: ذكر جمل من أخبار الهند وآرائها وبدأ ممالكها، المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص.84، ص.98.

4 وتحدث فيه المسعودي عن البحار وما حولها من الأمم والممالك مع تاريخ الهند وما حولها في الجزء الأول، ص. 197، ص.206.

5 مقبول أحمد: المرجع السابق، ص.30.

6 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.84، ص.87، ص.89.

أ ــ الأحوال الاجتماعية والاقتصادية من خلال الرحلة لبلاد الهند:

ما يلاحظ عند الناظر في تاريخ المسعودي للهند أنه ركّز في دراسته للمجتمع الهندي على تقصي مختلف شؤون الحياة هناك ولم يهمل جانبا على حساب الاهتمام بجانب آخر، فالحياة الاجتماعية في الهند مرتبطة بطبيعة النظام السياسي الذي وصفه المسعودي بأنه:«مقصور في أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا يتغير ولا يتبدل[1] وأن الهند لا تملك الملك عليها حتى يبلغ من العمر أربعين سنة ولا تكاد تظهر الملوك لعامة الناس إلا في أوقات محددة قصيرة للنظر في أمور الرعية، وذلك لأن نظر العوام دائما إلى الملوك فيه إسقاط من هيبتهم واستخفاف بحقهم»[2].

وعندما كانت الأحوال الاجتماعية متعلقة بما كان سائدا في الهند من تعدد للديانات والاتجاهات الروحية المختلفة، وهي تربة خصبة لنمو الأفكار الدينية والمذاهب والنِّحل وكثرة المعابد لأهل الأديان المختلفة فيقول المسعودي «ومن معابدهم البيت الثالث يدعى سندوساب ببلاد الهند وهذا البيت تعظمه الهند، وله قرابين تقرب إليه، وفيه أحجار المغناطيس الجاذبة والدافعة من أوصاف لا يسعنا الإخبار عنها فمن أراد أن يبحث عن ذكرها فليبحث فإنه بيت مشهور ببلاد الهند»[3]ويذكر في كتاب آخر وبأعالي الهند ومشارفها البيت المعروف ببيت الذهب... وهو البيت الذي دخل الإسكندر بن فيلبس الملك[4] ويذكر المسعودي عن أهل الهند ويقول أن «الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي التي فيها الصلاح والحكمة وإنه لما تجيلت الأجيال حاولت الهند أن تضم المملكة وتستولي على الحوزة وتكون الرياسة فيها... ونصّبت لها ملكا وهو البرهمن الأكبر الملك الأعظم

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.93.

2 المصدر نفسه، ج.1، ص ص.92ــ 93.

3 المصدر نفسه، ج.2، ص.136.

4 هذا البيت الذي سيأتي الحديث عنه في فصل البيروني وهو البيت الموجود في مدينة الملتان، والذي كانت تحج إليه جموع الهند، وكان قد أغنى خزينة المسلمين في عهد محمود الغزنوي عندما دخلها أواخر القرن الرابع الهجري.

والإمام فيها المقدم، ظهرت في أيامه الحكمة وتقدمت العلماء واستخرجوا الحديد من المعادن وضربت في أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع المقاتل وشيدت الهياكل ورصعها بالجواهر المشرفة ... فكان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلاث مائة سنة وستين سنة وولده يعرفون بالبراهمة إلى وقتنا هذا، والهند تعظمهم وهم على أجناسهم وأشرفهم لا يتغذون بشيء من الحيوان، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر متقلدين بها حمائل السيوف فوزا بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند، ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعا شديدا وفزعت إلى نصب ملك عليها من أكبر ولده وكان ولي عهد أبيه والموصى إليه من ولده وهو الباهود ... قدم الحكماء وزاد في مراتبهم وحثهم على تعليم الحكمة وبعثهم على طلبها ... وفي أيامه عملت النرد وأحدث اللعب بها وجعل ذلك مثلا للمكاسب، ثم ملك زامان بعد الباهود فكان ملكه نحوا من خمسين ومائة سنة ولزامان سير وأخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين ... ثم ملك بعده فور هو الذي واقعه الاسكندر فقتله ... ثم ملك بعده دبشيلم وهو الواضع لكتاب كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع ... ثم ملك بعده بلهيت وضعت في أيامه الشطرنج ... ثم ملك كورش فأحدث للهند آراء في الديانات على حساب ما رأى من صلاح الوقت وخرج من مذهب من سلف وكان في مملكته وعصره سندباد ... فلما هلك اختلفت الهند في آرائها فتخربت الأحزاب وتجيلت الأجيال وانفرد كل رئيس بناحيته فتملك على أرض قنوج ملك وعلى أرض القشمير ملك تملك على مدينة المانكير (مهانكر) ملك، وأرض الهند واسعة في البر والبحر والجبال وملكهم متصل بملك الزانج (جاوا) ... والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وصحة أمزجتهم وصفاء ألوانهم بخلاف سائر السودان من الزنوج والدمادم وسائر الأجناس»[1].

---

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص. 154، ص.163.

والهند تمنع من شرب الخمر وتصيب شاربه لا على طريقة التدين لكن تنزها عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها ويزيلها وربما يسمعون السماع والملاهي ولهم ضروب من الآلات المطربة تفعل في الناس أفعالا مرتبة من ضحك وبكاء ... وأعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهري صاحب مدينة المانكير وأكثر ملوك الهند تتوجه في صلاتها نحوه وتصلى لرسله ... ورأيت ببلاد كنباية أرض الهند وهي المدينة التي يضاف إليها النعال الكنبايتية الصرارة وفيها تعمل ... والملك يومئذ بانيا وكان برهمانيا من قبل صاحب المانكير.[1]

وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفوس وأنواع من الآلام والمقاتل تألم عن ذكرها الأبدان وقد أورد المؤلف على كثير من الأخبار في كتابه أخبار الزمان، ولكن من الأسف أن الكتاب ليس بموجود بين أيدينا، ولكنه يقول في مروج الذهب إشارة إلى هذا «إن الهند تعذب أنفسها على ما وصفنا بأنواع الآلام، وقد تيقنت إن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلا هو ما أسلفنه وعذبت به أنفسها في هذه الدار معجلا ... ومنهم من يصير إلى باب الملك فيستأذن في إحراقه لنفسه ثم يدور في الأسواق ... » [2].

«ويحرقون موتاهم ودوابهم والآلة والحلية وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي في الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل... إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى ذلك»[3].

وإلى جانب هذا يوجد لديه معلومات غزيرة عن الحياة الاقتصادية وممارسات السكان التجارية وأنواع العملات المتداولة بينهم[4] ومعلومات عن الثروة الحيوانية في

---

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.169، ص.177، ص.239، ص.289.

2 المصدر نفسه، ج.2، ص ص. 84 ــ 85.

3 المصدر نفسه، ج.2، ص ص. 9 ــ 10.

4 المصدر نفسه، ج.1، ص.202.

أنحاء الممالك الهندية ومنها يذكر الطواويس بأرض الهند والفيل والكركدن والببغاء والنعامة وحشرات الأرض[1].

وعندما يتحدث عن الطيب : يذكر أصوله الخمسة وهي المسك والكافور، والعود والعنبر والزعفران، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل إلا الزعفران والعنبر، ويوجد بأرض الزنج والشجر والأندلس أيضا[2] والهنود يمضغون ورق التانبول وحب النوفل، وورق التانبول ينبت في بلادهم وهذا إذا ما مضغ على ما ذكرنا الورق والنور أشد اللثة وقوي عمود الأسنان وطيب النكهة وأزال الرطوبة الهوذية وشهي الطعام[3] والخضاب الأسود المعروف بالهندي وهو الخضاب الذي يلمع سواده فيما يظهر من أصول الشعر بصبغه سواد ولا يتصل منه شيء، وإن هشام بن عبد الملك كان يخضب بهذا الخضاب[4]، وعند حديثه عن الثروة الغابية يذكر شجر النارنج والأترج المدور من الهند، فهذه الأشياء زرعت بعمان وبصرة والعراق والشام، ولكن الحمرة الطيبة واللون الحسن الذي يوجد بأرض الهند زال لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلاد[5] .

ب ـ الملامح العلمية والأدبية في الرحلة لبلاد الهند:

أشار المسعودي إلى الانجازات الفكرية والثقافية للهنود حيث برعوا في علم الفلك والطب والحكمة[6] ومن أهم مصادره في علم الجغرافية والفلك كتاب سدهانتا (السند هند) لبرهم كبتا وآرية بهتية (الأرجيهد) لآرية بهتا وكهندكها دكا (الأركند) وهي كتب هندية جعلت المسعودي يتشوق إلى معرفة هذه المصادر عن قرب[7] وعندما يتكلم عن تقدم أهل

---

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.2، ص.239، ج.3، ص ص.56 ـ 57.

2 المصدر نفسه، ج.1، ص.391.

3 المصدر نفسه، ج.2، ص ص.84 ـ 85.

4 المصدر نفسه، ج2، ص.203.

5 المصدر نفسه، ج.2، ص.239.

6 المصدر نفسه، ج.1، ص ص. 85 ـ 86.

7 مقبول أحمد: **أبو الحسن المسعودي**، المرجع السابق، ص.36.

الهند يذكرهم فيقول: «إن الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة وإنه لما تجيلت الأجيال حاولت الهند أن تضم المملكة وتستولي على الحوزة وتكون الرياسة فيهم، فقال كبراؤهم نحن أهل البدء وفينا التناهي ولنا الغاية والصدر والانتهاء...» [1].

ومن مظاهر اهتمام المسعودي بالشؤون الثقافية والعلمية للهند بوجه عام حديثه عن اللغات واللهجات المنتشرة بينهم، وأن كل الناس في الهند يتكلمون بلسان يختلف عن ما عداهم[2] وكذا يقول في موضع آخر:« الهند المتصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت وبين هذه الممالك تباين وحروب ولغاتهم مختلفة وآراءهم غير متفقة»[3].

ويقول المسعودي:« وللهند التقدم في صناعة الطب ولهم فيه اللطافة والحذق[4] وثقافتهم في علم الفلك والنجوم قديمة فقد ربطوا بمعابدهم بصورة الأفلاك والبروج، قال المسعودي: إن في زمن البرهمن الأكبر شيّد الهياكل ورصعها بالجواهر المشرفة المنيرة وصور فيها الأفلاك والبروج الإثني عشر والكواكب وصور الأبراج في بيت الذهب»[5].

لقد برع المسعودي في وصف البلاد والناس كعالم متبحر محقق بالنظر العميق وبالبحث والتنقيب، وقد يتصور البعض أنه سجّل في كتبه ما شاهده وسمع من الأحوال والشؤون بالبحث والنظر، هذا غير صحيح فحيثما وجد أنه يتفق بما يحكي عنه فلا يبحث عنه، وإذا اختلف عن رواية فيردها ويأتي برواية صحيحة، فليست كتبه تسجل ما عرف

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.76.
2 المصدر نفسه، ج.1، ص.202.
3 المصدر نفسه، ج.1، ص.163.
4 المصدر نفسه، ج.1، ص ص.81 ـــ 82.
5 المصدر نفسه، ج.1، ص.173.

من العلوم والأشياء فقط بل نجد فيها ما لا نجده في كتب أخرى، وكان المسعودي يعتقد بأن العلم يزداد، فطبعا يكون علم السلف أقصر من علم الخلف[1].

جـــ ـــ المشاهدات الجغرافية والعمرانية للهند عند المسعودي:

ذكر المسعودي في بحث الأقاليم السبعة عن الهند بقوله: «فالإقليم الأول الهند.. فحد الإقليم الأول البحر مما يلي المشرق والثاني البحر مما يلي الحجاز والثالث الديبل من ساحل المنصورة من أرض السند والرابع حد فالإقليم السابع مما يلي الصين أطول ساعات نهاره وثلاث عشرة ساعة»[2].

وعند وصفه لأرض الهند في كتابه المروج يقول: «لأن بحر الهند والصين في مقره اللؤلؤ وفي جباله الجواهر ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلمي وفي أفواه دوابه العاج ومن منابته الأبنوس والخيزران والقنا والساج والعود وأشجار الكافور والجوز والقرنفل والصندل وأنواع الطيب والعنبر والببغاء والطواويس والنعامة وحشرات الأرض...» ويقول في نفس الكتاب الزمرد من الهند والسند ونحو كنباية... يلحق بما وصفناه من النور والخضرة الجواهر الملكي يحمل من أرض الهند فاشتهر باسم مكة[3].

وعندما يتكلم عن أنهار الهند ويذكر مخرج نهر مهران[4] السند بقوله : «ومخرجه من الإقليم الخامس من عيون في أعالي السند وجبالها من أرض قنوج[5] من مملكة بوءرة (سوج راج) وأرض قشمير ولقندهار والطاقن(دكن) حتى ينتهي إلى مدينة المولتان... »

1 مقبول أحمد: **أبو الحسن المسعودي**، المرجع السابق، ص.35.

2 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص.29.

3 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.3، ص ص.56 ــ 57.

4 **نهر مهران**: ويسمى أيضا نهر السند أو الأندوس وإليه نسب الجزء الشمالي من الهند فعرف بمملكة السند، وللمزيد من التفاصيل عنه انظر. القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت، د.ت، ص. 125.

Raverty.H.The mithan of sind and its tributaries, JRSB,1979,PP.158 -164.

Ferrand.G. **Relation de voyages et textes géographique arabe**. Persans et Turks relatifs à l'extre mo-arientes du vie au x vie siècles,(Frankfurt),1993, PP.9-17.

5 للوقوف على أحوال تلك المملكة، انظر. المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.166.

وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في الأخبار عن الأمصار وعجائب البلدان:«إن مخرج مهران السند والنيل من موضع واحد، واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما وكون التمساح فيهما وإن سبيل زراعتهم في البلدين واحد، ولا أدري كيف ذلك وقع له»[1].

وأورد ذكر جنجس بقوله: «ومنها نهر الهند المعروف من أصناف الهند وغيرهم ومخرجه من جبل بناحية التبت لا عمارة بينه وبين التبت إلى أن يصب في هذا البحر مما يلي الجزيرة المعروفة بجزيرة العراق من جزائر الهند، فمسافته من ابتدائه إلى انتهائه أربع مائة فرسخ وقيل خمسة مائة فرسخ وعلى هذا النهر كان التقاء الاسكندر وملك الهند»[2].

ويقول المسعودي «في تراب الهند أن له خصائص، فطيور الهند كالطاووس إذا أخرج من الهند إلى بلاد العرب من الشام وغيرها يزيل عنه اللون الجيد والحسن الذي يوجد فيه بالهند وكذلك الليمون إذا أخرج من بلاد الهند وزرع في بلاد الشام تزول حلاوته، وكذلك الطبيعة متأثرة في لون الحيوان»[3].

وقد أشار أحمد مقبول إلى أهم إضافات ومشاهدات المسعودي الجغرافية في بلاد الهند، وهو بحثه عن الاتصال بين بحر الهند والبحر الأبيض المتوسط حيث وجد في زمان المسعودي بعض خشبات منكسرة كانت للمراكب الهندية في البحر الأبيض المتوسط ذلك أن مراكب بحر الهند أو بحر الزنج في زمن المسعودي كانت تحرز بليف النازجيل، ومراكب البحر الأبيض المتوسط قد حرزت بالمسامير من الخشب وما كان بين البحرين اتصالا كما ظن العرب والإغريقيون، وكان ابن حوقل والإصطخري والمقدسي يعتقدون

1 مقبول أحمد: **أبو الحسن المسعودي**، ص.38.

2 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص.49.

3 المصدر نفسه، ص.50، وانظر. **مروج الذهب**، ج.1، ص.61.

أن البحر الهندي والبحر المتوسط خليجان يدخل أحدهم من ناحية الشرق من المحيط الهادي، ولقد أعطى المسعودي رأيه عندما قال ربما انحدرت هذه الخشبات أولا إلى المحيط الهادي ثم صارت شمالا إلى بلاد الأتراك حتى القطب الشمالي، ومن هناك انحدرت من خليج هناك إلى البحر الأسود، وهكذا وصلت إلى المتوسط ، وقد أكد ذلك بعد مائة سنة أبو الريحان البيروني... ولكن أصل كل ذلك يرجع إلى تسجيل المسعودي للحادث الكبير في عصره، أعني وجود خشبات مراكب بحر الهند في المتوسط[1].

1 المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص ص.38 ــ 39.

ـ خاتمة الفصل:

قلنا فيما سبق أن المسعودي بدأ رحلاته في 309 هـ فغادر بغداد وطاف ببلاد فارس وكرمان واستقر فترة في اصطخر، وفي السنة التالية (أي 310 هـ) تحول بين مدن الهند المختلفة مثل الملتان والمنصورة وكنباية وصيمور، واستقر فترة في بومباي وهو من الرحالة القلائل الذين أمدونا بمعلومات وافية عن بلاد الهند، فيصف أرض الهند وجبالها وأنهارها وعقول أهلها وسياسة أهلها وحكمتهم، وكذلك صفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم معتمدا على المشاهدة[1].

ـ عرف المسعودي كيف يصنع جو الحادثة المشوق فتبدو الرواية على يديه تعبيرا عن العصر الذي يؤرخه، وبذلك يضيف إلى السرد التاريخي الصرف المناخ الملائم له[2]وإن كان يؤاخذ عليه عدم الواقعية في كثير من الأحداث التي لم يتعرض إليها بالنقد ولا بالرد في رحلاته حتى أن الممعن في سرد حكاياته يكاد يجزم أنه يقبلها ولا يخامره أدنى شك في مصداقيتها .

ـ ولعل المسعودي قد انفرد من بين الرحالة التارخيين بتناوله لتاريخ الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الإسلامي في تلك العصور، حيث يرى كثير من الدّارسين أنه عالج أكثر أموره معالجة صاحب البصيرة النيرة والملاحظة النقادة وصنّفه آخرين بالدّقة والتعمق مقارنة مع الرحّالين والجغرافيين الآخرين أمثال المقدسي والاصطخري، إلا أنه لا يرتفع لدقته إلى المستوى الرفيع الذي تميزت به دقة البيروني الذي اعتمد في كتبه طريقة منهجية علمية لم تتسرّب إليها الخرافات والأساطير[3].

---

1 انظر كتابنا **ثقافة الهند**، المرجع السابق، ص.53.

2 عبد الرحمن زياتي: **أدب الرحلة**، بيروت، د.ت، ص.37.

3 انظر نقولا زيادة: **الرحالة العرب**، ص.47.و علي حسين الخربوطلي: **المسعودي سلسلة نوابغ الفكر العربي**، دار المعارف، 1968، ص.31. ومصطفى سالم: **أدب الرحلات عند العرب**، ص.140.

ـــ ويعتبر المسعودي كما أسلفنا من الرحالة القلائل الذين أمدّونا بمعلومات وافية عن بلاد الهند، وها هو يصف لنا هذه البلاد ويقارن بين الهنود وبين الزنوج وأرض الهند أرض واسعة في البر والبحر والجبال وملكهم متّصل[1] فكان أكثر الرحالة والجغرافيين ارتحالا وأشملهم علما ومعرفة ورائدا من رواد الدراسات الهندية وهو الذي وصفه ابن خلكان بإمام المؤرخين وشبّهه زكي حسن بهيردوت العرب[2] ويبقى المسعودي في نظر الجميع قيمة تاريخية وجغرافية يدين له العديد بمجموعة من الأخبار القيمة والمعلومات المهمة التي أخذها من مصادرها أو شاهدها بالمعاينة لبلاد شتى خاصة وأن هذه الأخبار قد ضاعت مصادرها.

ـــ ولعل المسعودي أحسّ في كثير من الأحيان بعدم تحريه الدقة في بعض المعلومات فنوّه في كتابه المروج قائلا : «على أننا نعتذر من تقصير إن كان ونتنهل من إغفال أو غرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر...» [3] .

ـــ ويعتبر كتاب مروج الذهب مصنّف تاريخي جغرافي عظيم القيمة لما تطرق فيه من موضوعات تاريخية حول بلاد الهند والفرس والروم واليهود، كما عرّف المسعودي بكتابه التنبيه والإشراف، وتبحره في علم الأرض والأفلاك وهيئاتها والنجوم والأزمة وغيرها.

ـــ لقد اهتم المسعودي بالحياة العامة في الهند من حيث نشأة الدولة على يد البرهمن الأكبر وتأسيس الحكم الملكي الوراثي كما شهدت البلاد حالة من التشرذم والتجزئة السياسية أدت إلى قيام عدة ممالك ودويلات[4] وتبقى في نظر المسعودي طبقة

---

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص ص.82 ـــ 83.

2 أحمد رمضان أحمد: **الرحلة والرحّالة المسلمون**، دار البيان العربي، جدة، د.ت، ص.101.

3 المسعودي: المصدر السابق، ج.1، ص.5.

4 انظر كتابنا **ثقافة الهند**، ص ص.54 ـــ 55.

البرهمن هي المشكّلة لثقافة الاعتقاد عند الهنود وفي فلسفتهم للحياة وبداية العالم فقد قال المسعودي: «النفوس في اتصالها بما علا من العوالم وكيفية بدئها من أعلى إلى أسفل وغير ذلك فما رتب لهم البرهمن في بدء الزمان»[1].

ـ والملاحظ أن وصف المسعودي لثقافة الهند كان دقيقا خاصة ما تعلق منها بالجانب العقائدي عند الهنود الذي تقوم عليه ثقافة المجتمع الهندي مثل الأصول الملكية للبراهمة.

ـ والثابت أن المسعودي كان على صلة مع أبا زيد السيرافي فقد أشار صاحب المروج إلى أنه قابله وتبادلا أخبارا حول طرق التجارة البحرية في بلاد الهند وبحر الصين وتناقشا في معلومات عن الهند والصين وجزائر الياقوت والذهب والتوابل وغيرها[2] كما كانت للمسعودي إشارات في المروج لرحلة ابن وهب القرشي لآسيا خاصة بلاد الصين[3] وهي علامات على قوة الإطلاع ومدى معرفته بهذه المناطق التي شغلت حيزا واسعا من مؤلفاته.

ولعل خير ما نختم به الحديث عن المسعودي ورحلاته قوله: «ولكل إقليم يقتصر علمه على أهله، وليس من لزم وجهه وطنه وقنع بما نما إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه».[4]

---

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص.77.

2 عبد الفتاح محمد وهبة: **جغرافية المسعودي**، دار المعارف، مصر، 1415 هـ ـ 1995م، ص.21.

3 أشار المسعودي إلى هذه الرحلة: رحلة ابن وهب القرشي في **مروج الذهب**، ج.1، ص.142.

4 المسعودي، **مروج الذهب**، ج.1، ص.112.

الفصل الثالث

الهند من خلال دراسات البيروني وأثر ذلك على تقدم العلم

المبحث الأول: حياته وأهم أحداث عصره

المبحث الثاني: البيروني في الهند.. بين الرحلة والدراسة

المبحث الثالث: القيمة العلمية في رحلة البيروني إلى الهند

خاتمة الفصل

الفصل الثالث: الهند من خلال دراسات البيروني وأثر ذلك على تقدم العلم

المبحث الأول: حياته وأهم أحداث عصره

أولا ــ عصره:

أ ــ الحياة السياسية: شهد عصر البيروني تمزقا سياسيا ومذهبيا واسعا أدّى إلى ظهور دول وإمارات تنازعت للبقاء والتوسع طويلا، ويصف المسعودي في عام (332 هــ - 944 م) فِعل أصحاب الأطراف وتغلب كل واحد منهم على الذي هو فيه بفعل ملوك الطوائف[1] . فصارت فارس والري وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه وكرمان في يد محمد بن إلياس والموصل وديار ربيعة وديار بكر في أيدي بني حمدان، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طفج الإخشيد، والمغرب وإفريقية في يد الحمدانيين والأندلس في يد عبد الرحمان الناصر الأموي، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني والأهواز وواسط والبصرة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها. [2]

ويبدو أن هذه الدويلات كانت تعتمد في بقائها على تصارعها المستمر إلا أن الغلبة في أغلب الأحيان كانت وفقا على أقواها: السامانية والبويهية، وكانت الخلافة تنظر لما يجري دون أن تستطيع فعل شيء، وإن ظلت سلطة الخليفة وسياسته شبحا لا يؤرق حتى أضعف الطامعين، فقد فوّضته الخلافات المذهبية والسياسية التي عصفت ببغداد وأطراف الخلافة.[3]

---

1 المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص.10.

2 نقلا عن كتاب **تجارب الأمم** لابن مسكويه، ج 5، ص.553.

3 نظام الملك الطوسي: **سير الملوك أو سياسة نامه**، ص.68.

اشتد الصراع بين السّنة والشيعة ففي عام 334 هــ وقع الخليفة السنيّ وحاضِرَتُه بغداد تحت سيطرة الشّيعة من بني بويه[1] فدخلوا بغداد وروّعوا أهلها وضربوا السكّة بألقابــهم وخلعوا المستكفي وحملوه إلى دار معزّ الدولة، ونُهبت داره وسُملت عيناه ولم يزل في دار السلطنة معتقلا حتى توفي سنة 338 هــ. [2]

وإذا تجاوزنا الدولة البويهية ومسلكها هذا اتجاه الخليفة نجد دويلات مستقلة تنظر إلى الخليفة على أنه السلطة الروحية المطلقة التي ينبغي دينيا نيل تعضيدها ومساندتها، آية ذلك أنهم كانوا يتدافعون بشتى الوسائل على الحصول منه على ألقاب تُسندهم وتُقرّ نفوذهم[3]، ولكن لم يكن من شأن هذا الانقسام وتعدّد أمراء المؤمنين أن يؤدي إلى ضيق في معنى الإسلام أو في الوطن الإسلامي، بل صارت كل هذه الأقاليم تؤلف مملكة واحدة. [4]

وكان لظهور الغزنويين[5] دورا هاما في تقويض المذهب الشيعي في تلك الرقعة، حيث كان للبوهيين دورا فيه... ويعتبر ظهور الغزنويين البداية الحقّة لفتح القارة الهندية [6]

1 آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تر. محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة: دار الفكر العربي، 1999)، ص.20.

2 يحي الخشاب: **أبو الريحان البيروني**، المقدمة.

3 البيروني: **الآثار الباقية**، اعتنى به سانتشاو ليبسيك (ط.2، بغداد: مكتبة المثنى، بيروت: دار الكتاب البناني، 1978) ص.132 – 134.

4 آدم متز: المرجع السابق، ص.21.

5 **الدولة السامانية والغزنويون** (262 هــ – 368هــ) التي حكمت خراسان وسجستان وطبرستان والري وكرمان وما وراء النهر، وقد انتهى أمر السامانيين إلى ما انتهى إليه العباسيون من الاعتماد على العنصر التركي في الإمداد للجيوش، فقد عيّن عبد الملك الأول ابن نوح (343 هــ – 350 هــ) المملوك التركي البتكين قائدا عاما لخراسان قصد إقصائه، ولما توفي انسحب البتكين إلى غزنة وأعلن ملكه عليها بعد انتصاره على أميرها المحلي أبي بكر لاديك، وبعد وفاة البتكين حكم غزنة ابنه إسحاق إبراهيم الذي عاجلته المنية، واتفق جيشه تولية القائد سبكتكين الذي عرفه التاريخ مؤسسا للدولة الغزنوية...، راجع نظام الملك: **سياسة نامة**، ص.110 – 111.

سلطنة غزنويات 1 – 3: تاريخ أبي نصر العتبي، ج1، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص.85 – 86، ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص.286، تاريخ البيهقي، ص ص. 216 – 218.

6 علي الشابي: **الأدب الفارسي في العصر الغزنوي** (تونس: دار النشر، 1965) ص.61.

فلم يكن الفتح العربي للسّند أواخر القرن الأول الهجري أكثر من غزوة محدودة لولاية في أقصى الغرب لا هي بالغنية ولا الواسعة. [1]

ولقد استطاع محمود الغزنوي أن يقوّي علاقته بالخلافة العباسية من خلال إقراره بسلطة الخليفة الروحية في عهد القادر بالله، فالخليفة يمدح محمودا ويرفع من أمره حين طلب إليه هذا تمكينه من ألقاب يشرف بها كالخاقان فيقول له الخليفة: « إن اللقب تشريف للرجل الخامل يعلو به شأنه ويعرف به... أما أنت فشريف ومعروف دون لقب».[2]

وهكذا بدا في هذا العصر كيف ناصر الأتراك السُّنة أصحاب الدولة الغزنوية أولا ثم السلاجقة بعدهم الخلافة إلى أن حلّت نكبة المغول بالعالم الإسلامي، وقد عاش البيروني العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الرابع الهجري وهي فترة حكم سبكتكين وكان فيها محمودا قائدا من قادة والده الذي وافته المنية في شعبان سنة 387 هـ، فخلفه ابنه محمود بعد خلاف مع أخيه إسماعيل[3] ومع بقايا الدولة السامانية التي أسقطها عام 389 هـ، وأرسل إلى الخليفة العباسي القادر بالله يعلمه بنصره، ويطلب الاعتراف بسلطته فلقّبه الخليفة بيمين الدولة وأمين الملّة.[4]

أما العقود الأربعة الأولى من القرن الخامس الهجري سيكون البيروني مرافقا لمحمود الغزنوي من عام 408 هـ إلى وفاته عام 421 هـ، وبعدها اتصل بابنه مسعود فعاش في بلاطه مكرما إلى غاية وفاته عام 440 هـ.

---

1 أحمد الساداتي: **تراث الإنسانية**، (القاهرة 1965) مج3، عدد2، ص.81.

2 نظام الملك: **سياسة نامة**، ص.153.

3 تعرض الثعالبي إلى هذه الحوادث في قصيدة مطولة: **لطائف المعارف**، ص.88 – 92.

4 العتبي: **تاريخ اليميني**، (القاهرة، 1386هـ) ج.1، البيروني: **الآثار الباقية**، ص.134، نظام الملك: المرجع السابق، ص.153.

ب ــ الحياة الفكرية والعلمية: عاش أبو الريحان البيروني في تلك الظروف السياسية المضطربة ــ التي أشرنا إليها سابقا ــ إلا أن الملاحظ أن هذا التمزق في تلك الرقعة لم يمنع من تأكيد الثقافة وتطور الحضارة وازدهار العلوم والفنون، كما أدى إلى تنوع واسع وعميق في فروع المعرفة الإسلامية، وظلت الدويلات القائمة في أطراف الخلافة العباسية تحمل الرسالة الحضارية العلمية التي تميزت بها الخلافة آنذاك، وقد احتك البيروني بأمراء بعض هذه الدول الصغيرة والكبيرة[1]، وشاهد التقلّبات السّياسية، وقد كان أكبر شخصية عاشت في هذا العصر على غرار ابن سينا وابن الهيثم[2] ولذلك سمّي بعصر البيروني من قبل مؤرخ العلوم جورج سارتون.[3]

ويبدو أن التنافس السياسي بين هذه الدويلات كان عاملا مهمّا في ازدهار الثّقافة وانتشار العلم نظرا لتنافس الأمراء على العلماء، ويظهر جليّا ذلك عندما قضى محمود الغزنوي على بلاطات خوارزم[4] وبخارى وسجستان، واقتنص أدباءها ومفكريها وضمّهم

1 اتصاله بقابوس بن وشمكير شمس المعالي، وعلاقته بأبي العباس مأمون، حيث عاش البيروني في بلاط آل عراق بكاث بخوارزم مدة طويلة تعهده أبو نصر بالرعاية إلى غاية سقوطها عام 385 هــ، راجع ياقوت الحموي، ج 17، ص ص.36 – 241 – 59 – 79، وكانت له علاقة مع قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي صاحب جرجان وطبرستان جنوب بحر الخزر الذي حكم سنة 366 هــ ولقد اتصل به عام 388 هــ بعد سقوط آل عراق، راجع البيروني: **الآثار الباقية**، ص ص.132 – 134 – 135، وياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج. 17، ص. 182.

وكانت له علاقة مع أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه اتصل به عام 400 هــ، ويذكر البيهقي أنه عاش معه إلى 407 هــ نقلا من كتابه المفقود " المسامرة في أخبار خوارزم"، وقد جعله خوارزم شاه مستشارا له في كثير من القضايا، راجع **تاريخ البيهقي**: تر. يحي الخشاب، ص.734 – 735 – 736 .

2 **ابن الهيثم:** هو أبو علي الحسن بن الهيثم، المهندس البصري المتوفي سنة 430 هــ، ولد بالبصرة عام 354 هــ، انتقل إلى مصر حيث أقام بها حتى وفاته، يصفه ابن أبي أصيبعة بقوله: « كان ابن الهيثم فاضل النفس، قوي الذكاء، متفننا في العلوم... كان دائم الاشتغال، كثير التصنيف، وافر التزهد... » وقد قام ابن الهيثم بالعديد من الاكتشافات منها: اكتشاف ظاهرة انعكاس الضوء، كما أنه قام بتشريح العين تشريحا كاملا وبيّن وظيفة كل قسم منها. ينظر **موسوعة علماء العرب**، تحقيق يوسف فرحات (ط.1، جنيف: ترادكسيم، 1986م) ص.107.

3 مجلة **المؤرخ العربي** (ط. 3، تعداد العراق ، 1980) العدد 4، ص.297.

4 **خوارزم** إقليم يقع على المجرى الأسفل من نهر سيحون يحده شمالا وغربا مواطن العزّية، وجنوبا خراسان، وشرقا بلاد ما وراء النهر، وله قصبتان شمالية تسمى كاث أو شهر ستان، وجنوبية بناحية خراسان (الجرجانية) وهو كثير البساتين والمزارع والفواكه. ومدينة كاث كبيرة اشتهرت بمسجدها وبقصر "خوارزمشاه" الذي يصاقبه ودونها في الكبر الجرجانية وقد زينها مأمون بن محمد خوارزمشاه بالقصر العجيب الذي بناه عند باب الحجاج، كما زينها ابنه علي خوارزمشاه بالقصر الذي شيده بالقرب منه=

إلى بلاطه، وكان أبو الريحان البيروني واحدا منهم، فنضج البحث العلمي وتنوّع الباحثون إذ كانت عطاياه كفيلة بدفعهم إلى الابتكار والإبداع، وقد ضمّ بلاطه نخبة من الأدباء والعلماء أهمّهم الفردوسيّ شاعر الملحمة الأكبر والبيروني والثعالبي والبيهقي والبستي.

وقد خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعة من العلوم الدنيوية ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ما له منهج علمي وأسلوب علمي سوى الفلسفة وعلم الكلام، ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية واللغة منهجه الخاص[1]، وقد وجدنا أن الحياة الثقافية قد تطورت تطورا هائلا في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس الهجري، ففيه هذبت العلوم الدينية وأكملت وقام الفارابي[2] بإيعاز من السامانيين بتصحيح التراجم الفلسفية وأحكم عمله، هذا ما قام به ابن رشد[3] بعد هذا العصر من شرح لمؤلفات أرسطو وطرح ما فيها من غموض كما قام ابن سينا بتنقيح الطب اليوناني الذي كان ثمرته كتابه " القانون "، وقام ابن الهيثم بتصحيحات في علم الطبيعة تعتمد الإحاطة بكل ما كُتب في عصره وقبل عصره والدقة في الشرح والتبسيط، ولم يفت البيروني أيضا أن يصحح

=والمسافة بين كاث والجرجانية ــ كما يقول ابن فضلان الذي زار هذا الإقليم في بداية القرن الرابع خمسون ــ فرسخا في الماء: راجع الإصطخري: **مسالك الممالك**، ص ص.299 – 301، **أحسن التقاسيم للمقدسي** ص.284 – 285 – 286، **رسالة ابن فضلان**، تحقيق سامي الدهات (ط. بيروت : دار صادر، 1991) ص.81.

1 آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ص. 319 .

2 **الفارابي:** هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، وقد اتفق معظم مؤرخي حياته على أنه تركي الأصل، وإن ذكر بن أبي أصيبعة أن والده كان قائد جيش، وهو فارسي ونسب أبو نصر إلى بلدة فاراب، وهي كما يقول ياقوت الحموي: « ولاية وراء نهر سيحون في تخوم بلاد الترك، وهي أبعد من الشاش، قريبة من بلاساغون، ومقدارها في الطول والعرض أقل من يوم، إلا أن بها منعة وبأسا ... »، ولد عام 259 هــ لأن ابن خلكان ذكر أن الفارابي توفي عام 339 هــ، عن ثمانين عاما، نهل من الفقه والحديث وعلوم اللغة، ثم درس الرياضيات والفلسفة والمنطق، ودرس في بغداد كتب أرسطو، عاش متنقلا بين بغداد ودمشق، ثم رحل إلى حلب حيث عاش في بلاط سيف الدولة بن حمدان، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**. ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** (ط. مصر: دار الوهبية، د.ت).

3 **ابن رشد:** هو أبو الوليد محمد بن رشد الأندلسي القرطبي ولد سنة 520 هــ المعروف بابن رشد الحفيد، اشتهر في العلوم الفلسفية والطبية، تولى منصب القضاء في اشبيلية، وأقبل على تفسير آثار أرسطو، عاد إلى قرطبة حيث تولى منصب قاضي القضاة، بعدها بعشر سنوات ألحق بالبلاط المراكشي كطبيب الخليفة الخاص، من مؤلفاته: كتاب الكليات، شرح الأرجوزة المنسوبة إلى ابن سينا في الطب... ينظر **موسوعة علماء العرب**، ص.177.

الهيئة والجغرافية ويدوّن شؤون المجتمع الهندي الثقافية.. ويشرحها شرحا علميا لأول مرة في تاريخ الثقافة الهندية من خلال كتابه "تحقيق ما للهند".

وتعتبر أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر من أهم المناطق التي أصبحت تزخر بالعلماء والأدباء في هذا العصر، وقد وصف المقدسي خوارزم وأهلها بأنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب، وقال: " إنني قلّما لقيت إماما في الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم ".[1]

ولقد شجع الخوارزميون الأدباء والعلماء فازدانت دولتهم بكثير منهم، ويذكر محمد النّسوي[2] ــ نسبة إلى مدينة نسا بخراسان ــ أن سلاطينهم عمّروا قصورهم بالشعراء والكتّاب والعلماء من فرس وعرب وقربوهم إليهم وأغدقوا عليهم كما فتحوا المدارس وشجّعوا الوُعّاظ على الرغم من قلّة المعرفة باللّغة العربية.[3]

وعلماء العرب في هذه الفترة مجموعة ضخمة نبغت في الكثير من العلوم، احتلّ منهم الكثيرون مراكز الصدارة ومن بينهم عالمنا الجليل أبو الريحان البيروني الذي نسب إليه جورج سارتون (JORGE SARTON) ــ أعظم مؤرخ لتاريخ العلم في العصر الحديث ــ هذا العصر حيث سماه بعصر البيروني.

ونجد من علماء هذا العصر النيسابوري، الدارقطني في الحديث، أبي علي الفارسي، ابن دريد، النحاس، ابن فارس، ابن جني، الزجاج في اللغة والنحو، المتنبي، ابن حجاج، ابن طباطبا، أبي فراس في الشعر، القدوري، ابن السريج، إبراهيم المروزي في الفقه، ابن زولاق، المستجي، الشابشتي، الطبري في التاريخ، الإصطخري، ابن خرداذبة،

---

1 المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص. 284.

2 محمد النّسوي: من مدينة نسا بخراسان، كان كاتب الإنشاء للسلطان جلال الدين منكبرتي ثم عينه وزيرا له في نسا وهو مؤلف كتاب "سيرة جلال الدين".

3 سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ص. 51 – 204 – 208 ، نقلا من كتاب **الزمخشري**: أحمد محمد الحوني، (ط.1، القاهرة: دار الفكر العربي، 1966) ص.16.

المقدسي، البكري، ابن الهيثم، البوزجاني[1]، البتاني، الخوارزمي، الخازن، القرطبي، عمر الخيام وابن سينا في الرياضيات والفلك والطبيعة والجغرافيا والطب وسائر العلوم الأخرى، والكعبي والبلخي وأبو الحسن الأشعري في علم الكلام، وابن مقلة في الخط، وابن نباتة في الخطابة وغيرهم، كل هؤلاء ساهموا في تقدم الحركة العلمية وتنشيطها، واعتبر هذا القرن أغنى القرون إنتاجا وتقدّما.

ويبدو أن عصر البيروني لم ينافسه عصرا في النشاط العلمي والانتشار الواسع للثقافة في جميع أنحاء الرقعة الإسلامية، ويعود ذلك كما أشرنا إلى الواقع السياسي الذي ميّز هذه المرحلة من تنافس بين الأقاليم ومحاولة جذب وتقريب العلماء والتفاخر بهم، وتحويل مراكز الثّقل الثقافي من بيت الحكمة إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي.

ثانيا ــ تاريخ حياته:

أ ــ مولده ونسبه:

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني عام: (362هــ – 973م)، هذا إذا اعتمدنا على ما يقوله هو نفسه في فهرست كتب الرازي [2] من أنه في عام 427 هــ بلغ سنّه 65 سنة[3]، كانت ولادته في قرية من ضواحي مدينة كاث عاصمة دولة خوارزم [4] ولعلّ إلحاق كلمة البيروني إلى نسبه كان القصد منها الخارجي فبَيْرون تعني "الخارج"

---

1 **البوزجاني:** محمد بن يحي أبو الوفاء، من كبار الرياضيين في القرن الرابع، وهو أستاذ أبي نصر بن عراق انتقل من نيسابور إلى العراق سنة 348 هــ ، وقام بالتدريس وصنف كتبا كثيرة في العلوم العددية و الحسابية وله كتاب المجسطي، وفسر كتاب ديو فنطوس في الجبر والمقابلة، توفي عام 388 هــ . ينظر ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول،** (ط. بيروت، د.ت) ص.181.

2 **فخر الدين الرازي:** ينتسب إلى القرن الثالث الهجري، ولد في مدينة الري جنوبي طهران بفارس، اشتهر بعلوم الطب والكيمياء، يعتبره المؤرخون من أعظم أطباء القرون الوسطى، جاء في كتاب الفهرست: « كان الرازي أوحد دهره، وفريد عصره، وقد جمع المعرفة بعلوم القدماء، سيما الطب» له عدة مؤلفات منها: الطب الروحاني، سر الأسرار، الحاوي ... ينظر **موسوعة علماء العرب،** ص. 65.

3 مقدمة سخاو **للآثار الباقية** (بيروت: دار صادر) ص.16.

4 علي الشحات: **أبو الريحان البيروني،** ص.67.

فمولده كان خارج مدينة خوارزم[1]، ويقول السمعاني في الأنساب بعد تأكيده لمعنى بَيْرون والتي تعني بالفارسية خارج المدينة أنه من المحتمل أن تكون عائلة أبي الريحان من المشتغلين بالتجارة خارج المدينة حيث أن بعض التجار كانوا يعيشون خارج أسوار المدينة للتخلص من مكوس دخول البضائع إلى الداخل.[2]

وتعتبر خوارزم موطنه الأصلي الذي ينسب إليه، أما عن أبويه فيقول هو نفسه: أنا بالحقيقة لا أعرف نسبي ولا أعرف من كان جدي[3]، وكانت أمّه كما يقول حمالة للحطب.

إذ لست أعرف جدي حق المعرفة *** وكيف أعرف جدي إذا جهلت أبي؟

وعلى هذا فهو من أسرة عادية منزوية لا شوكة لها ولا صيت وربما حُرِم من ظلّ أبيه منذ نعومة أظافره .[4]

ب ــ صفاته وشخصيته:

يظهر أن الغموض يلف حياة هذا العالم في مراحله الأولى فلا نعرف شيئا عن أسرته أو صِباه[5]، وعدم عناية المؤرّخين به وكتّاب التراجم أمثال ابن خلكان صاحب الوفيات ربما يعود إلى أسلوبه في الكتابة التي لا تغلب عليه السهولة أو السلاسة وهو القائل: « إنّني أخلي تصانيفي عن المثالات ليجتهد الناظر فيها ما أودعته فيها من كان له دراية واجتهاد وهو محبّ للعلم ومن كان من الناس على غير هذه الصّفة فلست أبالي فهم أم لم يفهم».[6]

---

1 ذكر ياقوت الحموي أن طول غربته عن خوارزم حمل أهلها على تسميته بذلك كشأنهم مع أي غريب عن بلدهم، ينظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ص.17 – 180، وأخذ السيوطي بهذا الاحتمال قائلا: « وهم يسمون الغريب بهذا الاسم البيروني » ينظر السيوطي: **بغية الوعاة** ط. بيروت: دار المعرفة، د.ت ص.20، وفي مقدمة سخاو يذكر البيهقي والشهرزوري أن بيرون التي هي منشأه بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب، وبيرون مدينة في السند... والواضح أن البلد الموجود في السند والذي أخطئوا في نسبة البيروني إليه يسمى نيرون بالنون لا بيرون بالباء وهي تقع على مسافة 75 كلم من مكران، ينظر علي الشابي: **الأدب الفارسي**، ص.255.

2 الشحّات: **أبو الريحان البيروني**، ص.67.

3 المرجع نفسه، ص.67.

4 حسن البرني: **البيروني وأعماله العلمية**، تعريب محمد عامر الأنصاري، مجلة ثقافة الهند، عدد سبتمبر 1953، ص.20.

5 رحاب مكاوي: **أبو الريحان البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ**، ط. دار الفكر العربي، 1998، ص.33.

6 ــ مقدمة سخاو: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، ص.70.

ومعروف عن البيروني ميله إلى المناظرة والجدل وقوة الحجة بالعقل وربما كان هذا عاملا عرّضه إلى المخاصمة في زمانه وبعد زمانه من الكثير من أقرانه، وإذا كان ذكره قد نبّه بعض الشيء بعد وفاته بمائة سنة على الأقل حين أخذ بعضهم يتعرض لسيرته فإنّ أحدهم لم يطلق بصره إلى فترة حياته الخصبة التي طبعت عقله، وحدّدت معالم نشاطه الفكري الذي يطالعنا في مجالات العلم المختلفة، ومهما يكن فقد قضى هذه الفترة في خوارزم وكانت مركزا لنشاط فكري وسياسي حادّ صقل ذهنه، وحرك طموحه وكشف عن نبوغه المبكر، ولا بد أن هذا النّبوغ قد ألفت إليه بلاط آل عراق والخوارزمشاهيين فاجتذب كلاهما، وأحاطه برعايته وسهّل له مهمته العلمية وهناك تقابل مع كوكبة من العلماء يمكن أن نقول عنهم أنهم يمثلون بدقة أوجه النشاط الفكري لذلك العصر.[1]

ومن أبرز العلماء الذين التقى بهم في بلاط أبي العباس مأمون خوارزمشاه أواخر القرن الرابع الهجري: علي ابن سينا وأبو سهل المسيحي[2] وأبو الخير الخمار[3] ومسكويه وأبو نصر بن عراق[4] وغيرهم كثير.

---

1 أيم أيس خان: **البيروني رائد الدراسات الهندية**، تر. صهيب عالم، ترجمته مجلة ثقافة الهند، العدد 56، مارس ــ أفريل 2005 ص.191، وينظر علي الشابي: **الأدب الفارسي**، ص.257.

2 **أبو سهل المسيحي**: كان صديقا للبيروني وأستاذا لابن سينا ومستشارا لأبي العباس خوارزمشاه، توفي في أوائل القرن الخامس الهجري، كان متضلعا في الطب والفلسفة وعلم الفلك، له كتاب التوسط بين أرسطو وجالينوس وله كتب في الطب الإسلامي، **تاريخ البيهقي**، ص. 738.

3 **أبو الخير الخمار**: هو الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام في رواية ابن أبي أصيبعة بهنام المعروف بابن الخمار النهراني الفيلسوف المنطقي الطبيب المشهور، ولد ببغداد سنة 331 هـ ، قرأ الفلسفة والمنطق وأصبح مشهورا فيهما، اتصل بأبي العباس مأمون خوارزمشاه وكتب له كتاب "امتحان الأطباء" ولما فتح محمود الغزنوي خوارزمشاه ألحقه بخدمته وكان يجله، توفي في طريقه إلى غزنة عام 408 هـ ويعد من كبار المترجمين عن السريانية وله عدة مضافات في الطب والحكمة أهمها (في سيرة الفيلسوف)، (في السعادة) ... ابن أبي أصيبعة، ص ص. 1 – 322 – 323 ... كتب أخرى.

4 **أبو نصر**: منصور علي بن عراق مولى أمير المؤمنين (381 هـ – 422 هـ) القادر بالله ، كان نقّاشا من كبار الرياضيين والفلكيين في القرن الرابع الهجري هو من أسرة آل عراق التي حكمت في كاث بخوارزم إلى سنة 385هـ حيث أسقطها مأمون بن محمد وقد اشتهرت بالعلم ورعايتها للعلماء، وجاء في الآثار الباقية ما كتبه أبو نصر منصور حيث قال سخاو، وكان قد كتب باسم تلميذه البيروني اثني عشرة رسالة في فنون الرياضة المختلفة، وقال البيروني: فمما تولاه باسمي أبو نصر منصور بن عراق مولى أمير المؤمنين أنار الله برهانه كتابه في السماوات، وكتابه في علة تنصيف التعديل عند أصحاب السند هند، وكتابه في تصحيح كتاب إبراهيم بن سنان في تصحيح اختلاف الكواكب العلوية، ورسالته في براهين أعمال جيش بجدول التقويم... ويبدو=

وبعد سقوط أسرة آل عراق التي كانت ترعاه وتشجّعه على طلب العلم ليست لنا معلومات عن اتصاله بمؤسس الدولة المأمونية مأمون بن محمد الذي حكم (من 385هـ إلى 387هـ) واتخذ لنفسه ولآل بيته لقب خوارزمشاه حيث ذكرنا ما ذكره البيروني بعد سقوط آل عراق أنه لم يستقر بضع سنين، ويبدو أن هذه السنين هي الفترة التي جاء فيها مأمون بن محمد الذي كان منشغلا بنشر الإسلام على عكس أبنائه من بعده أبو الحسن علي بن مأمون الذي حكم (من 387هـ إلى 390هـ) وحكم بعده أبو العباس مأمون بن مأمون (من 390هـ إلى 407هـ) وكان الاثنان أحالا بلاطهما إلى جامعة يقصدها العلماء على اختلاف مشاربهم، وقد سبق ذكر كوكبة العلماء التي ميّزت بلاط أبو العباس.[1]

فالراجح على ما يبدو أن البيروني قبل مجيئه إلى بلاط بني مأمون تلقفه بُناة الحكمة والعلم بنو سامان وقدّرت مكانته العلمية عندهم وتوثّقت صلته بهم وأصبحت له مكانة خاصة عند الأمير نوح بن منصور الساماني وفي مكتبته الجامعة توثقت معرفته بالشيخ الرئيس ابن سينا الذي كان يذاكره ويتبادل الآراء معه ثم أصبح يناظره.[2]

وعندما سقط مُلك السامانيين خرج أبو الريحان مستصحبا معه الشيخ الرئيس ابن سينا إلى بلاط أمير جرجان قابوس بن وشمكير شمس المعالي[3] الذي رحب بنزولهما وأعطاهما الأمان والاستقرار وكان بلاطه حافلا بالعلماء والحكماء وقد ذكر أبو الريحان البيروني هذا الموقف في وصف يقر فيه بهذا المقام الذي أعطاه إياه شمس المعالي فقد

=أنه توفي قبل عام 427 هـ لأن البيروني كتب رسالته في تفصيل أعماله وأعمال أبي بكر الرازي في هذه السنة وكان يذكره كميت. ينظر **مقدمة سخاو**، ص.17، علي الشابي: **الأدب الفارسي**، ص ص. 264 – 265.

1 أيم أيس خان: **البيروني رائد الدراسات الهندية**، ص. 191.

2 علي الشحات: **أبو الريحان البيروني**، ص. 68.

3 **قابوس بن وشمكير شمس المعالي**: هو رابع أمراء بني زياد، حكم جرجان ــ وهي إقليم في فارس جنوب شرقي بحر قزوين ــ وطبرستان سنة (366 هـ ــ 976 م) كان أديبا شاعرا من آثاره: كمال البلاغة وله شعر بالعربية والفارسية، ثار عليه الجيش وعزله سنة (403 هـ ــ 1012 م).

قال في مقدمة كتاب الآثار الباقية في القرون الخالية الذي أهداه إليه: «... ومن لطائف تدبير الله تعالى في مصالح بريّته وجلائل نعمه على كافة خليقته تقديره النافذ أن لا يخلّي في عالمه زمانا عن إمام عادل يجعله لخلقه أمانا ليفزعوا إليه في النوائب والحوادث من السوءات والكوارث... فالشكر لله على ما أفاض من مِنَنِهِ على عبادِهِ بإقامة مولانا الأمير السيد الأجلّ المنصور وليّ النعم شمس المعالي أطال الله بقاءه».[1]

وقد صوّر ياقوت الحموي هذه العلاقة قائلا: « وأما نباهة قدره وجلالة حضرته عند الملوك فقد بلغني في خطوته لديهم أن شمس المعالي قابوس بن وشمكير أراد أن يستخلصه لصحبته ويرتبطه في داره، على أن تكون له الإمرة المطاعة في جميع ما يحويه ملكه فأبى عليه ولم يطاوعه ولما سمحت قَرونته بشلّ ذلك أسكنه في داره وأنزله معه في قصره».[2]

ويبدو أنه هذه القربة الشديدة ومحاولة قابوس استخلاص البيروني لنفسه لم تبقي العلاقة على ثباتها خاصة وأن مزاج الملوك يخضع لتقلبات السياسة، حيث فارق البيروني قابوس عائدا إلى خوارزم وقد سجّل حالته النفسية والمادية بعد مفارقته لقابوس في كتاب الآثار الباقية، والتحق بخوارزم وبلاط أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه سنة 400 هـ وظل في بلاطه سبع سنوات، حيث نقل البيهقي في تاريخه نقلا من كتابه " المسامرة في أخبار خوارزم " وهو كتاب مفقود: « بأنه خدمه سبع سنين »[3]، وقد تمكن البيروني بفضل علمه أن يحتل مكانة متميزة في بلاط خوارزم شاه الذي يصفه البيروني وصفا مميزا [4] وبفضله اجتمع كثير من الحكماء في حضرته وكان أشهرهم أبو سهل

1 البيروني: **الآثار الباقية**، المقدمة.

2 ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ص ص. 17 – 182.

3 البيهقي: **تاريخ البيهقي**، تر. يحيى الخشاب وصادق نشأت (القاهرة ، د.ت)، ص. 734.

4 – في وصف البيروني لأبي العباس، البيهقي: **الجماهر في معرفة الجواهر**، ص.734.

المسيحي وأبو الخير الخمار[1] وغيرهما، وكانت بينهما مناقشات ومناظرات كالتي حدثت بين البيروني وابن سينا.

وقد ذكر المستشرق الألماني إدوارد سخاو في مقدمة الآثار الباقية عن القرون الخالية ما حدث بين البيروني وابن سينا من توتر في العلاقات بسبب الاختلاف وقوة المناظرات بينهما [2]، ويبدو أن أبا العباس كان يشرف على هذه المجالس لأن مكانة البيروني أصبحت قوية ويسودها الاحترام خاصة بعد اتخاذه مستشارا له في كثير من القضايا الصعبة ولا يمكن لملك أن يتخذ مثل هذه الخطوة لولا تيقّنه من وفرة علمه ورجاحة عقله.[3]

وربما هذا التقارب الكبير الذي حدث بين البيروني وأبي العباس من العوامل التي أدّت إلى مغادرة ابن سينا وأبو سهل عيسى المسيحي بلاط خوارزمشاه عام 403 هـــ ... وإن كان بعض المؤرخين يرجع ذلك إلى الخلاف الذي بدأت معالمه تظهر بين أبي العباس ومحمود الغزنوي وقد ذكر البيهقي الدور الذي لعبه البيروني كمستشار لخوارزمشاه وجنبه الصدام مع محمود الغزنوي مدة من الزمن لولا استشارة أبي العباس لأعيان جيشه ومقدمي الرعية الذين ثاروا عليه وقتلوه عام 407 هـــ. [4]

وعندما هاجم محمود خوارزم سنة 408 هـــ وفتحها وقتل من أهلها الكثير وأسر نحو خمسة آلاف من بينهم البيروني وغيره من العلماء الذين اتهمهم بالكفر والزندقة والقرمطة، وكان أستاذ البيروني عبد الصمد الأول بن عبد الصمد الحكيم ضحية هذا

1 سبق التعريف بهما في الصفحة 150.

2 البيروني: **الآثار الباقية**، المقدمة، ص.35 ـــ 36.

3 الشحات: **أبو الريحان البيروني**، ص.69، ينظر **تاريخ البيهقي** ص ص. 736 ـــ 737.

4 البيهقي: المرجع السابق، ص. 739،738. وراجع الشحات: المرجع السابق، ص.69.

الاتهام فقُتل بتهمة القرمطة وأحرقت جميع كتب علم الكلام التي اشتهرت بها خوارزم [1] التي كانت مركزا ثقافيا هاما.

وتذكر بعض المراجع التاريخية أن مصير البيروني كاد أن يكون كمصير أستاذه – عبد الصمد الأول بن عبد الصمد الحكيم الذي راح ضحية اتهامه بتهمة القرمطة فقُتل – حيث تشكك فيه محمود الغزنوي لولا أن ما سمعه عنه من أنه إمام وقته في علم النجوم والملوك لا يستغنون عن مثله، فتخلى عن قتله ولم يتخلّ عن شكّه فيه، فأخذه معه إلى غزنة [2] وقدّم خدماته لمحمود الغزنوي كفلكي[3] وتُعدّ الفترة التي أقام فيها البيروني في بلاط محمود الغزنوي من أثمر الفترات وأغزرها حيث أنتج فيها في مختلف العلوم [4] وكانت هذه الفترة منطلقا لرحلته إلى الهند مرافقا لمحمود الغزنوي.

ومن أبرز العوامل التي بدأت تمهد لعلاقة وطيدة بين البيروني ومحمود الغزنوي هــو تدخله في كثير من القضايا العلمية التي استعصت على محمود في حلها.[5]

جـ ـ أساتذته وعلمه:

ما يلاحظ في كتب التراجم أنها لم تتعرض لحياة البيروني في صغره إلى غاية بلوغه سن الثامنة عشر حيث بدأ هو يعطي بعض الإشارات عن حياته الخاصة ونشأته

---

1 علي الشابي: **الأدب الفارسي**، ص.280، 281، علي الشحات: **أبو الريحان البيروني**، ص.69.

2 **غزنة**: غزنين هذا هو اسمها الصحيح عند العلماء، فيما يقول ياقوت الحموي، وهو عند العامة غزنة كانت مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بينها وبين الهند، ظلت مقام بني السلطان محمود الغزنوي إلى أن انقرضوا. ينظر **المنجد في اللغة والأعلام**، ص.506.

3 أيم أيس خان: **البيروني رائد الدراسات الهندية**، ص.119.

4 الشحات: المرجع السابق، ص. 70.

5 مثل وفود السفير الصيني عليه وإخباره لمحمود بما شاهده وراء البحر نحو القطب الشمالي من أن الشمس تظل بازغة هناك ولا يظهر الليل البتة ، ولم يكن من محمود إلى أن حمل قوله كعادته على الإلحاد والقرمطة، وكاد أن يفتك بهذا السفير لولا أن أسرع البيروني إلى شرح العلاقة بين الأرض والشمس، وأكد له أن الصورة المحكية طبيعية عند القطبيين وهي حقيقة لا تقبل الإنكار. ينظر كتاب ياقوت الحموي ج17، ص.184، وكتاب الشحات، ص70.

العلمية والأساتذة الذين أخذ عنهم العلم[1]، يقول في كتابه "الصيدنة": « قد حظيت في غريزتي منذ حداثتي بفرط الحرص على اقتناء المعارف بحسب السن والحال ويكفي شاهدا عليه أن روميا حلّ أرضنا فكنت أجيء بالحبوب والبذور والثمار والنبات وغيرها وأسأله عن أسمائها بلغته وأحررها».

وهذا الأستاذ يوناني، حلّ في موطنه الأول خوارزم وهو غير معروف وكان أبو الريحان يجمع له الكثير من النباتات والأزهار ويسأله مستقصيا باحثا، ثم تلقى تربيته ودقة معارفه على يد العالم الرياضي أبي نصر منصور بن عراق [2] الذي لقنه كل ما وصلت إليه الرياضيات وعلم الفلك في ذلك الوقت، وقد أخذ أبو نصر علمه من يحي أبو الوفاء البوزجاني ويعتبر هذا الأخير مطور علم الرياضيات في عصره. وقد اعتبره علي أحمد الشحات [3] أنه هو أبو نصر منصور بن علي. لكن الراجح على ما يبدو أن البوزجاني هو أستاذ أبي نصر منصور الذي تربى على يديه أبو الريحان البيروني ويعترف أبو الريحان صراحة بفضل هذا الرجل عليه الذي أنشأه هذه التنشئة وتولى غراسه. حيث قال:

فآل عراق قد غذوني بدرّهم * ومنصور منهم قد تولى غراسيا[4]**

وتتلمذ أيضا على يد أستاذه عبد الصمد الأول بن عبد الصمد الحكيم هذا الذي ذكره ياقوت الحموي في إشارة أوردها في سبب ذهاب البيروني إلى غزنة حيث قال:« وحدثني بعض أهل الفضل أن السبب في مصيره إلى غزنة أن السلطان محمودا لما استولى على خوارزم قبض عليه وعلى أستاذه عبد الصمد الأول بن عبد الصمد الحكيم واتهمه بالقرمطة والكفر فأذاقه الحمام وهمّ أن يلحق به أبا الريحان فساعده فسحة الأجل بسبب خلصه من القتل».

---

1 علي الشابي: **الأدب الفارسي**، ص.264.

2 **أبو نصر:** منصور علي بن عراق سبق التعريف به في ص.150.

3 له كتاب البيروني حياته وأبحاثه.

4 قصيد أورده ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، القاهرة: دار المأمون، 1936م .ج.17، ص ص.180 –190.

ويبدو أن البيروني استفاد كثيرا من هذا الوقت بحكم تجربته السياسية كمستشار لخوارزم شاه، حيث عرف كيف يُعمِل الرأي والفكر ويبتعد عن التعصب فقد كان على جانب كبير من الدهاء والذكاء الخارق، علاوة على سعة الحيلة مما مكنه من أن ينال الحظوة والمكانة عند السلطان محمود الغزنوي [1] ولا ينال ما نال أستاذه عبد الصمد.

لم يكتف البيروني بما كان يتلقاه من أساتذته بحكم نباهة عقله المبكرة فقد اتصل بالعديد من فلاسفة عصره، وقرأ كل ما وصلت إليه يده من طب وفلسفة ورياضة وفلك وأديان، تأثر بآراء كل من الفارابي والكندي والمسعودي [2] كما قرأ كل ما وجده في مكتبة نوح بن منصور الساماني[3]، وقد تفطن لشيء لم نلحظه عند غيره من علماء المسلمين ، فقد أدرك أنه لا بد ليقول كلمة العلم في حضارة الإنسان وثقافته أن يتعلّم أكبر عدد من اللغات[4] فقد كان يحسن السريانية والسنسكريتية [5] والفارسية والعبرية، وكان يمتاز على معاصريه بروحه العلمية وتسامحه وإخلاصه للحقيقة، كما كان يمتاز بدقة البحث والملاحظة، ينقد فيصيب، يعتمد على المشاهدة ولا يأخذ إلا ما يوافق العقل[6]، وكان يلتزم الرجوع إلى المصادر الأصلية فيما يكتب التزاما صارما...

وقد ذكره محمد بن محمود النيسابوري فقال: « له في الرياضيات السبق الذي لم يشق المحضرون [7] غباره ولم يلحق المضمرون [8] المجيدون مضماره، وقد جعل الله

1 **الموسوعة الإسلامية للعلوم الاجتماعية**، صلاح مصطفى الفوال: **المدخل لعلم الاجتماع الإسلامي**، القاهرة: دار غريب، 1420هـ - 2000 م، ص. 165.

2 المسعودي: سبق الحديث عنه في الفصل الثاني.

3 صلاح مصطفى القوال: المرجع السابق، ص. 167.

4 الشابي: **الأدب الفارسي**، ص. 299.

5 اللغة السنسكريتية SANKRIT: هي لغة الهند القديمة، والسنسكريتية تعني اللغة المهذبة أو التامة، وهي الآن في الهند لغة الصفوة والخاصة منهم العلماء، أما عامة الشعب فيتكلمون لغة البركريت BARKRIT، والثابت أن البيروني تكلم اللغتين في إجادة بل وألف بعض كتبه بهما. صلاح مصطفى الفوال: **الموسوعة الإسلامية للعلوم الاجتماعية**، ص. 168.

6 قدري حافظ طوقان: **العلوم عند العرب**، مكتبة مصر ، 1956 ، ج. 9 ، ص ص. 164 – 169.

7 المحضرون: الذين يجهدون أفراسهم في العدو لتصل إلى الحضر لتسبق في المضمار.

8 المضمرون: الذين يقللون علفها فتصير ضامرة يرتفع عدوها فتحوز السبق في المضمار.

الأقسام الأربعة له أرضا خاشعة سمت له لواقح [1] مزنها واهتزت به يوانع نبتها، فكم مجموع له على روض النجوم ظله، ويرفرف على كبد السماء طله... وكان مكبا على تحصيل العلوم منصبا إلى تصنيف الكتب يفتح أبوابها، ويحيط بشواكلها وأقرابها[2] ولا يكاد يكاد يفارق يده القلم، وعينه النظر، وقلبه الفكر إلا في يومي النيروز».[3]

وكان أسلوبه في الكتابة لا تغلب عليه السهولة والسلاسة، إلا أنه بعيد عن الغموض، وهو لا يتردد في أن يعلن صراحة بأنه يكتب فقط للخاصة من العلماء الذين يفرض فيهم الإحاطة بمعارف العصر ، فيقول : « إني أخلي تصانيفي عن المثالات ليجتهد الناظر فيها ما أودعته فيها من من كان له دراية واجتهاد وهو محب للعلم ، ومن كان من الناس على غير هذه الصفة فلست أبالي فهم أم لم يفهم ».[4]

ويبدو أن البيروني كان له أثرا كبيرا في عصره سبق تأثير من عاصروه من العلماء كابن الهيثم، وابن سينا، وأبو بكر الرازي، والبوزجاني، وأبو سهل المسيحي، والخمار، وابن عراق... كان كل واحد منهم يمثل طابعا ثقافيا معينا، أما البيروني فقد تجاوز عن التخصص الضيق إلى التخصص في أغلب فروع العلم، فهو الجغرافي، الفلكي، الأديب، المؤرخ، الطبيب، الرياضي، وإلى هذا يعتبر أول من ابتكر منهجا متكاملا للبحث في العلوم الإنسانية عند المسلمين ونظر إليها نظرة عقلية تعليلية. [5]

فقد كان واسع المعرفة، شمل نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له والتي تحتل من بينها: العلوم الرياضية والفيزيائية المكان الأول بالنسبة له، بل وربما كانت أيضا العلوم التاريخية والطبيعية ليست أقل مكانة عنده من تلك... وكانت العلوم الاجتماعية

---

1 اللواقح: الريح اللاقحة التي تحمل ماء المزن (السحاب) إلى الأرض الجرز فتنبت.

2 القرب جمع قُربٌ: وهو من الشاكلة إلى مراق البطن والشواكل جمع شاكلة وهي من الفرس: الجلد بين عرض الخاصرة والركبة.

3 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ص ص. 180 – 190.

4 سخاو: **مقدمة الآثار الباقية**، ص. 70.

5 الشابي: **الأدب الفارسي**، ص. 296.

تمثل عند البيروني أهمية كبرى [1] وقد اعتبره ادوارد سخاو" Sachau " أكبر ظاهرة في تاريخ العلم في الحضارة الإسلامية. [2]

وقد تعرض أصحاب التراجم القدامى على قلتهم والمحدثون إلى الحديث عن تضلعه في مختلف العلوم وعن سلامة منهجه فقد وصفه الشهرزوري والبيهقي بأنه من أجلاء المهندسين ، وفلكيا لا يقل مكانة عن أبي معشر وأحمد بن عبد الجليل ، فحين أراد أن يبطش به محمود الغزنوي قيل له : إنه إمام وقته في علم النجوم ، وأن الملوك لا يستغنون عن مثله.[3]

وقال عنه ياقوت الحموي (ت. 626 هـ)، ذكره محمد بن محمود النيسابوري فقال: « له في الرياضيات السبق الذي لم يشق المحضرون غباره »[4] وقال فيه ابن أبي أصيبعة (ت. 668 هـ): «...كان منشغلا بالعلوم الحكمية ، فاضلا في علم الهيئة والنجوم، وله نظر جيد في صناعة الطب».[5]

وذكره ابن العبري (ت. 688 هـ) بقوله: « مبحر في فنون الحكمة اليونانية والهندية، وتخصص بأنواع الرياضيات وصنف فيها الكتب الجليلة ودخل بلاد الهند... وبالجملة لم يكن في نظرائه في زمانه وبعده إلى هذه الغاية أحذق منه بعلم الفلك ولا أعرف بدقيقه وجليله».[6]

---

1 كراتشكوفسكي إغناطيوس يوكيانوفتش: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تر. صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963 ، ج 1 ، ص ص. 245 – 271.

2 سخاو: **مقدمة الآثار الباقية**، ص. 70.

3 الشابي: **الأدب الفارسي**، ص. 297.

4 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ص. 180 .

5 ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ط. مصر: الوهبية، د.ت، ص.30.

6 ابن العبري: **مختصر تاريخ الدول** ، ط. بيروت: الكاثوليكية، د.ت ، ص. 324.

ووصفه جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي (ت. 911 هـ): « بأنه كان جليلا [1] وتوالت شهادات الأعلام والمستشرقين في أوصافه ...» وعن شمول علمه يقول بروكلمان" BROCKELMANN " : « درس الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ ... وأنه أوسع العلماء شمولا في داخل نطاق الحضارة التي ينتمي إليها ».[2]

وعن نبوغه وسعة إطلاعه يقول سارتون"GEORGE.SARTON" « كان البيروني باحثا فيلسوفا جغرافيا ومن أصحاب الثقافة الواسعة بل من أعظم عظماء الإسلام ومن أكابر علماء العلم »[3] ، ويقول شاخت Chakte: « والحق أن شجاعة البيروني الفكرية وحبه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم وحبه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه، كل هذه الخصال كانت عديمة النظير في القرون الوسطى، فقد كان البيروني في الواقع عبقريا مبدعا ذا بصيرة شاملة نافذة »[4]، واعترف سميث Smithe في تاريخ الرياضيات أن البيروني كان ألمع علماء زمانـــه في الرياضيات وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرهم في العلوم [5]، واعتبره جرجي زيدان من أشهر علماء الفلك والرياضيات من من المسلمين [6]، وقد تعرض كارادفو Carra De Vaux بجوانب ثقافته قائلا: « ونصل إلى رجل فكر من الطراز الأول يشغل مكانة خاصة في التأليف العلمي في القرون الوسطى وأعني البيروني، على الرغم من تقادم الزمن فإن البيروني يبدو في أيامنا هذه وجها فتيا في مضمار العلم متميزًا عن عصره وكأنما انفصل عنه ليقترب منا».[7]

1 السيوطي: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ، ص. 20.

2 بروكلمان : دائرة المعارف الإسلامية، ج.6، ص ص.397 – 399.

3 George.Sarton: **introduction to the history of science** , vol 1 ,from homer Omer Al Khayyam Baltimore , 1950 , p. 707

4 علي الشابي: **الأدب الفارسي**، ص.279.

5 قدري حافظ طوقان: **العلوم عند العرب** ، ج.4 ، ص ص. 164 – 169.

6 جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية** ، القاهرة ، دار الهلال ، د.ت ، ج.2 ، ص ص.396 – 398.

7 Carra de vaux, **Penseurs de l'islam**, vol 2, edition, pill gotense (paris), p p. 75 – 87.

إذن البيروني من الشخصيات العلمية الكبيرة في العصور الوسطى لا بين المسلمين فحسب، بل في العالم كله، حتى أن سارتون: Sarton سمّى عصره بعهد البيروني، وقد استطاع بفضل اكتشافاته في الرياضيات والعلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ، أن يجعل لنفسه مركزا للحركة العلمية في ذلك الوقت، وجاء في معجم الأدباء: « حدّث القاضي كثير بن يعقوب البغدادي النحوي في الستور عن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الولولجي[1] فقال: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه قد حشرج نفسه [2] وضاق به صدره فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوما حساب الجدات الفاسدة ؟[3] فقلت له إشفاقا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها، فأعدت ذلك عليه وحفظ وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ».[4]

فهو أنموذج فن للمثقف المسلم الذي تحظى بمقاييس عصره دون أن يجد له من يقفو أثره ويؤكد ما بناه، وهو أمر يستوقف الباحث، ذلك أنه لم يترك تلاميذ ينتسبون لمدرسته، وحتى من تتلمذ له كأبي الفضل السرخسي صاحب جوامع التعاليم [5] والكرديزي والكرديزي صاحب زين الأخبار [6] فإنهما لم يحملا لنا أثره مما يدل على أنه صاحب منهج علمي في التفكير، يبدو أن مثقفي عصره لم يستجيبوا لهذا المنهج الذي ابتكره.[7]

---

1 نسبة إلى ولواج مدينة بطاخرستان.

2 أي تردد في ضيق.

3 التي من قِبل الأم.

4 ياقوت الحموي : **معجم البلدان**، ص.17 –180 – 181.

5 سخاو: **مقدمة الآثار الباقية**، ص.37.

6 كراتشكوفسكي : **تاريخ الأدب الجغرافي الغربي**، ص. 245 – 271.

7 هناك دراسة للمنهج الذي ابتكره البيروني في جميع الدراسات العلمية وخاصة منهجه في التاريخ أعدها الطالب بوعناني شافع لنيل شهادة الماجستير، يمكن العودة إليها.

د ـــ وفاته:

هناك آراء متضاربة بين الباحثين عن التاريخ الحقيقي لوفاته، والمرجح أنه توفي سنة 440 هـــ / 1048 م [1]، ويرى المستشرق مايرهوف أنه لا يمكن أن تكون وفاة البيروني قبل عام 442 هـــ / 1050 م لأنه يقول في كتابه: " الصيدنة في الطب " إنه نيّف على الثمانين سنة هجرية ... فإذا صح ميلاده عام 362 هـــ تعين أن يكون على قيد الحياة عام 442 هـــ وتكون وفاته في تلك السنة أو بعدها.[2]

---

1 ذكر ياقوت: **إرشاد الأريب** قال: « ... ثم قام بغزنة حتى مات بها في حدود سنة 403 هـــ »، ج.6 ، ص.310، وفي **دائرة المعارف الإسلامية**: « وتوفي البيروني في الثالث من رجب عام 448 هـــ » المجلد 4، ص.398. وفي **موسوعة الإسلام الإنجليزية**: « توفي البيروني في 440 هـــ / 1048 م أو في 442 هـــ / 1050 م» ج.1، ص ص. 1236 – 1238. وفي **تاريخ آداب اللغة العربية**: « أنه توفي عام 440 هـــ » ج.2، ص.396. وفي **عيون الأنباء** أنه توفي في عشر الثلاثين والأربعمائة ، وفي **مقدمتي سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند**: أنه توفي ليلة الجمعة 02 من رجب 440 هـــ . وينظر أيضا مقالات بروكلمان وفيدمان عن البيروني. في **دائرة المعارف الإسلامية**.

2 مايرهوف : **دراسات في علم تركيب العقاقير العربية** عن علي الشحات: **أبو الريحان البيروني** ، ص. 72 .

المبحث الثاني: البيروني في الهند.. بين الرحلة والدراسة

أ ــ أسباب رحلة البيروني وظروفها:

سبق وأن قلنا أنّ البيروني أمضى جزءا كبيرا من حياته في كنف أمراء بيت مأمون بن مأمون أمير خوارزم ثم ارتحل سنة (391هــ – 1000م) إلى بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي تولى الحكم عام 387 هــ بطبرستان والذي اشتهر بتشجيع العلم والعلماء، وفي إقليم جرجان وطبرستان أتم تأليف كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية" وأهداه إلى شمس المعالي الذي كان قد تعرف عليه في بلده بخارى وصارت بينهما مودة، وقد قال في مقدمته: «فالشكر لله على ما أفاض من مننه على عباده بإقامة مولانا الأمير السيد الأجلّ المنصور ولي النّعم شمس المعالي أطال الله بقاءه...»[1] وكان شمس المعالي يحترمه ويقرّبه، وذكر ذلك أبو الريحان شعرا:

وشمس المعالي كان يرتاد خدمتي *** على نفرة مني وقد كان قاسيا [2]

وفي كتاب "الآثار الباقية" درس البيروني نظم الجماعات والطوائف المختلفة وعاداتهم وتقاليدهم وخص بالذكر منها الاحتفال بالأعياد الدينية وهنا نجد مجالا واسعا عن الهند التي لم يكن قد زارها أو ارتحل إليها وإنما قرأ عنها من خلال الكتب والتي وُجدت في مكتبات عصره، ومن الرحالة الذين جابوا الهند أمثال: المسعودي وأبو دُلف الذي التقى بالصاحب بن عباد[3] وترك لنا رسالة حول الهند كنا قد تطرقنا إليها في هذه الدراسة

---

1 البيروني: **الآثار الباقية**، ص.3.

2 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ص. 185.

3- **إسماعيل بن عباد** بن العباس الطاقاني: سبق التعريف به في ص.35.

وكان بينه وبين بني مأمون سجال ومنافسة على العلماء، وكان قابوس شاعرا، فقال الصاحب بن عباد:

قد قبس القابسات قابوس *** ونجمه في السماء منحوس

وكيف يرجى الفلاح من رجل *** يكون آخر اسمه بوس

ورد عليه قابوس قائلا: من رام يهجو أبا قاسم *** فقد هجا كل بني آدم

لأنه صور من مضغة *** تجمعت من نطف العالم

ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ص. 224.

السابقة بالإضافة إلى كتب الجغرافيا التي أشرنا إليها. والتي جعلت البيروني منذ كتابته للآثار الباقية يبحث عن طريق يؤديه إلى الهند حتى يكمل دراسته التي كانت تحتاج إلى المكاشفة وإلى المعاينة الميدانية.

ومعلوم أن البيروني لم يبق ملازما لشمس المعالي وفارقه لما أراده لنفسه [1] وازدادت حدّته مع أبنائه "دارا" و "منوجهر" اللذان كانا يميلان إلى الإسماعليين [2] بتأثير من قادة جنود قابوس، وكان أبو الريحان يحقد عليهم وكان يردد ما قاله الشاعر أبو سعيد بن دوست[3]:

رأيت لجند قابوس نفــوسا *** كأنّ بهنّ حيضا أو نفـــاسا

أظن نجومهم طلعت نحوسا *** فقد طبعت دار همهم نحاسا

وعلى إثر القبض على شمس المعالي عام (400هـ – 1010م) استأذن البيروني منوجهر الذي لقب بفلك المعالي، وتوجه إلى الجرجانية عاصمة خوارزم ليكمل نشاطه العلمي بعد أن فقد الاستقرار النفسي في السنين الأخيرة مع شمس المعالي والتحق بخوارزم ببلاط خوارزمشاه الذي يصفه البيروني بالفضل والشهامة والتدبير وحسن الخلق، وفي نفس الوقت يعترف له ببعض المساوئ كمَيْله إلى الاستهتار ويذكر أنه بقي

1 علي الشابي: **الأدب الفارسي**، ص. 271.

2 **الإسماعليون:** هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن أبيه، ولم يختلفوا عن بقية المذاهب الإسلامية إلا بهذا القول حتى خلافة المستنصر الفاطمي، فلما تولّى الخلافة بعده ابنه أحمد بن المستعلي انشق عن خلافته فريق من الإسماعليين، بزعامة الحسن بن الصباح، وبايعوا لأخيه نزار، وبعد أن فشلت ثورتهم في الإسكندرية، انتقل الحسن بن الصباح إلى قلعة الموت. عندما أعلن الحسن بن محمد زعيم النزاريين (558 هـ – 1162 م)، إلغاء الشعائر الدينية والامتناع عن إقامة الفرائض، أصبح النزاريون والحشاشون مغايرين لأصحاب المذهب الإسماعيلي الفاطمي في حين ظلوا يحملون اسم الإسماعيلية حتى اليوم، وهم أتباع آغا خان أما الآخرون فهم المعروفون اليوم باسم البهرة أو السبعية. **المنجد في اللغة والأعلام**، ص.45.

3 البيروني: **الجماهر في معرفة الجواهر**، ص. 238.

في خدمته سبع سنين (400هـ - 407 هـ)[1] حتى توفي، وكان بلاط خوارزمشاه من أهمّ مراكز النهضة الفكرية لذلك العصر.[2]

وفي عام (403 هـ - 1014 م) أرسل محمود الغزنوي طلبا لخوارزمشاه أبي العباس يدعوه فيه للخطبة له أيام الجمعة اعترافا بسلطانه عليهم وحمايته لهم، وبعد استشارة أبو الريحان وقادة جيشه الذين كان معظمهم من الإسماعليين، طلب أبو العباس من البيروني إقناعهم وطمأنتهم بأن الخطبة ستبقى كما هي عليه تثني على آل البيت دون ذكر اسم السلطان محمود الذي كانت تربطه علاقة مصاهرة مع أبي العباس إلاّ أنّ قادة الجيش لم يثقوا في أميرهم وقتلوه وكان أبو الريحان يدعوه بأبي العباس الشهيد أنار الله برهانه، فقام محمود بردة فعل عنيفة فأرسل جيشا ضخما وبطش بالثائرين وشردهم وأنقذ أخته وأولادها وحمل معهم أبا الريحان إلى غزنة.[3]

وفي هذه الظروف تبدأ مرحلة جديدة في حياة أبي الريحان وتنقلاته من غزنة إلى بلاد الهند، وإن كانت المصادر تختلف في سبب انتقاله إلى غزنة، يذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء يقول: "حدثني بعض أهل الفضل أن السبب في مصيره إلى غزنة أن السلطان محمودا لما استولى على خوارزم قبض عليه وعلى أستاذه عبد الصمد الأول بن عبد الصمد الحكيم واتهمه بالقرمطة والكفر فأذاقه الحمام وهمّ أن يلحق به أبا الريحان لولا فسحة الأجل... فأخذه معه ودخل إلى بلاد الهند وأقام بينهم وتعلم لغتهم واقتبس علومهم.[4]

ويذكر علي الشابي في الأدب الفارسي نقلا عن كتاب جهار مقاله أن محمود الغزنوي أرسل حسين بن ميكال إلى خوارزمشاه يطلب منه إلحاق العلماء الذين كانوا

1 المسامرة في أخبار خوارزم عن **تاريخ البيهقي**، ص.734 نقلا عن الشابي: **الأدب الفارسي**، ص.273.

2 جمع كثيرا من العلماء أهمهم (الإصخري الذي وصفه البيروني بالفضل والأدب وحسن الروية والترسل) ينظر البيهقي: المصدر السابق ص.735، والثعالبي صاحب "**يتيمة الدهر**" بالإضافة إلى أبي علي ابن سينا وأبي سهل المسيحي، وكان صديقا لأبي الريحان وهو أستاذ ابن سينا ومستشار خوارزمشاه، ينظر الشابي: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

3 البيهقي: **تاريخ البيهقي**، ص.739.

4 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج.17، ص.173.

عنده ببلاطه وهم: أبو علي ابن سينا وأبو سهل المسيحي وأبو نصر بن عراق وأبو الخير الخمار وأبو الريحان البيروني، فابن سينا وأبو سهل قالوا لا نذهب إليه، وأما أبو نصر وأبو الخير وأبو الريحان فقد رغبوا في الذهاب إليه وكانوا قد سمعوا بأخبار صلاته وهباته فأرسلهم خوارزمشاه مع حسين بن ميكال فجاءوا إلى حضرة السلطان محمود في بلخ والتحقوا بمجلسه [1]، وما يؤكد أن البيروني لم يلتحق بمحمود الغزنوي مع حسين بن ميكال هو عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين ما يعطي الترجيح إلى ما ذهب إليه البيهقي وياقوت الحموي من أن التحاقه بمحمود كان حين هاجر هذا الأخير إلى خوارزم وفتحها عام 408 هـ فقد ضم محمود البيروني وغيره من العلماء، وعرف البيروني كيف يتخلص من مرحلة الشك التي لازمته [2] مع محمود بعد سقوط خوارزم ويكسب وده بعد ما عرف محمود قيمة الرجل العلمية، يروي ياقوت أنّ السلطان محمود الغزنوي كان يحبّ أن يتداول مع البيروني في أمور السماء والأرض، وعندما واتت اللحظة التي كان ينتظرها البيروني حيث طلب من السلطان الاستدلال بقوله تبارك وتعالى ﴿ **وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا**﴾ [3]، أخذ أبو الريحان يشرح ذلك بما فيه من البرهان والاستدلال لإقناع السلطان، حول ما يُرى بالقطب من ظهور دورة الشمس كاملة كمالا بحيث لا يوجد به الليل.[4]

ويبدو أن هذه الجلسات جاءت بنتائجها وأدرك محمود حاجته لهذا الرجل المتضلّع في شؤون المعرفة ليس في غزنة وحدها بل في البلاد التي كانت تشغله منذ وقت بعيد حيث توجه محمود في عام (391هـ – 1001م) نحو حوض السند والبنجاب [5] وغَنِم

1 علي الشابي: **الأدب الفارسي**، ص.276.

2 البيهقي: **تاريخ البيهقي**، ص.158.

3 **قرآن كريم، سورة الكهف**، الآية 90.

4 الشحات: **أبو الريحان البيروني**، ص. 70.

5 أصبح لغزنة شأن عظيم في تاريخ الشرق كله، وبدأ ناصر الدين (سبكتكين) يوسع ملكه ففتح مدينة لمغان، وعندما توفي ناصر الدين سنة (388هـ – 998م) خلف ولده الأكبر إسماعيل ابن الأميرة التركية، ولكن أخاه محمود ابن الجارية الفارسية=

أموالا عظيمة [1] وغزا محمود الغزنوي الهند سبع عشرة مرة خلال سبعة وعشرين سنة من عام 391 هـــ وأعجب بتلك البلاد حتى فكر في الإقامة الدائمة بها، وظل أبناؤه يحكمون هناك قرابة قرنين من الزمن.[2]

ويبدو أن البيروني أدرك هذه الحاسة التي كانت عند هذا الرجل وكيف لا يحدث ذلك وهو المتمرس في معرفة الأمراء وأمزجتهم وميولهم، كما كانت فرصة ياما بحث فيها البيروني لمعرفة ثقافة ومجتمع الهند، فبدا له في غزنة أن يذهب إلى شبه القارة الهندية ليكشف النقاب عن دقائق هذا المجتمع.

وتبالغ بعض المصادر التاريخية في تحديد الفترة التي قضاها البيروني في الهند، فطبقا لبيان البيهقي والشهرزوري أن البيروني جال في الهند حوالي أربعين عاما.[3]

ويبدو هذا مناقضا إذا ما علمنا أن اتصاله بمحمود كان سنة 408 هـــ وأن وفاته كانت سنة 440هـــ، وبالتالي فهي رواية لا صحة لها، وقد ناقش حسن البرني ما ورد في المصادر التاريخية لسياحة البيروني في الهند ليست محلّ ثقة، فقد تأثّر بعض مترجميه بدراسته الواسعة لعلوم الهند، فبالغوا في تقدير مدة مكوثه في تلك البلاد، ولكني أظن أنه أنفق في الهند ما بين سبع أو عشر سنوات قبل إتمامه كتاب الهند، وذلك قبل وفاة السلطان محمود الغزنوي، وتُشعر بعض كتاباته أنه كان في غزنة في سنوات (409هـــ –411هـــ

=انتزع الملك من أخيه في نفس العام، وتوجه بعد ذلك لمقاومة السامانيين في بخارى وانتزع ملكهم فأنعم خليفة بغداد القاهر بالله لقب يمين الدولة وأمير الملة لاعتناقه المذهب السني، وفي عام (390 هـــ – 1000 م) توجه السلطان محمود لقتال ملك التتار "إيلك خان" واقتسم معه تركة آل ساسان واستقل بحكم خراسان وغزنة، وفي عام (391 هـــ – 1001 م) توجه محمود إلى البنجاب وحوض السند وواجه الملك البوذي " كنك" وهو الذي ينسب إليه معبد البهار في برشاور، والملك البراهمي "جايبال". ينظر البيروني: تحقيق ما للهند، ص. 348، ابن كثير: **البداية والنهاية** ، المنصورة: مكتبة الإيمان، د.ت، ج11، ص.330.

1 ابن كثير: المرجع السابق، ج11، ص.330.

2 أحمد محمود الساداتي: **تحقيق ما للهند. كتاب تراث الإنسانية**، القاهرة، 1965، العدد2، المجلد2، ص. 135.

3 البيروني: **مقدمة الآثار الباقية**. ص. 52–53.

–416هـ –417هـ) والسنوات التالية، فلذا لا أرى أنه مكث في الهند سنوات متتابعة بل كان يتردد إليها من حين لآخر أثناء إقامته بغزنة، ويستعين بعلمائها البراهمة.[1]

وتتمحص البحوث الحديثة عن نتيجة مفادها أنه زار مناطق الشمال الغربي للهند مثل "كاندي" و"دون بوز" و"لامغهان" و"بورشوار" و"يهندي" و"جهيلم" وقلعة "باندان" و"سيالكوت" و"مانداكهاكر" و"ملتان" و"لاهور" و"راجيكز" و"السند" و"جبال كشمير" بين (408هـ– 1017م و421هـ – 1030م).[2]

ولم تثبت الدراسات إلى اليوم أن البيروني زار جنوب الهند، وقد تناول أبو الكلام آزاد قضية إقامة البيروني وسفره في الهند ولا على أساس الحقائق المسجلة في كتاب "الهند" فحسب بل أيضا بعد دراسة كتابيه "القانون المسعودي" و"كتاب الصيدلة" فقد توصل إلى نتيجة أنه أقام بالهند لتسع أو عشر سنوات بعد (410هـ – 1019م) مضيفا أنه أقام بزيارة شاملة للسند والبنجاب وكشمير.

وبما أن هذه النتائج معتمدة على البيانات الذاتية للبيروني فلا تخلو من مجال الشك، وإقامته لم تكن مستمرة ولم يمكث هنا لمدة طويلة بالاستمرار والبيان الذي يقول إنّه لم يقم في الهند لأكثر من عامين تنقصه الصحة.[3]

والذي يمكن قوله أنه كان كثير التردد على الهند في فترات متقطعة صحبة محمود وقد مكّنته هذه الرحلات من استيعاب دقائق المجتمع الهندي وخلال هذه الفترة ما بين (408 هـ –1017م و421هـ – 1030م) أتيحت للبيروني فرص كافية كمشاهد ذكي لمشاهدة الحياة الاجتماعية للهنود ذاتيا ولدراسة ديانتهم وفلسفتهم وثقافتهم وحضارتهم.

---

1 أمين سليمان سيدو: **أبو الريحان البيروني** ، مطبعة الملك فيصل سنة 1999، ص21. نقلا من مجلة ثقافة الهند بموضوع **جهود المسلمين في الجغرافيا** لحسن البرني، العدد سبتمبر 1952، ص.66.

2 البيروني: **تحقيق ما للهند** ، طبعة حيدر آباد، ص.270.

3 أيم أيس خان: **البيروني رائد الدراسات الهندية** ترجمة: صهيب عالم مجلة ثقافة الهند، نيودلهي، مج 56، عدد 3 – 4 – 2005.

ب ـــ أقوال العلماء في الرحلة:

1 ـــ الدارسون العرب:

تطرقنا في هذه الدراسة إلى مكانة البيروني العلمية وفضله على مختلف العلوم والمعارف إلاّ أننا لا نجد في بعض كتب التراث الغربي إشارات إلى البيروني أو مؤلفاته التي فتحت آفاقا علمية جديدة أمام الفكر الإنساني في عدة مجالات معرفية.

حيث برع في علم الفلك، والطب والرياضيات والتاريخ، والأدب، والجغرافيا، والفيزياء، والصيدلة، وعلوم الأرض، كل هذا وقد أهمل ذكره ابن خلكان في الوفيات [1]، وابن الأثير في تاريخه [2]. وكانت رحلته إلى الهند لبنة جديدة لأحدث الطرق في البحث السوسيولوجي المعاصر وهي طريقة « الملاحظة بالمشاركة » فهو أول من ابتكر وطبّق هذه الطريقة [3] ولمّا كانت هذه القيمة عند هذا الرجل تنازعت الأمم غير العربية في نسبته إليها فيرى علماء روسيا أن البيروني يمثل القومية الأوزبكية، حيث تضم تلك الجمهورية أي جمهورية أوزبكستان، بلاد سمرقند، وطشقند، زكاري وترمذ، وجمهورية طاجكستان التي تقع حاليا في حدود أفغانستان حيث قضى البيروني فترة من حياته في تلك الجمهوريتين.[4]

ومن أبرز من تطرّق إلى البيروني وعلاقته بالهند ظهير الدين البيهقي (ت: 565هـــ) الذي قال فيه: «من أجلاء المهندسين وقد سافر في بلاد الهند أربعين سنة

---

1 أمين سليمان سيدو: **أبو الريحان البيروني**، ص. 47.

2 ذكره ابن الأثير الكبير في كتاب "اللباب في تهذيب الأنساب"، (ط. مكتبة القدس، د.ت)، ج 1، ص.160، حيث قال البيروني بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحرف وضم الراء وبعدها الواو في آخرها النون والمشهور بهذه النسبة أبو الريحان البيروني مصنف كتاب التفهيم وغيره، توفي في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة.

3 صلاح مصطفى الفوال: **المدخل لعلم الاجتماع الإسلامي**، ص. 168. للاستزادة في هذا الموضوع، انظر كتاب **علم الاجتماع في عالم متغير**، الجزء الخاص بالبيروني، ص ص. 118 – 130 لنفس المؤلف.

4 علي الشحات: **أبو الريحان البيروني**، ص. 73.

وصنف كتبا كثيرة» [1]، وذكره ياقوت الحموي (ت: 626 هـ) في معجم الأدباء وقد استشهد ياقوت بكثير من الذين سبقوه وذكروا البيروني أمثال: محمد بن محمود النيسابوري، والقاضي كثير بن يعقوب البغدادي النحوي الذي أخذ عن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الولوالجي، أما عن رحلته إلى الهند يذكر ياقوت الحموي بأن أحدا من أهل الفضل حدّثه: «... أن السبب في مصيره إلى غزنة... فسحة الأجل... فأخذه محمودا معه ووصل إلى بلاد الهند وأقام بينهم وتعلّم لغتهم واقتبس علومهم ثم أقام بغزنة حتى مات بها» [2]، وذكره ابن أبي أصيبعة (ت: 668 هـ) [3] لكنه لم يُشر إلى رحلته إلى الهند سوى أنه نسبه إلى هذه البلاد عند تعريفه له حيث قال: «هو الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني منسوب إلى بيرون وهي مدينة في السند ثم عدّد كتبه».[4]

وذكر ابن العبري (ت: 688هـ) البيروني وقال فيه: « اشتهر بعلوم الأوائل وهو مبحر في فنون الحكمة اليونانية والهندية... وعن رحلته إلى الهند قال: ودخل إلى بلاد الهند وأقام بها عدة سنين وتعلّم من حكمائها فنونهم وعلّمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم ومصنفاته كثيرة متقنة محكمة غاية الأحكام وبالجملة لم يكن في نظرائه في زمانه وبعده إلى هذه الغاية أحذق منه بعلم الفلك ولا أعرف بدقيقه وجليله»[5] وكما تحدث جلال الدين عبد الرحمان السيوطي الشافعي (ت: 911 هـ) عن البيروني[6] لم يضف شيئا جديدا عنه لأنه نُقل حرفيا عن ياقوت الحموي وعندما كتب أحمد بن مصطفى ـ المعروف بطاش الكبري زاده المتوفى سنة 962 هـ ـ كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة [7]، تحدث

---

1 ظهير الدين البيهقي: **تاريخ البيهقي**، ص. 72.

2 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج17، ص ص. 180 – 184.

3 ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ج2 ، ص. 30.

4 ذكرنا في الفصل الثاني من هذا البحث حقيقة بيرون التي ينسب إليها البيروني وما قال العلماء في هذه التسمية.

5 ابن العبري: **مختصر تاريخ الدول**، بيروت: طبعة الكاثوليكية، د.ت، ص. 324 – 325.

6 جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ط. بيروت: دار المعرفة، د.ت، ص. 20.

7 أحمد بن مصطفى: **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، ط. بحيدر آباد، الدكن، الهند: دائرة المعارف النظامية، 1305 هـ، ج1، ص ص. 276 – 309 – 319.

عن علم أحكام النجوم وعلم الهيئة وعلم تسطيح الكرة وفي كل هذه العلوم ذكر البيروني كعالم حاذق في فقهِه دون أن يشير إلى سفره إلى الهند. ونهج إسماعيل باشا البغدادي المتوفى سنة 1339هـ نهج من سبقوه في نسب البيروني إلى السند وعدّد من كتبه ستين كتابا ويبدو أنّ كتاب "تحقيق ما للهند" هو الذّي سّماه – مفتاح علم الهند – في الكتب التي ذكرها.[1]

وفي القرن الماضي اهتم الكثير من الباحثين العرب بتراث البيروني خاصة ما يتعلق بالهند وأبحاثه العلمية فيها. وربما يعود ذلك لعدة أسباب أهمها استقلال الهند. ومحاولة العالم الإسلامي رد العلاقات التاريخية الّتي كانت تجمع البلاد بالعالم العربي الإسلامي وقد تبادل العلماء العرب مع الهنود هذا الشعور، فظهرت عدة دراسات تأصل لهذه العلاقة فكتب محمد كرد علي (ت: 1373هـ– 1953م). عن البيروني وذكر أنه من تصفح كتاب الهند والآثار الباقية يدرك مكانة هذا العالم الذي لم يترجم له مترجموه بما يستحقه من التوسع... وهو الذي أتى أمته بجديد وخدمها... دخل البيروني الهند مع ابن سبكتكين لما فتحها وأقام بينهم... وفيها ألّف كتابه الذي لا نظير له في حرية الفكر وإنصاف المخالف في الدين والمذهب المعنون بـ: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" فهو من أجلّ الأسفار التي وضعها علماء الإسلام في الملل والنحل.[2]

وقد تناول أبو الكلام آزاد قضية إقامة البيروني وسفره للهند[3] في نفس هذه الفترة مما يدل على العلاقة التي بدأت تتشكل في هذه المرحلة ما بين العلماء المسلمين الهنود والعرب وإعادة بناء ما خرّبه الاستعمار، وقد بدأت مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد طباعة تراث البيروني، وكان كتاب تحقيق ما للهند واحدا من هذه الكتب المطبوعة سنة (1377 هـ – 1958 م)، لأن المتتبع لآثار الدارسين باللغة العربية لتراث البيروني

---

1 إسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين في أسماء المؤلفين** ط. البهية استانبول، 1955، ج. 2، ص. 65 –66.

2 محمد كرد علي: **كنوز الأجداد** ط. دمشق: الترقي، 1370 هـ – 1950 م، ص ص. 238 – 240.

3 أبو الكلام آزاد: **أبو الريحان البيروني وجغرافية العالم**، ثقافة الهند ، نيودلهي، جوان 1952 م، ص ص. 2 – 33.

يلاحظ أنّ مجمل الدراسات الخاصة أو العامة بالبيروني بدأت من هذه المرحلة. وموضوع رحلته إلى الهند واحدا من هذه الدراسات التي لا يزال البحث قائما حولها إلى هذه اللحظة، لأن مسألة إقامته بالهند وعدد رحلاته إليها والمدن التي زارها وخطّ سير رحلته كلها مجالات لا تخلو من الشك ولا يزال التحقيق قائما حولها، أما إذا أردنا أن نبحث في كتاباته عن الهند والهنود وثقافتهم مقارنة مع الآخرين فهي أكثر موضوعية ودقة، أما الاعتراف التاريخي في هذه المرحلة فقد ذكرناه عند الأقدمين ونضيف إلى المعاصرين ما ذكره زكي محمد حسن في كتابه الرحالة المسلمون في العصور الوسطى أن البيروني كان من العلماء المسلمين الذين كان للرحلات أكبر الفضل في علمهم... أتيح له أن يصحب السلطان محمود الغزنوي في فتوحاته إلى الهند، وقام برحلات طويلة في تلك البلاد، وتعلّم لغاتها، وضبط مواقع مدنها وأصلح بعض البيانات الجغرافية الخاطئة التي كانت مدونة عنها، وأفاء مما جمعه خلال أسفاره في تأليفه: "كتاب تاريخ الهند"... والحق أن كل ما كتبه عن الهند يشهد بسعة إطلاعه ودقة ملاحظاته، وبأنه جال طويلا في تلك البلاد، فعرف البلاد أخبار أهلها ودرس عاداتهم ومظاهر حضارتهم.[1]

وجاء في كتاب الرحلة عند العرب أن أبا الريحان قام بعدة رحلات علمية في بلاد الهند التي قضى فيها نحو أربعين سنة ووضع كتابه تاريخ الهند[2] وفي كتاب الرحلة والرحالة المسلمون جاء أنه أتيح للبيروني أن يصحب محمودا الغزنوي في فتوحاته بالهند... ويحدثنا البيروني عن جهاد الغزنوي في سبيل نشر الإسلام في الهند فيقول: «وكان يرمي من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام في هذه البلاد ليكون ذلك كفارة لما كان من قتال المسلمين ولذلك فرض على نفسه كل عام غزو الهند...» وتناول البيروني في كتاب تاريخ الهند معرفة الهنود التامة بعلوم الهيئة.[3]

1 زكي محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص ص. 54 – 55.

2 حسني محمود حسين: **أدب الرحلة عند العرب** ، دار الأندلس، بيروت، 1403هـ – 1983م، ص. 13.

3 أحمد رمضان أحمد: **الرحلة والرحالة المسلمون**، ص ص. 137 –143.

وأكد قدري حافظ طوقان (ت: 1392هـ– 1972م) هذه الرحلة في دراسته المتنوعة حول البيروني ومآثره أنه ذهب إلى الهند وساح فيها وبقي هناك مدة تزيد على أربعين عاما قام خلالها بأعمال جليلة في ميدان البحث العلمي، فجمع معلومات صحيحة عن الهند لم يتوصل إليها غيره واستطاع أن يلم شتات كثير من علومها وآدابها وأصبح بذلك من أوسع علماء العرب والإسلام اطلاعا على تاريخ الهند ومعارفها[1] وأضاف الأستاذ عمر فروخ في تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون أن البيروني رافق محمودا الغزنوي في غزواته في شمالي غربي الهند... ودرس لغتهم والديانات الهندية وكان هذا نادرا بين العرب[2] وفي دراسة لكتاب تحقيق ما للهند أعدّها محمود الساداتي يقول فيها أن البيروني صاحب محمودا ثلاثة عشرة مرة في غزواته الهندية أتيح له فيها أن يحيط بعلوم الهند ويقرأ أسفارها ويخالط علمائها... حتى خرج علينا بموضوع مقالنا: حضارة الهند ومدينتها.[3]

وعلى الرغم من جميع البحوث والدراسات التي أنجزت عن البيروني من طرف الدارسين العرب والمسلمين فلا يزال هناك الكثير ينتظر الإنجاز خاصة ما يتعلق بثقافة الهند في فكر أبي الريحان البيروني.

---

1 قدري حافظ طوقان: **العلوم عند العرب**، سلسلة الألف كتاب ، ط. مكتبة مصر، 1956 ج. 4، ص.164، وله كتاب علماء العرب وما أعطوه للحضارة ط. بيروت: دار الكتاب العربي، 1400هـ – 1980م، يتناول فيه انتقاد البيروني للمنهج الذي اتبعه الهنود في البحث العلمي.

2 عمر فروخ: **تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون**، ط. بيروت: دار الكتب ، سنة 1972م، ص.344.

3 أحمد محمود الساداتي: **حضارة الهند ومدينتها**، كتاب تراث الإنسانية العدد 2 المجلد 3، ص ص.126– 139.

2 ـ المستشرقون:

يعتبر كارل إدوارد سخاو Carl Edward Sachau (1261هـ - 1349هـ / 1845م – 1930م): المستشرق[1] الأول الذي اطّلع على بعض مؤلّفات البيروني مثل: "الآثار الباقية" وكتاب "تحقيق ما للهند" الذي يؤرخ لرحلة أبي الريحان في الهند، فقد اعتنى بطبعه في لندن سنة 1887 م ثم ترجمه إلى الإنجليزية في سنة 1888م، ووَضَع له مقدمة وهو يعرف عموما باسم "كتاب الهند" أو "أنديكا Indica" ونشرت دائرة المعارف بالجامعة العثمانية الكتاب عام 1958م وقد أصبح في متناول الأيدي منذ سنوات السبعينيات للقرن 19م بفضل مجهودات العلامة سخاو[2]، بعد تأكيده لرحلة البيروني يقول سخاو: «في وقت ما كان الإسلام منتشرا في جميع أنحاء الهند، قدم البيروني تفاصيل عن المجتمع الهندي آنذاك وما ساعده ليس معرفته للسنسكريتية فقط بل علاقاته الذاتية مع البندات والشاترى (علماء وفقهاء الدين الهندوس) وإقامته في الهند على فهم ثقافتهم وحضارتهم ونظامهم الاجتماعي، لكن رابطته كانت مقتصرة على البراهميين المثقفين الهندوس من الطبقات العليا في شمال الهند» وبيانات أولئك التجار العرب والفرس والملاحين والرحالين الذين زاروا الهند قبل البيروني موجزة وناقصة وفي معظم الأحيان غير صحيحة، وتتأثر كتاباتهم بالعديد من الأخطاء وتوجد هذه الأخطاء أيضا في كتابات الكتّاب العرب والفرس الذين كتبوا بعدهم حول الهند، وخلال إصدار الحكم عن البيروني بالنسبة لأسلافه، نصل إلى نتيجة هي: أن أعماله أحرزت قدم السبق وربما لا يوجد له نظير في وصف الفلسفة الهندوسية وكان نظامه في علم التاريخ وعلم الفلك أتم وأدق

---

1 **كارل إدوارد سخاو** Carl Edward Sachu: (1261هـ – 1349هـ / 1845م – 1930م) مستشرق ألماني تعلم العربية في بلاده، وعين سنة 1869 م أستاذا للغات السامية في جامعة فيينا، وفي سنة 1876م أستاذا للغات الشرقية في برلين، ساح في الشام والعراق، ونشر كتابا بالألمانية عن رحلاته وأنشأ المدرسة الشرقية ببرلين، ومما نشره بالعربية "الآثار الباقية عن القرون الخالية "، "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " كلاهما للبيروني، وأربعة مجلدات من طبقات بن سعد وأكمله غيره والمعرّب من الكلام الأعجمي للجواليقي.

2 كراتشكوفسكي: **البيروني وجغرافيو القرن الحادي عشر بالمشرق**، ص. 253.

مقارنة مع ما كان يوجد من ذي قبل... وكذلك الأبواب الهامة حول الأدب والأخلاق والأعياد والمهرجانات وعلم الجغرافيا.[1]

وقد خصص الأستاذ إغناطيوس يوكيا نوفتش كراتشكوفسكي[2] حيزا كبيرا من الدراسة لشخصية البيروني ولرحلته إلى الهند وناقش العلاقات التي كانت تربطه مع مرافقه محمود الغزنوي، كما أشار إلى كتاب الهند بالتعريف والتحليل فقد اعتبر الكتاب من طراز آخر يقف فريدا في نوعه إلى يومنا هذا.[3]

وبحكم الاهتمام الجغرافي لهذا المستشرق فقد أعجب بالبيروني في طريقة عرضه لجغرافية الهند وتصحيحه لكثير من الأخطاء حيث تتخذ أهمية استثنائية ظاهرة خاصة هي أنه إلى جانب المادة الجغرافية التي يحتويها الكتاب بصفة عامة فهو يكشف عن معرفة عميقة بالتصورات الجغرافية لدى الهنود.[4]

كرادي فو Carra De Vaux (1359هـ - 1939م)[5]: يتناول هذا المستشرق شخصية البيروني في كتابه "مفكرو الإسلام" [6] ويسميه العالم الكبير عن الهند. فهو فيلسوف ومؤرخ ورحالة ولغوي وباحث وشاعر ورياضي وفلكي وجغرافي... وباستيلاء

---

1 مقدمة سخاو Edward C Sachu , **Introduction to the Indica** .p. xxxviii..

2 **إغناطيوس كراتشكوفسكي** Ignaij Julianovie krackoviskij ولد في 16 مارس 1883م، أمضى طفولته في طشقند حيث تعلم اللغة الأوزبكية، درس اللغات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية، بدأ يتعلم العربية بنفسه، وفي عام 1901م التحق بكلية اللغات الشرقية في جامعة سان بترسيرج، ودرس عددا من اللغات منها العبرية والحبشية والتركية والفارسية، درس التاريخ الإسلامي على يد المستشرق بارتولد، زار العديد من الدول العربية والإسلامية من تركيا وسوريا ولبنان ومصر، وتعرف إلى العديد من أعلام الفكر العربي الإسلامي منهم الشيخ محمد عبده ومحمد كرد علي وغيرهما، اهتم بالشعر العربي في العصر الأموي وفي العصر العباسي.

3 كراتشكوفسكي: **البيروني وجغرافيو القرن الحادي عشر بالمشرق**، ص. 259.

4 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5 المرجع نفسه، ص. 60.

6 **كرادي فو** Baron Bernard Carra De Vaux: مستشرق فرنسي ولد في مدينة بار في 3 فبراير 1867 م، دخل كلية الهندسة 1886، تفرغ للخدمات الاجتماعية وللأشعار والبحث التاريخي، عين أستاذا في المعهد الكاثوليكي باريس فقام بتدريس اللغات الشرقية وخصوصا اللغة العربية، من إنتاجه العلمي: عقيدة الإسلام، العبقرية السامية والعبقرية الآرية في الإسلام، لكن مؤلفه الرئيسي هو مفكرو الإسلام. ينظر عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، د.ت،ص. 462.

محمود الغزنوي على البلاد ــ ويقصد خوارزم ــ أخذ معه البيروني وعلماء آخرين إلى أفغانستان في عام 408 هــ، وهنا تبدأ فترة جديدة من النشاط، فقد زار خلالها وأقام فيها، وروى البيهقي أنه سافر في بلاد الهند مدة أربعين سنة ولكن من المؤكد أن هذا الرقم يشتمل على كثير من المبالغة، بينما ياقوت الحموي يكتفي بالقول أنه عاش في الهند طويلا ودرس لغة وعلوم سكانها... ثم تطرق إلى التعريف بكتبه، وأهم ما جاء فيها من الأفكار[1]، ويبقى تأكيدا لرحلة البيروني إلى الهند هو ما يهمنا في هذه الدراسة.

بروكلمان كارل (ت: 1376هــ - 1956م)[2]: أعطى للبيروني مجالا واسعا من دراساته، وعن رحلته إلى الهند يقول: « وذهب البيروني في حداثته إلى الهند وكانت قد دخلت في الإسلام وقتذاك بفضل الحملات المظفرة التي قامت بها جيوش محمود الغزنوي ودرس هناك العلوم اليونانية، وأخذ يستقي من مناهل الثقافة الهندية، وضَمن خلاصة هذه الدراسات كتابه الثاني الكبير تاريخ الهند... إلى أن يقول ولما عاد من الهند استقر في بلاط الغزنوي وأهدى إلى السلطان مسعود بن محمود عام421 هــ رسالة في علم الفلك عنوانها القانون في الهيئة والنجوم».[3]

بوالو جاك D.J Boilot: يعتبره هذا المستشرق من كبار العلماء في القرون الوسطى وبعد أن يسرد مراحل حياة البيروني يتناول رحلته إلى الهند انطلاقا من مرافقته للسلطان محمود في كثير من الحملات العسكرية في شمال غربي بلاد الهند وهناك درس

---

1 كرادي فو: **مفكرو الإسلام** ، ط. باريس: بول غونتر، 1921 م، ج. 2 ، ص ص. 75 – 87.

2 **بروكلمان** Carl Brockelman (17 / 09 / 1868 – 06 / 05 / 1956): ولد بمدينة روستوك، في المدرسة الثانوية بدأ يظهر ميوله إلى الدراسات الشرقية، التحق بجامعة روستوك في 1886، لكنه كما قال: «درست إلى جانب الشرقيات الفيولوجيا الكلاسيكية والتاريخ» في 1890 عين مدرسا في المدرسة البروتستانتية، اهتم بتطور اللغات المعروفة في التاريخ، وأصدر موجزا صغيرا في النحو المقارن للغات السامية. ينظر عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين** ، ص. 98.

3 بروكلمان كارل: **في تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر. نبيه أمين فارس، منير بعلبكي ، ط.4، بيروت: دار العلم للملايين، 1965، ص. 268– 269، وينظر **دائرة المعارف الإسلامية**، تر. الشرقاوي، ج. 6، ص ص. 397– 399.

العلوم وتعلم السنسكريتية وعدة لهجات ضمن رحلته في مؤلفه هذا البيروني الذي يصف فيه بلاد الهند.[1]

وقد ذكر المستشرق **توماس أرنولد** Arnold thomas [2] في كتاب " تراث الإسلام" مجموعة من المستشرقين الذين تحدثوا عن البيروني كعالم وكرحالة منهم ج. هـ. كرامز الذي يصف البيروني بالعظيم، ويذكر من مؤلفاته الشهيرة كتابه الخالد في وصف بلاد الهند.[3]

وفي مجال العلوم والطب نجد الدكتور ماكس مايرهوف [4] الذي له دراسات في علم تركيب العقاقير العربية وكان كتاب الصيدنة من أهم كتب البيروني مرجعا له يصف أبا الريحان بالعبقري العالمي الواسع الإطلاع، أما عن رحلته إلى الهند فيقول «ودراساته الهندية معروفة... ومن المحقق أنه يمكننا الحصول على معلومات مهمة من كتبه عن أصل الأحجار والعقاقير الهندية»[5] لأنه لا يمكن معرفة هذه العقاقير إلا من رجل وطأت أقدامه بلاد الهند.

1 **الموسوعة الإسلامية:** الطبعة الجديدة، 1960، ص. 1273. وينظر بوالو جاك: **الرحلة الطويلة في صحبة عالم مسلم خلال عالم مضطرب**، رسالة اليونسكو، جويلية 1974، العدد 157، ص ص. 10- 16.

2 **توماس أرنولد** Sir Thomas Walker Arnold (1864 – 1930): مستشرق إنجليزي متعاطف مع الإسلام، تعلم في مدرسة بلايموث الثانوية، ثم انتقل إلى مدرسة مدينة لندن في 1880، ثم التحق بكلية المجدلية، بعد أن نجح في دراسة الكلاسيكيات، أمضى السنة الرابعة في كمبردج متوفرا على دراسة تاريخ الإسلام، في سنة 1898 عين أستاذا للفلسفة في الكلية الحكومية، من إنتاجه العلمي الدعوة الإسلامية، الدين الإسلامي... ينظر عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، ص. 9.

3 توماس أرنولد: **تراث الإسلام**، تر.جرجيس فتح الله ، بيروت: دار الطليعة، 1972، ص ص. 134-138.

4 **مايرهوف** Max Meyrhof: (21 / 3 / 1847 – 1945): هو من أعظم الباحثين في تاريخ الصيدلة والطب العربي، ولد في ألمانيا تعلم ماكس في مدارس هانوفر، ودرس الطب في جامعات هيدلبرج وبرلين، عمل لمدة عام مساعدا في عيادات طب العيون في برلين، وفي سنة 1900 استقر في مدينة هانوفر طبيبا للعيون، ينظر عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، ص. 540.

5 – توماس أرنولد: **تراث الإسلام**، ص476-477.

وكتب الأستاذ هلموت رتر Hellmut Ritter [1] كتاب باتنجل لأبي الريحان البيروني وهو أحد الكتب التي ترجمها أبو الريحان إلى العربية، واعتمد عليه كثيرا في تخريجه لكتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" أما عن رحلته إلى الهند يقول هلموت رتر « فتحت غارات محمود الغزنوي على بلاد الهند أفقا جديدا واسعا للبيروني فتعلم اللسان الهندي وترجم كتبا من الهندية إلى العربية كل ذلك إخلاصا للعلم وإيثارا للحق من غير غرض».[2]

ويبدو أن الدراسات التي وضعها المستشرقون عن البيروني في المجالات المختلفة التي بحث فيها هي أكثر من الدراسات التي قام بها المسلمون والعرب على حد سواء لهذا اكتفينا ببعض هؤلاء خاصة الذين أشاروا إلى رحلة البيروني إلى بلاد الهند من الذين ذكرناهم.

1 **هلموت رتر** Hellmut Ritter (1892 – 1971): مستشرق ألماني اشتهر بتحقيقاته لمخطوطات عربية وفارسية، انحدر من أسرة بروتستانتية كثر فيها القساوسة، تتلمذ على المستشرقين من بينهم تيودور نيلدكه وكارل بروكلمان، تحصل على الدكتوراه الأولى في 1913، عمل رتر ترجمانا في الجيش الألماني المحارب في تركيا والشرق الأوسط لما قامت الحرب العالمية الأولى، من مؤلفاته: مقالات الإسلاميين، الوافي بالوفيات، فرق الشيعة...، ينظر عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، ص.277.

2 صلاح الدين المنجد: **المنتقى من دراسات المستشرقين**، القاهرة: مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر،1955، ص59-73.

جـ ـ مصادره:

قضى البيروني وسط حياته في الهند عالما ومتعلما وباحثا عن الحق والحقائق لمدة 13 سنة [1] حيث تعلم السنسكريتية وقام بتلخيص ونقل كتب عديدة إلى اللغة العربية وتجول في البنجاب وحدود كشمير، قال الطبيب غلام جيلاني في تاريخ الأطباء باللغة الأردية: أن البيروني غير ملابسه متنكرا بأحد معابد أجمير الهندوسية ومكث لمدة طويلة متعلما وباحثا عن الحق والحقائق حتى تمكن من جميع المعلومات لتأليف كتاب الهند والهنود[2] ويتأكد هذا الكلام من كلام البيروني نفسه وهو يجول في الهند حين يقول : « إني كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل وأشير إلى شيء من البراهين...» [3] وفي موقع آخر يقول: « ولقد أعيتني المداخل فيه ـ أي الكتاب ـ مع حرصي الذي تفردت به في أيامي وبذلي الممكن غير شحيح عليه في جمع كتبهم عن المضانّ واستحضار من يهتدي لها من المكامن ومن لغيري».

وقد ذكر أبو الريحان في كتابه أسماء كتب عديدة قرأها وعلم ما فيها سواء ما يتعلق بالديانة مثل كتاب "سانك" و"باتنجل" وقد ترجمه إلى العربية [4] وكتاب "بشن" و"كيتا"

---

1 يذكر قدري حافظ طوقان في كتابه تراث العرب العلمي أنه مكث 40 سنة في الهند وهذا على ما يبدو بناه على بيان البيهقي والشهرزوري حيث قال بأن البيروني جال في الهند حوالي 40 سنة.

2 شفيق أحمد خان الندوي: **الهند كما يراها أبو الريحان البيروني** ، ص. 308.

3 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 20.

4 يفيد البيروني قراءه بأنه ترجم كتاب " العناصر Elements " ليوكليد وكتاب "علما غيس Almagest " لتوليمي إلى اللغة السنسكريتية بالإضافة إلى كتبه العربية حول علم الفلك ، وكذلك كتاب "Karana - Tilaka" لفيجاي ننه Vijaynand ، وقد ضاعت الكتب الثلاثة الأولى إلا أن الأخير قد تم تحقيقه ونشره حاليا ، وترجم البيروني أيضا نظام الرياضة الهندي لقاعدة الثلاثة باسم "في رشيقات الهند" والكتب الأخرى التي ترجمها إلى العربية أو التي قام بإعادة النظر في ترجمتها هي " سمخيا Samkhya" لكبيل (Kapil) وكتاب " باتنجل باوكسايد Patanjali Paukalsuda" لبراهم غوبتا Braham Gupta ، وكتاب " بوهاتساموتيلا Bohatsamutila" و "لانغوجالاكا Langhujalaka" وأرامير هيرا ، ومن الأرجح أن الترجمة السنسكريتية لكلمة "لا إله إلا الله" التي ظهرت على العملات المعدنية للسلطان محمود الغزنوي قد قام بها البيروني. ينظر كتاب **تحقيق ما للهند** ص ص. 106 – 119 ، وأيم أيس خان: **البيروني رائد الدراسات الهندية**، ص. 195.

و"بهارت" وقارن ما فيها مع ما هو موجود في كتب اليونانيين حتى يخرج الهنود على اعتقادهم لأنهم خير الخلق فوق الأرض فقد عاتبهم بقوله: «ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم رجعوا عن رأيهم»[1]، ومن كتب اليونانيين التي ذكرها البيروني كتاب "آراء أفاضل الفلاسفة في طبيعة الفلك" لفرفريوس ، وكتاب "علل الأشياء" لبليناس وكتاب "فاذن" لسقراط ، وكتب جالينوس منها " كتاب الميامر" و "البرهان" و"أخلاق النفس" ، وكتاب "النواميس" لأفلاطون. [2]

وما يلفت النظر في دراستنا لأهم مصادر البيروني هو الكم من المصادر والمراجع التي اعتمد عليها هذا العالم الموسوعي [3] حيث خصص فصولا لأهم كتب الهند في الأدب والنحو والعلوم الأخرى، لكن يبقى مصدره الأول في المعلومات هو المعاينة الميدانية حيث بدأ كتابه هذا بقوله: « إنما صدق قول القائل: "ليس الخبر كالعيان"».[4]

د ــ منهجه المُتبع:

حين نتتبع خطوات المنهج عند البيروني سواءٌ في كتاب" تحقيق ما للهند" أو كتاب "الآثار الباقية" ، أو " الجماهر في معرفة الجواهر " نلاحظ تشابه في المنهج التأليفي حيث ندرك مدى سعة ثقافة هذا الرجل الذي يعتمد على التعليل والترتيب بأسلوب رياضي قوي جدا فهو يبحث في التاريخ والمجتمع بطريقة رياضية بحتة ، حيث كان يلتزم بخطوات محددة ودقيقة في مباشرة أبحاثه الميدانية في شؤون المجتمع والإنسان.

1البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 20– 21.

2 ذكرت هذه المصادر في مناطق متفرقة من كتاب: **تحقيق ما للهند.**

3 كان إلى جانب تحديده لمصادره يمتاز عن سابقيه بالدقة حتى من الكتب الفارسية واليونانية والعربية والسنسكريتية والسريانية أيضا ، لأنه كان يحسن لغاتها، كما يحسن العربية ، وكان يجيد كثيرا في الحصول على مصادره ، يشير في كتابه عن الهند أن المداخل فيه أعيته. ينظر البيروني: **تحقيق ما للهند** ، ص. 20.

والناظر في كتبه يستطيع أن يصنع بيسر جدولا لمصادره ، وتراه حين ينقل عن كتاب يذكر اسمه واسم مؤلفه، حتى يمكّن الخاصة دون العامة. ينظر روزنتال: **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي**، تر. أنيس فريحة، بيروت ، 1961 ، ص. 113.

4 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 13.

ويبدو من خلال مقدمة الكتاب « تحقيق ما للهند » ما يعكس صورة هذا المنهج في البحث فهو يرى أن العيان وهو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده ومكان حصوله، وهو الوسيلة المثلى للمعرفة لأن الخبر على الرغم من تجاوزه نطاق الحاضر الذي يقف عنده العيان إلى الماضي والمستقبل ليعم الموجود والمعدوم معا، فإن الآفات التي تلحق به كثيرة ، ولما كان الأخذ بالعيان في التاريخ على الأخص أمرا متعذرا فإنه يجب الاعتماد على الخبر مع التفطن لتلك الآفات وقد لخصها في الشهوة ، والغضب، والمحبة ، والغلبة، والشرارة ، وحيث مخابئ الطبيعة ، يقول :" ثم إن الخبر عن الشيء الممكن الوجود في العادة الجارية يقابل الصدق والكذب على صورة واحدة وكلاهما لاحقان به من جهة المخبرين لتفاوت الهمم وغلبة الهراش والنّزاع على الأمم ، فمن مخبر عن أمر كذبٍ يقصدُ فيه نفسه فيُعظِّمُ به جنسه لأنها تحتَه أو يَقصدُها فيُزرِي بخلاف جنسه لفوزه فيه بإرادته ومعلوم أن كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين ، ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم بشكر أو يبغضهم لنكر وهو مقارب للأول فإن الباعث على فعله من دواعي المحبة والغلبة ومن مخبر عنه متقِّربا إلى خيرٍ بدناءةِ الطبع أو متّقيا لَفشَلٍ و فزعٍ ومن مخبر عنه طباعا كأنه محمول عليه غير متمكن من غيره وذلك من دواعي الشرارة وخبث مخابئ الطبيعة. [1]

ويرى أن الصدق محبوب لذاته وهو كالعدل لا يفرط فيه إلا من لم يذق حلاوته أو عرفه ، ولما سأله أحد الأدباء عن التواريخ التي تستعملها الأمم والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها والفروع التي هي شهورها ... والأعمال وغيرها ... قال : إن أقرب الأسباب المؤدية إلى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الأمم السالفة لا عن طريق الاستدلال بالمعقولات والقياس بل اتباع أهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل ... ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في إثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 13 – 14.

المردئة لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ... فإن الذي ذكرته أولى سبيل يُسلَك بأن يؤدي إلى المقصود ... وبغير ذلك لا يتأتى المطلوب. [1]

لهذا السبب تراه في كتاب الهند حين يتعرض للصعوبات التي تعترض دارس الاجتماع الهندي يكشف عن انغلاق الهنود ، فهم يتصورون أنه لا يوجد في الأرض غير بلدانهم ، وفي الناس غير سكانها ، وأن العلم وقف عليهم ، حتى أنهم إن حدثوا عن عالم في فارس أو خراسان استجهلوا المخبر وشنعوا قوله [2] ، لهذا جمع البيروني ما بين أفكاره وعمله الميداني في رحلته وتقصيه الحقائق ، وهذا ما تؤكده الكتب التي عندنا مثل " تحقيق ما للهند " ، وكتاب " الآثار الباقية " ، وكتاب " الجماهر في معرفة الجواهر " ، وكتاب " الصيدنة " ... لهذا ذكر سخاو Sachau: بأنه واجه التاريخ وطلع على المصادر التي تهمه في مختلف لغات العلم آنذاك فجمع مادته ووعاها ، وكان يجردها في جذاذات ليسهل الرجوع إليها ، وتراه في (التحديد) يتألم لضياع بعضها : « لكني كنت أعتمد فيما كنت أحصل على الضبط بالكتابة دون الحفظ، اغترارا بالسلامة وأمنا من الحوادث، فحين عاصفتني النكبة أتت على ما ذكرت في جملة ما أتت عليه من اجتهاداتي، ومرت كأن لم تغن بالأمس وإن سهّل الله الإعادة وهو عليها قدير فلست بمتثاقل في إتمام ذلك».[3]

وذكر أحد متخصصي أوربا المعاصرين أن البيروني ألّف كتابا عن الهند، يدل على نظر واسع وحياد علمي تام، ففيه معلومات واسعة عن الأديان، والعلوم التي بها، وقد استقاها من منابعها السنسكريتية الهندية المباشرة [4] فهذا ما فعله في كتابه " تحقيق ما للهند" الذي قصد به تعريف العرب أكثر بالمجتمع الهندي سياسيا واجتماعيا ودينيا، حيث كان منطقيا في التزامه هذا المنهج التأليفي فهو يعرض مقولات الهند على علاّتها ليُشرك

---

1 البيروني: **الآثار الباقية**، ص. 4 .

2 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 20 .

3 المصدر نفسه، ص. 38 .

4 بارتولد : **تاريخ الحضارة الإسلامية** ، تر. حمزة طاهر، ط. 4 ، القاهرة ، 1966، ص. 111– 112.

القارئ في الإلمام بزوايا التفكير الهندي ويترك له أمر نقدها ، وحين يكون النقد السبيل الأمثل لدراسته فإنه يلتزم ذلك ، خاصة في القضايا التاريخية التي تطرق إليها على عكس الظواهر الاجتماعية التي لا تخضع في الأغلب إلا للوصف ، والمقارنة عنده أساس للدراسة التي قام بها ، فهو يعرض الأقوال من مصادرها المختلفة ثم يقارن بينها مستخدما ثقافته الواسعة وحسه الرياضي الدقيق لطرح الزائف والأخذ بما ينبغي الأخذ به ، ويتضح هذا مثلا في حديثه عن الخلاف الواقع بين اليهود والنصارى ، فبعد أن أورد حُجج كل منهما بإطناب وردّ كلّ منهما على الآخر ، انتهى إلى نقد آرائهم[1] وهو في نقده منصف لا يركز إلا على موضوع ، وإذا تعرض للأشخاص فإنما يتعرض إليهم من خلال آرائهم ، وحين يطبق هذا المنهج المتكامل فإنما يصل إلى تصوير الحضارة التي يتعرض إليها تصويرا بارعا ، بغية الوقوف على تاريخ المجتمع البشري وربط ماضيه بحاضره ، ومستقبله بحاضره وبمقارنة أسلوب البيروني في هذا الكتاب بما سبقه في كتبه الأخرى يتضح جليا تطور إنشائه إلى الأفضل دوما على مدار الزمان.[2]

ومما سبق يمكننا أن نستخلص أهم ما يميز المنهج التأليفي عند البيروني في رحلته إلى الهند وتصنيفه لكتاب " تحقيق ما للهند" في النقاط التالية:

ــ الاعتماد على الملاحظة المباشرة دائما ، والملاحظة المشاركة أحيانا .

ــ الاعتماد على التجارب العملية والميدانية كلما كان ذلك ممكنا .

ــ استخدام العقل سواء في الاستنباط أو التعليل .

ــ رفض أية وسائل غير حسية أو ملموسة كسبيل للوصول إلى المعرفة .

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 27. ينظر الآثار الباقية، ص.4.

2 علي أحمد الشحات: **أبو الريحان البيروني** ، ص.86 .

ــ رفض تقليد الآخرين سواء من حيث أسلوب الكتابة أو من حيث المنهج المستخدم.

ــ الرجوع إلى المصادر الأصلية كلما كان ذلك ممكنا .

ــ التأكد من عدم فساد الآراء من خلال التأكد من صحتها وثبات نتائجها وذلك قبل الجهر بها.

هذه لمحة عن جهود أبي الريحان البيروني المكللة بالنجاح في سبيل التعريف بالهند حيث لم يكن البيروني متحيزًا أو متعصبا ضد الشعب الهندي فقد درس عن الهند لمعرفتها وفهم حضارتها التي كانت مختلفة عن حضارته الخاصة ... ومن الصحيح القول بأن بواعث البيروني الأساسية لاهتمامه الفكري بالهند القديمة كانت حبه للاستطلاع وحرصه على المعرفة فقط ولم يكن حريصا على تبليغ الإسلام بين الهندوس في الهند، وقد أوضح البيروني أن غرضه من تأليف كتابه حول الهند ، لأن الكتب التي دونها المسلمون عن المبادئ الدينية والحضارة الهندية الخاصة بالهندوس وطلب منه أستاذه أبو سهل المسيحي تأليف كتاب موثوق به يشتمل على معرفته عن الهندوس لكي يساعد الذين يريدون النقاش حول أمورهم الدينية ويصبح خزينة المعلومات للذين يريدون الاستفادة منه[1] ويُنهي البيروني كتابه حول الهند مؤكدًا أن ما ذكره في هذا الكتاب يستكفي لكل فرد يريد التحدث مع الهندوس والنقاش معهم حول مسائل الديانة والعلوم أو الأدب وحول أسس ومبادئ حضارتهم الخاصة.[2]

1 Edward Sachau, **introduction to the Indica**, p.67.

2 البيروني: **تحقيق ما للهند** ، ص.503 .

المبحث الثالث: القيمة العلمية في رحلة البيروني إلى الهند

تميز وصف الرحالة أبي الريحان البيروني لثقافة الهند بإعمال الفكر والدقة العلمية والأدبية والدينية، وهذا ما يظهر جليا في كتابه الموسوم "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

01 ــ أبحاث البيروني في عقائد أهل الهند وديانتهم:

عندما يتحدث البيروني عن ثقافة الاعتقاد عند الهنود يقول: «فأشرت إلى أن أكثرها هو مسطور في الكتب هو منحول وبعضها عن بعض منقول وملقوط مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذَّب»[1]. ونقل من كتبهم إلى العربية كتاب اسمه «سانك حول صفة الموجودات»، وكتاب في تخليص النفس من رباط البدن ويعرف بباتنجل [2] وفيه أكثر الأصول حول اعتقادهم وشرائعهم، ومن هذه المصادر استطاع أن يفوق متقدميه [3] بسعة معلوماته ودقة نظره وعمق بحثه.

أ ــ اعتقادهم بالناس: يتعلق هذا الموضوع بمعتقدات أهل الهند عموما وفلسفتهم الدينية، وفيها يقول أبو الريحان: «ويعتقدون في الأرض، أنها أرضهم، وفي الناس أنهم جنسهم وفي الملوك أنهم رؤساؤهم وفي الدين أنه نحلتهم وفي العلم أنه معهم... حتى أنهم إن حدَّثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا المخبر ولم يصدقوا للآفة المذكورة».[4]

---

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.15.

2 **باتنجل:** اسم مؤلف هندي عاش على ما ضمنه العلماء العارفون بكتب الهند في حدود سنة 300 م، واسم الكتاب الـذّي ألّفـه باتنجل هو جوكا سوترا وهو نوع من التصوف والزهد عندهم، ينظر كتاب **المنتقى من دراسات المستشرقين**، ج.1، ص.63.

3 في مقدمة كتاب تحقيق ما للهند نقد البيروني الذين سبقوه في دراسة معتقدات الهند أمثال زرقان وأبي العباس الايرانشهري، أما الأول له كتاب المقالات واسمه الحقيقي محمد بن شداد بن عيسى المشهور بزرقان وهو معتزلي كان تلميذ النظّام توفي أواسط المائة الثالثة، وكتابه ضاع إلاّ أن المتأخرين نقلوا عنه شيئا يسيرا ومنهم حسن بن موسى النوبختي صاحب كتاب الآراء والديانات. وأما الثاني من الذين كتبوا في أديان الهند أبو العباس الايرانشهري أستاذ الطبيب المشهور محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة 313هـ، ويقول البيروني أن خطأ هؤلاء أن معلوماتهم أخذت سماعا من عوام الهنود. ينظر البيروني: **مقدمة تحقيق ما للهند.**

4 المصدر نفسه، ص.10 في طبعة الهند، ص20. في طبعة بيروت.

ويأبى البيروني إلا أن يكون منصفا في بحثه، رغم ما يلاحظه من تعاليهم عليه فيقرر بأن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة «... فهذا براهمن[1] أحد فضلائهم يقول بأن اليونانيين وهم أنجاس، لمّا تخرجوا في العلوم وأنافوا فيها على غيرهم وجب تعظيمهم».[2]

والسبب في اعتبار الهنود غيرهم أنجاسا يعود كما يرى البيروني لقتلهم البقرة وذبحها وأكلهم للحمها. ويذكر بأن تقديسها كان أصلا كونها حيوانا نافعا يخدم في الأسفار ويحمل الأثقال ويفيد في الفلاحة والزراعة ويمدّ الناس بألبانه، وقد أشار البيروني إلى حكيم آخر من حكماء الهند عارض هذه التفرقة، قال باسديو في طلب الخلاص: « إن العاقل قد تساوى عنده البرهمي وجندال والصديق والعدو، والأمين والخائن، فإن كان العقل هو الذي سوّى فالجهل هو الذي فصل وفضل».[3]

ويقسم الهنادكة الخلائق إلى أجناس ثلاثة هي على ما ورد في كتاب "سانك": الروحانيون في الأعلى، الناس في الوسط والحيوانات في الأسفل.[4]

وعلى الرغم من أن البيروني كان قد قرر ضمن منهجه في الكتاب عدم مناقشة معتقدات الهنود، لأنه يكتب للخاصة الذين لا يعوزهم تقييد تلك المعتقدات أو نقدها إلا أنه

---

1 ذكر المسعودي البراهمن وهو الملك الأكبر والملك الأعظم والإمام فيها المقدم وظهرت في أيامه الحكمة وتقدمت العلماء... ويذكر أن الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة... فقال كبراؤهم: «نحن أهل البدء وفينا التناهي ولنا الغاية والصدر والانتهاء و منا سار الأب إلى الأرض فلا ندع أحدا شاققنا ولا عاندنا وأراد بنا الأغماض إلاّ أتينا عليه وأبدناه أو يرجع إلى طاعتنا...»، ينظر إلى المسعودي: **مروج الذهب**، ص76. والبراهمة هم أبناؤه، إلى وقتنا والهند تعظمهم وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم ولا يتغذون بشيء من الحيوان وربما هؤلاء هم الذين أشار إليهم سليمان التاجر يقتصر غذاؤهم على النبات، ينظر إلى الفصل الأول من هذا البحث، وتعتبر الديانة البراهمية مؤسسة على هذا الفكر منذ بدايتها قبل أن يأتي عليها التقسيم وتظهر البوذية والجينية، راجع ابن خرداذبة، ص.69، والمسعودي، ص.79.

2 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 20 في طبعة بيروت.

3 المصدر نفسه، ص ص.417 – 427 طبعة بيروت، وص ص. 458 – 468 طبعة الهند.

4 المصدر نفسه، ص63.

بصفته عالما مدققا كان يخرج أحيانا على هذا المبدأ الذي التزم به محاولا المقارنة بين ما عند الهنود وما عند غيرهم من الشعوب.[1]

ويبدو أن المسعودي هو الوحيد الذي تطرق إلى هذا المعتقد الهندي في اعتبار الهنادكة فوق الأجناس الأخرى[2] مقارنة مع سليمان التاجر أو أبي دُلف الذي أشار إلى تعظيم الهنود لبعض الحيوانات وعدم أكلهم اللحم دون أن يعطي أسباب هذا التقديس مقارنة بالبيروني الذي أفاض في بيان ما عند الهنود وما عند غيرهم إفاضة العالم المتمكن.

ب ـ اعتقادهم في الله: ومن أروع ما يقرره البيروني في الباب الثاني من ذلك أن الهندوس يعتقدون بوحدانية الله بدليل ما حدث في إحدى الندوات، حين سأل أحد الملوك حكيما من حكمائهم عن ملأ من الناس مستفسرا عن معنى من المعاني الإلهية قال الحكيم: « إنّ الله هو الذي لا أول له ولا آخر، لم يتولد عن شيء ولم يولد، ولا يمكن إدراك معرفته إلا بعد أداء حق عبادته والاشتغال به عن الدنيا بالكلية وإدامة الفكر فيه».[3]

وهذا الكلام الذي أورده البيروني أساسه كتبهم الدينية التي كان على اطلاع بها مثل "باتنجل" الذي استدل به حين قال: « ولِنُرِيَ في ذلك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط، فقال السائل من هذا المعبود الذي ينال التوفيق بعبادته؟ قال المجيب: هو المستغني عن أوليته ووحدانيته... له العلو التام في القدر لا المكان فإنه يجل عن التمكن... وهو الذي كلّم براهمن وغيره من الأوائل على أنحاء شتى.[4]

لكن الاعتقاد السائد في الديانة الهندوسية أن الله له ثلاثة أقانيم أو ثلاثة حالات وهي: براهما مُوجد العالم، وفشنو حافظ العالم، وسيفا مُهلك العالم، فقد توصل فكر الكهنة

1 محمد جمال الفندي وإمام إبراهيم: **أحمد البيروني**، دار الكتاب العربي 1968م، ص. 42.

2 المسعودي: **مروج الذهب**،ج1، ص. 76.

3 شفيق أحمد خان الندوي: **الهند كما يراها أبو الريحان البيروني**، ثقافة الهند، المجلة 59، العدد1-2، 2008.

4 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 23.

الهنود إلى إبراز هذه النتيجة حوالي القرن التاسع قبل الميلاد فقد جمعوا الآلهة في إله واحد فبراهما اسم الله في اللغة السنسكريتية وهو عند البراهمة الإله الموجود بذاته.[1]

وتؤكد الدراسات الاجتماعية الدينية أن التفكير الهندوسي فيما يختص بالإله نزعتان مختلفتان تمام الاختلاف عندهم نزعة الوحدانية ونزعة التعدد، وإن كانت نزعة التعدد أقوى وأكثر انتشارا.

وربما يعود ذلك إلى كون أنها العقيدة الدينية الوحيدة في العالم التي ليس لها رسول أو مؤسس كما أنها لا تستند إلى كتاب مقدس واحد فلا تضيع الوقت في محاولة إحصاء العدد الإجمالي لأرباب الهندوسية لأنّ كل هؤلاء ليسوا سوى أوجه لذات إلهية واحدة.[2]

والبيروني عندما يتكلم عن اعتقادهم في الله سبحانه يذهب إلى الأصل الذي يعود إليه الهنود في تفكيرهم مع الله، ولا يغفل عن كثير منهم أحاطت بهم الخرافات الشنيعة عندهم موجودة وخاصة في الطبقات التي لم يسوغ لها تعاطي العلم على ما يجيء ذكرهم في موضعه [3]، وقال: « إنما اختلف اعتقاد الخاص والعام في كل أمة بسبب أن طباع الخاصة ينازع المعقول ويقصد التحقيق في الأصول، وطباع العامة يقف عند المحسوس ولا يروم التدقيق وخاصة فيما اتفقت فيه الآراء ولم تتفق عليه الأهواء».[4]

وهذه إشارة إلى التوجه الساخر للهنود لبناء المعابد والاهتمام بالأصنام فقد أورد البيروني بابا خاصا بهم لتأكيد ميل العامة إلى ما هو محسوس اعتقادا منهم بتعدد الآلهة في ظواهر مختلفة، وتمثل وحدة الإله المجسدة في صنم براهم الذي ذكره البيروني ذو

1 **موسوعة الأديان في العالم**. ص.115.

2 إيهاب شريف: **الهند أسرار ومفاتيح**، ص ص.112 – 116.

3 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.26.

4 المصدر نفسه، ص.23.

الأربع أوجه واحدة من هذا الاختلاف ما بين الخاص والعام[1]، حيث يتوسط وجه براهما من حيث هو موجود، وجه فشنو من جهة من حيث هو حـــافظ ووجه سيـــفا من حيث هو مهلك ويشترك الثلاثة في جسد واحد يجمعهم وهو الرب الأب "براجاباتي PRAJAPATI".[2]

ثم إن البراهمة تفرقوا أصنافا فمنهم أصحاب البددة [3]، ومنهم أصحاب الفكرة والوهم ومنهم أصحاب التناسخ.[4]

وربما كان هذا العامل سببا في تفرق أهل الهند إلى عدة طوائف وفرق يصعب عدّها بعدما كانت تنطلق من مصدر البراهما كمنطلق عقائدي في الديانة الهندية.

جـــ ــ معتقد تجوال الروح أو التناسخ Transmigration: ذكر سليمان التاجر التناسخ عندما قال عن الصين بأن أصل ديانتهم الهند وهم أهل الدين، وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون في فروع دينهم[5] ووصفه لموت ملك سرنديب (سريلانكا) وما له من إشارات في قضية إحراق مدينة صيمور. حيث ذكر أن هناك من يستأذن الملك في إحراق نفسه دون خوف أو اكتراث وهو نفس الإيمان عندما يصعد الهندي إلى جبل ويلقي بنفسه في قاع نهر حيث يلقى حتفه [6]. هذا ولم نجد ذكرا في رسالة أبي دُلف أو الإصطخري أو عند المقدسي لمعتقد التناسخ، في الوقت الذي ذكره بعض الجغرافيين أو الرحالة الذين جاءوا بعد القرن الخامس الهجري أمثال القزويني في كتاب آثار البلاد

---

1 البيروني: **تحقيق ما للهند،** ص.84.

2 Grousset (R): Opcit, p.20 .

3 **البددة:** بمعنى البُد عندهم شخص لا يولد، ولا ينكح، ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت وأول بُد عندهم ظهر في العالم اسمه «شاكمين» – السيد الشريف –. راجع **الملل والنحل** الشهرستاني ص.371، والبُد عند البيروني واحد من الآلهة وهو صنم حسن الوجه وهو أكهب الشعر كأنه أب الخلق، ينظر البيروني: المصدر السابق، ص .83.

4 الشهرستاني: **الملل والنحل،** لبنان: دار ابن حزم.1426هـــ – 2005 م، ص.371.

5 سليمان التاجر: **سلسلة التواريخ،** ص.57.

6 المسعودي: **مروج الذهب،** ج1، ص.247 – 248.

وأخبار العباد [1]، والشهرستاني في الملل والنحل[2]، وتعرض المازوري إلى التناسخ وقال أن الثواب والعقاب هو التناسخ في السعادة والشقاوة... فالنفس إذا كانت طيبة طاهرة تخلصت وصارت إلى عالم القُداس أي الأعلى، وإذا كانت شقية وذات معاصٍ فإنها تتردى إلى العالم السفلي... وإيمان الهنود بالتناسخ وراء إحراقهم لجثث موتاهم.[3]

وعندما انتقل ابن بطوطة [4] إلى الهند صوّر لنا مشهدا من مشاهد حرق الهنود لأنفسهم خاصة حرق المرأة لنفسها بعد وفاة زوجها وإن كان ينكر ذلك الفعل ويَذكرُ كَم أفزعه ذلك وسقط مَغشيًّا عليه عندما رأى هول ذلك المنظر.[5]

ويبسط لنا البيروني نظرية التناسخ عند الهنود بسطا كافيا في كتابه، وينقل عنهم أن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة وإنما تتردد في الأبدان ويقول: « وكما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، التثليث شعار النصرانية والأسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النِّحلة الهندية فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد من جملتها».[6]

ويعود البيروني إلى كتبهم متفحصا ما يقوله فلاسفة الهنود وعلمائهم الروحانيين أمثال "باسديو" و"لارجن" حول هذا المعتقد وثقافتهم الواسعة في هذا المجال [7]. وسبب التناسخ عند الهنود هو:

---

1 عرّف القزويني التناسخ بأن الأرواح إذا غادرت الأجساد، اجتمعت كلها عند صنم الإله سومناة وهو الذي يتصرف في إنشائها في ما يشاء من المخلوقات الأخرى حسب عملها في الدنيا من الإحسان أو الإساءة. ينظر كتاب **آثار البلاد وأخبار العباد** للقزويني ص. 63.

2 أفرد الشهرستاني مجالا هاما لأصحاب التناسخ كما سماهم واعتبر تناسخية الهند أشد اعتقادا. راجع أيضا ابن حزم: **الفصل في الملل والنحل** ، لبنان: دار ابن حزم، د.ت، ص. 373 –374.

3 الماروزي: **شرف الزمان الطاهر** " فصول حول الصين والترك والهند" منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، ترجمة للإنجليزية لفلاديمير موزيكي ، طبعة لندن، 1942، ص. 140.

4 **ابن بطوطة:** ولد بطنجة يوم الاثنين 17 رجب 703 هـ – 24 فبراير 1304 م، لقب في المشرق بشمس الدين وفي الهند بمولانا بدر الدين، يقول ابن بطوطة: « وكان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين سبعمائة معتمدا حج بيت الله وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام... فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور». ينظر **رحلة ابن بطوطة:** ج1، ص.153. المقريزي: **كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب** نقلا عن عبد الهادي التازي: **مقدمة رحلة ابن بطوطة،** ج1، ص. 80.

5 ابن بطوطة: **رحلات ابن بطوطة،** مج 2، ص ص. 138 – 141.

6 البيروني: **تحقيق ما للهند،** ص.39.

7 المصدر نفسه، ص.40.

ــ **أولا:** أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد.

ــ **وثانيا:** إنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة في علاقاتها بالآخرين لا بد من أدائها.

فلا مناص إذا من أن تستوفي شهواتها في حيوات أخرى وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التي قامت بها في حياتها السابقة.[1]

ومن موازنات البيروني العالية في عقيدة التناسخ مقارناته مع ما يوجد عند اليونانيين والمسلمين واليهود من فوارق دينية في هذا الباب، ويذكر لنا كذلك أن "ماني" [2] حين نفي من إيران دخل أرض الهند نقل التناسخ منه إلى نحلته... كما كان اليونانيون موافقين الهند في هذا الاعتقاد [3] وكانت أشهر نظريات فيثاغورس هي انتقال الروح من جسد لآخر وتتبع هيرودت هذه الفكرة حتى مصر [4]، وعندما تسربت معتقدات التناسخ إلى إلى بعض المسلمين انطلاقا من شريعة "ماني" كما يقول البيروني ومنهم أبو بكر الرازي الطبيب في كتابه العلم الإلهي وهو يبادي فيه بالدلالة على كتب "ماني" وخاصة كتابه الموسوم بسفر الأسرار، الحداثة بل خفاء الحقيقة على طلب تلك الأسرار من معارفي في البلدان والأقطار وبقيت في تباريح الشوق نيفا وأربعين سنة... ووجدت الله تعالى صادقا في قوله ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ** ﴾ [5] ثم اختصرت ما في تلك السفر

---

1 **موسوعة الأديان** ص.125، وينظر إلى Grouseet (r) op .cit.p.29 .

2 شرح ماني: إليه تنسب الديانة المنوية الذي كما يقول البيروني نفي من ايرانشهر بفارس فدخل أرض الهند ودرس التناسخ ثم نقلت إلى ديانته، ينظر البيروني، أحمد سعيد دمرداش، لبنان: دار المعارف، ص.56.

3 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.41.

4 ج. رولنج: **الهند في الأدب والفكر الأوربي**، تر.جلال السعيد الحفناوي، ثقافة الهند، المجلد 57، العدد3، 2006، ص.6.

5 **قرآن كريم: سورة النور**، الآية 40.

من الهنديات البحت والهجر والمحض فهذه حال أبي بكر ولست أعتقد فيه مخادعة بل انخداعا لما يعتقده.[1]

ويبدو أن رحلة البيروني إلى الهند تدخل في هذه المهمة العظيمة التي فيها لا يهنأ إلا بمعرفة الحقائق من مصادرها ولما جاءته الفرصة مع محمود الغزنوي لم يضيعها في معرفة أسرار هذه العقيدة التي بحث عنها أكثر من 40 سنة وإذا كان البيروني قد اعتبر فكرة التناسخ من فكر القرامطة فإن ابن حزم علق على هذه الفكرة بأنها دعاوى وخرافات بلا دليل.[2]

د ــ في الحج وزيارة المواضع المعظمة عندهم: هو ليس مفروضا عندهم وإنما هو تطوع وفضيلة يقول البيروني يقصد فيها الحاج أحد المدن الطاهرة أو الأصنام المعظمة أو أحد الأنهار المطهرة، أما المدن الطاهرة عندهم فإنها في الجبال الباردة ويذكر أبو الريحان هذه المناطق كلها[3] التي ترتكز خصوصا في المناطق الشمالية الشرقية، وعندما يتحدث عن الأنهار المقدسة عندهم يصف نهر "الكنك"[4] الذي يتعجب في مبالغته الهنود من قصده والقيام بطقوس تثير الإعجاز في الوصف حتى من طرف المشاهدين من المسلمين الزائرين له على حسب قوله، ومن الأصنام المعظمة عندهم ما يوجد في مدينة "بارانسي" و"ماهور" وكشمير وكذلك الملتان قبل تخريب بيت صنمه.[5]

هــ ــ في المباح والمحظور من المطاعم والمشارب: لا يأكلون الميتة وهي محظورة عليهم حتى اللحم فإنهم ينبذونه خاصة عند البراهمة(*) لاختصاصهم بالدين، ومنع الدين

---

1 أبو الريحان البيروني: **الآثار الباقية**، مقدمة إدوارد سخاو من رسالة البيروني في فهرست كتب محمد أبي زكريا الرازي.

2 **موسوعة الأديان**، ص.127.

3 راجع المصدر نفسه، ص.420.

4 **نهر الكنك:** (الغانج) أو الجانج هو أقدس أنهار الهند لدى الهندوس، يحجون إليه ويلقون برماد أجسامهم فيه بعد الموت، وهو جنتهم كذلك بل يغرقون فيه أنفسهم تقربا إلى الآلهة. ينظر **رحلة ابن بطوطة**، ج.3، ص.88. انظر الخريطة رقم 06 في الملاحق ص.248.

5 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 424.

(*) سيأتي الكلام عن مختلف الطبقات ابتداء من ص.193.

إياهم من اتباع الشهوات، وما هو مباح عندهم لما دون رتبة البراهمة في اللحم فهو الضأن والمعز والظباء والأرانب وواحد القرن والجواميس والسمك والطير المائية والبرية، والمنصوص على تحريمه البقر والخيل والبغال والأحمرة والبعير والفيلة والدجاج والغربان والببغاء والبيض جميعها والخمر إلا لشودر فإن شربها مباح له وبيعها محظور عليه كبيع اللحم، وقد ذكر ذلك المقدسي[1] وسليمان التاجر[2] دون الإشارة إلى ما أشار إليه البيروني بأن الخمر حلال على طبقة الشودر.[3]

و ــ في النكاح عندهم: مراسم الزواج في الهند تعتبر أكبر وأهم المناسبات وأغلى اللحظات لأن الزواج في المجتمع الهندي يعرف بأنه "مهرجان الأعين" حتى ترى العيون ما لا تراه يوميا من زينة وألوان[4] والبيروني في رحلته إلى الهند أفاض في هذا الموضوع فذكر بأن الهند التزويج فيهم على صغر السن ويظهر دون آلات الأفراح ولا يسمون بينهم المهر، ولا يفرق بين الزوجين إلا الموت إذ لا طلاق لهم، وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وما فوق الأربعة محرم عليه إلا أن تموت إحدى من تحت يده منهن فيتمم العدد بغيرها ولا يتجاوزه، والمرأة إذا مات زوجها فليس لها أن تتزوج وهي بين أحد أمرين إما أن تبقى أرملة طول حياتها وإما أن تحرق نفسها، والأفضل حرقها لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها، وذكر ذلك المسعودي عندما قال: «إذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي في الحياة إلا أن ترى المرأة ذلك»[5] فالزواج عندهم التزام طول الحياة ويمثل أقوى آصرة اجتماعية بين رجل وامرأة وهذا طبقا لفلسفة الهندوس[6] ونكاح الأيامى لم يكن معروفا لدى الهندوس منذ قديم الزمان فقد ذمه مسلموا الهند، يقول الشاه ولي الله

---

1 المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص.482.

2 سليمان التاجر: **سلسلة التواريخ**، ص.55.

3 البيروني: المصدر السابق، ص.426.

4 محمد قطب الدين: **الزيجة الهندوسية عادات وتقاليد**، مجلة ثقافة الهند، المجلد 55، العدد1، 2004، ص.150.

5 المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص.09 – 10.

6 محمد قطب الدين: المرجع السابق، ص.101.

الدهلوي: «من أقبح تقاليد الهندوس أنهم لا ينكحون الأرملة مرة أخرى على خلاف التقاليد العربية قبل الإسلام وبعده فصاعدا»[1] أما إحراق المرأة المتزوجة لأحد ملوكهم فذاك واجب احتراسا عن زلة منهن. والزواج من الأجانب أفضل من الأقارب وكل مقرب هو حرام إلا إذا تباعد بالأنسال خمسة أبطن مع بقاء الكراهة، والزواج من الطبقة أو من دونها إذ لا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ويحرم على الرجل أن يأتي زوجته وهي حائض[2] وزاد البيروني في وصف أعيادهم والأيام المعظمة عندهم وصيامهم ومواريثهم مما لا يسع الحديث عنه في هذه الدراسة بالتفصيل.

02 ـ دراسات البيروني للمجتمع الهندي وطبقاتهم:

أ ـ فكرة الطبقات: ذكرنا سابقا اعتقاد الهنود في تقسيم الخلائق إلى أجناس ثلاثة وهذا على ما ورد في كتاب "سانك": «الروحانيون في الأعلى، والناس في الوسط، والحيوانات في الأسفل».

ثم يذكر البيروني بأن الهنود لا يكتفون بذلك حتى يسلكوا أبناء جنسهم في طبقات أربع عليها «البراهمة»[3] وقد بدأت الإشارة إلى الطبقات التي قامت عليها الحياة الاجتماعية للهندوس في الفيدا VEDA [4]، ومن المهم أن نقول إن هذا التقسيم جاء أولا نتيجة طبيعية لتوزيع الأعمال على الناس في المجتمع، فقد اقتضت حياتهم أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية بينما يقوم الآخرون بالحروب وكان من الطبيعي أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول ومطالب الحياة حتى يتفرغ الكهان والمحاربون لعملهم، وبالتدريج

---

1 محمد عمر: **المجتمع الهندي الإسلامي تبادل ثقافي**، تر. أورنك زيب الأعظمي، ص.79.

2 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.428 – 429.

3 المصدر نفسه. ص.71.

4 وتعرف الفيدية بالكتاب الذي يعتبر مقدسا لديها أي الفيدا VEDA أو الفيدا بالجمع LES VEDAS وكلمة الفيدا تعني المعرفة وهذه المعرفة نحصل عليها عن طريق السمع لا عن طريق البصر. ينظر فيلسيان شالي FELICIEN CHOLLAY: **موجز تاريخ الأديان** تر.حافظ الجمالي، ط. دار طلاس، 1994، ص. 70.

وجدت الطبقة الرابعة وهي طائفة «الشودرا» التي هي أخس الطبقات والتي عرفت عند الكتاب العرب بالطائفة المنبوذة.[1]

ويرجع أبو الريحان البيروني هذا التقسيم إلى العامل السياسي الذي يراد منه الرئاسة وفرض السيطرة على الآخرين من طرف الملوك حتى وإن استغلوا الدين ويعود إلى ماضي الأكاسرة في بلاد الفرس ويذكر كيف كان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يعرفون معظم اهتمامهم إلى تصنيف الناس طبقات ومراتب يحفظونها من التمازج ويحظرون الاختلاط عليهم... ويلزمون كل طبقة ما إليها من عمل.

ويبدو أن البيروني أراد أن يلمح إلى أن فكرة الطبقات في المجتمع الهندي ليست جديدة عندهم أو من اختراعهم بل هي قديمة قدم التاريخ ويذكر أن من أسباب مخالفتنا إياهم وتسويتنا بين الكافة إلا بالتقوى أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام.[2]

وقد اختلط النظام الديني بالنظام السياسي والنظام الاجتماعي عموما بما في ذلك النظام الاقتصادي الزراعي فكان من نتيجة ذلك العمل من قبل أصحاب النفوذ السياسي لترسيخ نظام طبقي اجتماعي يضمن لهم السيطرة، فكان من ذلك أن تبلور نظام الطبقات عند الهندوس الذي وزع الهنود في أربع طبقات [3] البراهما: وهي الطبقة العليا فقد ذُكر في كتبهم أنهم خلقوا من رأس براهم[4] وهم نقاوة الجنس ولذلك صاروا عندهم خيرة الإنس، والطبقة التي تتلوهم "كشتر أو الكشتريين": خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جدا، ودونهم طبقة "بَيش": التي خلقت من رجلي براهم وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان، وأما الطبقة الرابعة فهي "شودر" وهؤلاء خلقوا من قدمي براهم ويشتغلون برذالات الأعمال وذكرهم "باسديو" بأنهم مجتهدون في الخدمة

---

1 عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند**. ص. 28.

2 البيروني: **تحقيق ما للهند**. ص. 70.

3 **موسوعة الأديان في العالم**.Edito Creps, INT, 2001، ص.118-119.

4 المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص. 76.

والتملّق وأكلهم يختلف من طبقة لأخرى ولا يجوز عندهم أكل ما تبقى من أكل الآخر[1] وللبراهمة الحق في الزواج بأربع نساء عدد الطبقات ويمكن للبراهمي أن يتزوج من كشترية أو بيشية ولا عكس [2] ولكشتر ثلاث نساء ولبيش اثنتان ولشودر واحدة، ويجوز لكل واحد أن يتزوج في طبقته وفي ما دونها ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ويكون الولد منسوبا إلى طبقة الأم، والمرأة إذا مات عنها زوجها فليس لها أن تتزوج وتُقبل على حرق نفسها مخافة الزلل، ما لم يكن لها ولد يتكفل بصيانتها وحفظها، والأصل في المواريث عندهم سقوط النساء منها، ما خلا الابنة فإن لها ربع ما للابن، وجهازها من ميراثها، أما الزوجة فإن آثرت الحياة ولم تحرق نفسها كان على الوارث رزقها وكسوتها ما دامت.[3]

وحتى فكرة الخلاص يقول البيروني فقد اختلفوا فيمن هو معدّلُهُ في هذه الطبقات فقال بعضهم: إنه ليس لغير البراهمة وكشتر، وقال المحققون منهم إن الخلاص مشترك الطبقات ولجميع نوع الإنس بدلالة باسديو.[4]

إن هذا النظام الطبقي الذي يقوم على أساس انقسام جاد في المجتمع والذي يربطه الهندوس بالجانب الديني أو بأصل النشأة إلى البراهمن مما أدى إلى انعدام العدالة بين الناس وأعطى الأسباب الداعية إلى ظهور البوذية [5] التي أنكرت هذه الاختلالات الطبقية [6] [6] وعارضت الديانة الأصلية أي الديانة البراهمانية بطريقتين أو حركتين انشقاقيتين

---

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**. ص.71 – 72.

2 المصدر نفسه، ص.295.

3 المصدر نفسه، ص ص.428 – 435.

4 المصدر نفسه، ص.73.

5 **البوذية:** نشأت في الناحية الشرقية من الهند شمال نهر الغانج المقدس نسبة إلى بوذا Bouddah، وهي تعني الفطنة والحكمة وأطلق هذا الاسم على سيدهاراتا قوتاما siddharata gautama 483 –563 ق.م وإليه يعود السبق في تأسيس المذهب البوذي في بلاد الهند والصين... راجع **الموسوعة الخاصة بالأديان** ص.175 – 176 وأيضا:
André(bareaux):" **Bouddah**" dictionnaire du Boudhisme dans encyclopeadia universales albin michel, Paris, 1999 ,pp.103-110.

6 **موسوعة الأديان**. ص.102.

الجائينية Jainisme التي قصرت عملها على الهند والتي لا تزال موجودة حتى اليوم، والبوذية التي انتشرت في آسيا بعد أن طردت من الهند ولا يزال لها فيها عدد كبير من الأتباع... ولا تقيمان أي وزن لنظام الطبقات.[1]

وقد أشرنا إلى الانشقاق الذي حدث نتيجة هذا التوجه في المجتمع الهندي من ظهور ديانات أخرى مناوئة للبراهمية، وكانت هذه الظروف محل وعي الكثير من نشطاء الحركة القومية الهندية وقد جرت محاولات أكثر من مرة لإجراء إصلاح ديني قومي.

من هذه المحاولات ما كان قد تم في القرون الوسطى جزئيا بتأثير الإسلام والمسيحية فيما بعد... وفي أواخر القرن الخامس عشر الهجري ظهرت طائفة السيخ بزعامة "نانك" وكان ضد نظام الطبقات والدعوة لدين واحد... واشتدت الحركة الإصلاحية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي[2] وجرت محاولات عديدة للتخفيف من حدة هذا النظام الطبقي الجائر، وكانت أبرز هذه المحاولات محاولة المهاتما غاندي في أوائل القرن العشرين للميلاد[3] وكان التعليم منطلق الإصلاحات التي باشرها المهاتما غاندي ما بين (1921 – 1947 م) للوصول بالهند إلى تفكير جديد يقبل الآخرين.[4]

---

1 **الجائينية** Jainisme: ظهرت في توقيت معاصر للبوذية على يد ماهافيرا Mahavira وتعني البطل الأكبر وينتسب مثل بوذا إلى أسرة المحاربين والأمراء أي الكاشتيريا وكلاهما رفض نظام الطبقات الهندوسي. ينظر إلى **موسوعة الأديان**، ص. 156، الشريف إيهاب: **الهند أسرار ومفاتيح**، ص.132، فيلسيان شالي: **موجز تاريخ الأديان**، ص.87.

2 سيرغني أ توكاريف: **الأديان في تاريخ شعوب العالم**، تر أحمد م. فاضل، سوريا: الأهالي للطباعة والنشر، 1998، ص .311 – 312.

3 **موسوعة الأديان**، ص. 102.

4 Ministry of éducation and social welfare: **The Gazetter of India**,volume2, history and culture,p. 659, by Aroon, paris, At thomson. Press (India) October 1973.

ب ــ ظواهر اجتماعية وأنماط ثقافية: عرض البيروني العديد من مظاهر البناء الاجتماعي الهندي بما يضمه ذلك البناء من نظم وظواهر اجتماعية وأنماط ثقافية، ولم يكتف بالعرض بل قدم دراسة مقارنة لها بما يماثلها لدى المجتمعات العربية والفارسية واليونانية وهي مجتمعات عايشها البيروني كالمجتمعات العربية والفارسية أو قرأ عنها من مصادرها الأصلية كاليونانية، ومنه كانت دراسته المقارنة مبنية على أساس المعايشة والتجريب [1] ومن أهم هذه الظواهر والأنماط:

ــ فيما يخص البرهمن وما يجب عليه مدى عمره أن يفعله:

يذكر البيروني بأن البرهمن [2] بعد مضي سبع سنين من عمره ينقسم عمره إلى أربعة أقسام:

ــ القسم الأول: من السن الثامنة إلى السنة الخامسة والعشرين، وفي هذه المرحلة يجتمع عليه البراهمة ويعرفونه الواجبات التي يجب أن يلتزم بها ويوضع له حزام من عاتقه الأيسر إلى جنبه الأيمن ويعطى له قضيبا يمسكه وخاتم يضعه في البنصر اليمني، ويسمى هذا الخاتم "ببتر" والقصد منه التبرك ولا يمكن التخلي عن هذه المظاهر في هذه المرحلة ويجب عليه أن يتزهد ويقبل على تعلم "بيذ" وتفسيره وعلم الكلام والشريعة من أستاذ يخدمه آناء الليل ونهاره، ويغتسل كل يوم ثلاث مرات ويقيم قربان النار في طرفي النهار، ويسجد لأستاذه بعد القربان، ويصوم يوما ويفطر يوما مع الامتناع عن اللحم أصلا[3] والنار عندهم معظمه كسائر الأمم.

ــ القسم الثاني: عند البرهمن من السنة الخامسة والعشرين إلى الخمسين وفي هذه المرحلة يأذن له الأستاذ بالتأهل فيتزوج وينجب ويكون معاشه من تعليم البراهمة وكشتر ويقبل الهدية، ويجوز له أن يضرب يده في التجارة للضرورة.

1 صلاح مصطفى الفوال: **المدخل إلى علم الاجتماع**، ص. 172.

2 ينظر المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص. 76.

3 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 412.

ـــ القسم الثالث: من السنة الخمسين إلى الخامسة والسبعين وفي هذه المرحلة يتزهد ويخرج من العمران ولا يسكن بسقف ولا يلبس إلا ما يواري سوءته من لحاء الشجر ولا ينام إلا على الأرض بغير وطاء ولا يتغذّ إلا بالثمار وبالنبات وأصوله، ويطول الشعر ولا يتدهن.[1]

ولعل هذه الفئة من البرهمن في هذا القسم هي التي ذكرها سليمان التاجر عندما قال: «فئة من الناس تفضل الاعتزال في الجبال ولا تعاشر الناس ولا يأكلون إلا الحشيش ويستقبلون الشتاء بدون لباس»[2] وفي موقع آخر يقول: «والهند يطولون لحاهم ربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع».

واللافت هنا أن سليمان التاجر يعطي وصفه بصفة عامة دون تحديد طبيعة الطبقة التي ينتمي إليها صاحب هذه الصفات عكس البيروني الذي يحدد ويدقق في الانتماء الطبقي لكل صفة يذكرها من صفات أهل الهند.

وكذلك نهج أبو دلف نهجه في ذكر عدم أكلهم اللحم[3] في نفس السياق الذي ذكره المسعودي أنهم لا يتغذون بشيء من الحيوان ولهم خيوط صفر يتقلدونها فرقا بينهم وبين غيرهم[4] وهؤلاء يبدو من ذكرهم البيروني من البرهمن في القسم الأول من أعمارهم.

ـــ القسم الرابع: فهو إلى آخر العمر حيث يلبس البرهمن في هذه المرحلة لباسا أحمر ويأخذ بيده قضيبا ويتخلى عن الغضب والعداوات ولا يصاحب أحدا البتة، ولا يجوز أن يُبقي شيئا مما جاءه من عطاء للغد ويُبقي على النار مشتعلة ليحرّق بها بعد موته مع الاغتسال ثلاثة مرات في اليوم، ويقول البيروني: وقد رأيت من البراهمة من جوّز مؤاكلة أقاربه في قصعة واحدة وأنكر ذلك سائرهم.[5]

---

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.414.

2 ينظر سليمان التاجر: **سلسلة التواريخ**، ص.50.

3 أبو دلف: **الرسالة الأولى**، ص. 64.

4 المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص.76.

5 البيروني: المصدر السابق، ص.415.

ــ فيما لغير البرهمن مدى عمره:

وهذه أصناف أخرى يتحدث عنها أبو الريحان البيروني على غير من سبقوه في وصف المجتمع الهندي سواء من الذين ذكرناهم أو من الذين جاءوا من بعده مثل الرحالة ابن بطوطة ومن غير البرهمن يصف لنا طبقة كشتر الذي يتعلم "بيذ" ولا يعلمه، ودوره سياسة الناس والقتال عنهم فإنه مخلوق لذلك.

أما "بيش" فإليه الفلاحة والعمارة ورعي البراهمة، أما شودر فهو للبرهمن كعبد يتصرف في أشغاله ويخدمه، وكل عمل يخص البرهمن محظور عليه وإذا أخطأ وقرأ "بيذ" قُطع لسانه، وأما عمل البر والصدقة فهو غير ممنوع عنه، وينقد البيروني هذا بقوله: وهذه كلها من تفاضل الدرجات التي يتخذ فيها بعضهم لبعض سخريا.[1]

03 ــ علوم أهل الهند ومشاهدات البيروني الجغرافية والعمرانية:

إذا كان سليمان التاجر يعتبر الهند بلد علم وديانة بقوله: "والطب بالهند والفلاسفة ولهم علم بالنجوم وذلك أكثر، فإن أبا دُلف[2] تحدث عن بعض العلوم التي اشتهرت بها الهند مثل علم الفلك الذي تتميز به مدينة جاجلي والتي فيها بيت معمول من الحديد يستعمل للأرصاد، وتحدث عن الطب الذي تتخصص فيه مدينة كولم التي يؤتى إليها من كل أرجاء الهند[3]، أما المسعودي فيركز على فرقة البراهمة التي فيها الصلاح والحكمة وتقدمت في أيامهم الهند، علمائها استخرجوا الحديد وضربت في أيامهم السيوف وأحدثوا كتاب "السند هند"[4] الذي منه فرغت الكتب ثم يقول وللهند التقدم في صناعة الطب ولهم فيه اللطافة والحذق[5]، وقد أثبت المقدسي من مدن الهند في وصفه مدينة المنصورة وقنوج

---

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.416 – 417.

2 سليمان التاجر: **سلسلة التواريخ** ، ص. 57.

3 أبو دلف: **الرسالة الأولى**، ص. 174.

4 المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص.76.

5 المصدر نفسه، ص.173.

بأنها مدن بها علماء واجله[1]، مخالفا بذلك الإصطخري الذي لم يشر إلى علماء الهند أو ما يميز مدنها في هذا الجانب الثقافي أما البيروني فقد ذكر أن جميع الكتاب الذين كتبوا قبله حول العلوم والحضارة الهندية اعتمدوا على المصادر الثانوية بشكل رئيسي ولكنه أكد لقرائه على أنه أخذ التفاصيل من المصادر الأصلية.[2]

أ ــ في ذكر كتبهم في سائر العلوم: البيروني حين يتحدث عمّا عند الهنود من تراث ضخم يناقش تعريفهم للعلم بأنه هو طريق الخلاص وما ينتج عن ذلك من قولهم بأن الأوجه التي يحصل بها العلم للعالم هي ثلاثة: أحدها إلهام بلا زمان مع الولادة والمهد، والثاني بالعلم بعد الولادة، والثالث بتعلم وبعد زمان كسائر الناس، وقولهم كذلك أن الوصول إلى الخلاص بالعلم لا يكون إلاّ بالنزوع عن أثر.[3]

وهو يحفي لنا الكثير من كتبهم خاصة في علم النجوم لتعلق أمور الملة به ويذكر بأن الهنود يعرفون كتاب "سند هند" هذا الذي ذكره المسعودي مع طبقة البراهمة، لكن البيروني يقول هو في الأصل "سيد هاند" أي المستقيم الذي لا يعوج ولا يتغير ولا يقع هذا الاسم على كل ما علت رتبته عندهم من علم حساب النجوم[4] ويعدد خمسة كتب تحمل هذا الاسم منها كتاب لليونان وآخر للروم وتستند هذه الكتب كلها إلى كتاب "بيتامه" الذي هو منسوب إلى الأب الأول "براهم" الذي ألفه في مدينة بهلمال وهي قريبة من الملتان، ويذكر أنه تحصل على نسخة من هذا الكتاب الذي ذكر فهرسته وعدد أبوابه الخمسة والعشرين وقال إنه نافع في المعارف[5]، ولعل أول نقل من الهندية إلى العربية سجله التاريخ حصل في زمن الخليفة المنصور الذي كان مولعا بترجمة كتب الفلك والتنجيم ويقال أنه في عام

1 المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص.479 – 480.

2 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 17.

3 المصدر نفسه، ص. 53.

4 المصدر نفسه، ص. 107.

5 المصدر نفسه: ص. 108.

771م جاء وفد من السند غربي الهند ومعهم كتاب السند هند فأمر المنصور بترجمته إلى العربية وكلف بهذا الأمر إبراهيم بن حبيب الفزاري المنجم الذي كان يتقن اللغة الهندية[1]، ويعتبر العصر العباسي عصرا ذهبيا فيما يتعلق بنشر وترويج العلوم الطبيعية الهندية فتم نقلها إلى اللغة العربية تحت رعاية الخليفة هارون الرشيد والمأمون والبرامكة الذين كانوا ينتمون أصلا إلى بلخ.[2]

ويذكر البيروني أن كل ما جاء من كتب بعد "سند هند" فيسمى أكثره إما "تنتر" وإِمّا "كرن" فالأول تعني المتصرف والثانية تعني التابع لسند هند وفي كل صنف من هذه الأصناف أسماءً عديدة لكتب مختلفة حول الفلك والحساب والتنجيم ذكرها أبو الريحان في رحلته[3] مثل «آرجيهد» وقد ترجم أيضا إلى العربية في عهد الخليفة المنصور "والاركند" وكتاب "بهتل" وما لا يكاد يحصى كما قال أبو الريحان.

ويذكر كتاب "جاتك" أي المواليد الذي نقله أبو الريحان إلى العربية وهو من تأليف بلتهدر وكتاب "ساراول" أي المختار وألفه الملك كلان برم حول فضائل العلم ويقول البيروني أن اليونانيين لهم في هذا الباب. وفي العرس والتزويج لهم كتاب "بباهتل" وفي علم الغيب يذكر كتاب اسمه "جورامن" ألفه صاحب المذهب البوذي الذي يلقب باسم "البد"[4]، وهكذا عرفته جميع المصادر الإسلامية.[5]

---

1 حبيب الله خان: **التراجم العربية للمؤلفات الهندية**، ص.132.

2 شيث محمد إسماعيل الأعظمي: **الجوانب الدينية والاجتماعية للعلاقات الهندية العربية**، ص.104.

3 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.110.

4 يبدو أن سذهاتا Siddharta الذي ولد سنة 563 ق.م هو البد الذي أشار إليه البيروني نظرا لسلوكه طريق الرهبنة والتأمل وأطلق عليه اسم غوتاما Guatama أي الراهب، ينظر إلى **موسوعة الأديان**، ص.177.

5 ينظر ابن خرداذبه: **مسالك الممالك**، ص. 64. ابن رستة: **الأعلاق النفيسة**، تحقيق م.ي.دي خويه ، لندن، د.ت، ص.136. سليمان التاجر: سلسلة التواريخ، ص.57 .

ب ــ في علم الطب: سبق وأن قلنا أن النظام الطبي في الهند كان معروفا لدى العرب وتحدثنا عن ولع البرامكة بهذا النظام واستعانتهم به في علاج كثير من الأمراض، فقد ذكر صاحب الفهرست قصة البرامكة مع الطب الهندي[1] الذي كان يعرف باسم "الايورفيدا" وقد علمنا أن الطبيب الهندي "منكة" كان قد دُعِي من قبل هارون الرشيد لعلاجه فعينه طبيبا رسميا في المستشفى وقام بترجمة سبعة كتب إلى العربية[2]، وجاء في الفهرست كتاب "سُسَرد" الذي يحوي عشر مقالات حيث طلب يحي بن خالد البرمكي من "منكة الهندي" تفسيره وكتاب "البيمارستان" وكتاب "سيرك" في العقاقير الهندية وكتاب "علاجات الحبالى للهند" وكتاب "توقشتل" فيه مائة داء ومائة دواء وكتاب "روسا الهندية" في علاجات النساء و كتاب "السكر للهند" وكتاب "أسماء عقاقير الهند" قد فسره منكة لإسحاق بن سليمان وكتاب "رأي الهند في أجناس الحياة وسمومها"، وكتاب "التوهم في الأمراض والعلل" لتوقشتل الهندي.[3]

وكانت علوم الرياضيات والطب أرقى علوم الهند وأشرفها فاستفاد العرب وإيران من علماء الهند إلا أن العرب درسوا علوم اليونان وقاموا بمحاولات ناجحة في تطويرها ولذلك لما جاء المسلمون الهند حكموا بنظامهم العلمي الذي شمل عناصر منفردة أخذها الهنود نظرا لجدتها.[4]

والبيروني عندما تناول الطب الهندي في رحلته عاد إلى مصادرهم وجاء بما لم يذكره صاحب الفهرست أو أحدا من الرحالة الذين سبقوه فقد ذكر بأن الهنود يقدمون على جميع كتبهم في الطب كتاب "جرك" أي العاقل الذي يعود تأليفه إلى "برجابت " وهو براهم

---

1 ابن النديم: **الفهرست،** ص.498 .

2 شيث محمد إسماعيل الأعظمي: **الجوانب الدينية والاجتماعية للعلاقات الهندية العربية،** ص.105.

3 ابن النديم : المصدر السابق، ص.435. ينظر أيضا **الأدب المفرد،** ص. 27.

4 محمد عمر: **المجتمع الهندي الإسلامي تبادل ثقافي،** تر. أورنك زيب الأعظمي، مجلة ثقافة الهند، العدد 54، رقم 3-4، 2003، ص. 68.

الأب الأول ثم يقول وقد نقل هذا الكتاب للبرامكة إلى العربي ولهم فنون من العلم كثيرة وكتب لا تكاد تحصى ولكني لم أحط بها علما.[1]

جـ ـ الفنون الأدبية:

1/ الشعر: يتحدث البيروني عن الشعر فيقول أن أهل الهند لا يستغنون عنه فإن كتبهم منظومة بأوزان الشعر وقصدهم فيها أن يسهل استظهارها ولا يرجع في العلوم إلى الكتاب إلا عن ضرورة وذلك لأن النفس تواقة إلى كل ما له تناسب ونظام، ومشمئزة عما لا نظام له ولأجل هذا ترى أكثر الهند يحرصون عليه... ولا يرغبون للمنثور وإن سهلت معرفته، وأول من استخرج هذه الصناعة كان "بنكل" و "جلت"، ويذكر البيروني بأن هؤلاء يصورون الحرف بالساكن والمتحرك مثل ما صوره الخليل ابن أحمد والعروضيون منّا [2] ويبدو من كلام البيروني أن بعض العلماء حتى في عصره (أي خلال 362 – 440 هـ) كانوا يعتقدون بوجود آثار الهند في الخليل بن أحمد وهذا الرأي لا يستبعد على ضوء بعض الحقائق التاريخية لأن ابن النديم ذكر عدة كتب هندية أدبية ترجمت إلى العربية منذ عصر مبكر مثل كتاب أدب الهند والصين وسندباد الصغير، وكتاب السندباد الكبير، وكتاب منطق الهند[3]... وفي كتاب العين للخليل ابن أحمد نجده قسم الحروف الهجائية إلى مجموعات صوتية بدأها بحروف الحلق وختمها بالحروف الشفوية، وهذا الترتيب موافق من بعض الوجوه ترتيب حروف الهجاء في السنسكريتية حسب أبو الريحان البيروني[4] وإلى هذا الرأي ذهب جرجي زيدان.[5]

---

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.111.

2 المصدر السابق، ص.96.

3 ابن النديم: **الفهرست**، تحت عنوان: أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار، ص.438.

4 البيروني: المصدر السابق، ص ص.95 – 106.

5 جرجي زيدان: **تاريخ الأدب في اللغة العربية**، ج.2، ص.122.

ويبدو أن تعلق الهنود بالشعر نابع من رغبة أكيدة وولع شديد حتى أن جميع كتبهم المقدسة التي ذكرها البيروني [1] كتبت شعرا وربما من هذا الأساس كان دافع دراسة هذه الأوزان وتاريخها عند البيروني مهما جدا وعلاقتها بقواعد الرياضة والفلك مما صعب فهمها صعوبة على الدارسين.

ويبدو أن البيروني كان على إطلاع كبير بما سبقه من احتكاك بين الهنود والعرب في هذا المجال حيث لم تبق العلاقات منحصرة على الجانب التجاري أو العمل العسكري، فقد زار شاعر هندي بلاط يحي بن خالد البرمكي وزير المأمون وأنشد قصيدة في مدحه تعني إحدى آبياتها: "أنه كلما نتحدث عن أسخياء العالم فلا بد أن نذكر اسمك أيضا".[2]

وعلماء اللغة والخطباء والشعراء ورواة الأحاديث النبوية الشريفة والنحويون من ذوي الأصول الهندية وأبرزهم كان أبو العطاء السندي وإبراهيم السندي وأبو النصر السندي من أهم الشعراء العباسيين لذلك العصر، أما السيدات من الأصل الهندي للعصر العباسي فمنهن خمار السندية البغدادية وشاهدة الطحانة (صاحبة مطحنة) والطلبة الهندوسية البغدادية.[3]

فلقد احتلت الهند مكانا بارزا في الحركة الأدبية التي قامت في بغداد وأصبحت الهند وما فيها ظاهرة واضحة كل الوضوح في كتب الرحالة والأدباء أمثال الجاحظ في كتاب "الحيوان" وأشعار أبي العلاء المعري وغيرهم.

2/ فن الكتابة: هذا الجزء من الباب السادس عشر يقول فيه البيروني: «إن اللسان مترجم للسامع عن ما يريده القائل فلذلك قصر على راهن الزمان الشبيه بالآن... نقل الخبر من ماضي الزمان إلى مستأنفه على الألسنة وخاصة عند تطاول الأزمنة لولا ما أنتجته قوة

---

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.88.

2 شيث محمد إسماعيل الأعظمي: **الجوانب الدينية والاجتماعية للعلاقات الهندية والعربية**، ص.505.

3 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

النطق في الإنسان من إبداع الخط الذي يسري في الأمكنة سرى الرياح ومن الأزمنة إلى الأزمنة سريان الأرواح» ثم يزيدنا البيروني علما فيقول: «الهنود لم يعتادوا الكتابة على الجلود كما كان يفعل اليونانيون» ويروي قولا لطيفا (لسقراط) حينما سئل عن علة عدم اهتمامه بتأليف الكتب قال: إنه يأبى أن يعمد إلى نقل الحكمة من قلوب الناس إلى جلود الضأن الميتة ولقد استعمل المسلمون في عصر صدر الإسلام الكتابة على الجلود، مثلما فعلوا في كتابة المصحف على جلود الظباء، ومثل كتاب نبي الهدى إلى كسرى ملك الفرس، ومثل عهد بني خيبر من اليهود.

وكان المصريون يعرفون القرطاس، ويصنعونه من ورق البردى، وعليه دونت كتب الخلفاء والكواغذ لأهل الصين نقلها واحد منهم إلى سمرقند. أما الهنود من أهل الجنوب لهم شجر باسق النخل أو النارجيل له أوراق في طول ذراع يسمونها "تاري" يكتبون عليها، وفي وسط الهند وشمالها يأخذون لحاء شجرة "التوز" وهي تستعمل للدهن فيكتبون عليها.[1]

والمعلومات التي أكدها البيروني حول مصادر الكتابة عندهم سواء في الجنوب أو واسطة المملكة وشمالها تؤكد ربما زيارته إلى المناطق الجنوبية وعدم اقتصاره على الشمال والشمال الغربي وإن كان الأستاذ "أيم أيس خان" أستاذ التاريخ بجامعة كالكوتا قام بدراسة ينفي فيها وجود أي دليل يثبت بأن البيروني قام بزيارة الجنوب بحجة عدم مناقشاته لديانتها وثقافتها.[2]

ويؤكد البيروني أن صناعة الورق التي أدخلها الصينيون إلى "سمرقند" كانت قد انتشرت منها إلى بلاد شتى لتسد الحاجة الملحة للتدوين.[3] وذلك لِمَا وقع من ضخامة

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.119.

2 راجع مقال **البيروني رائد الدراسات الهندية**، مجلة ثقافة الهند، مجلد 56، ع3، 4 2005،" أيم أيس خان"، تر. صهيب عالم، ص192.

3 البيروني: المرجع السابق، ص. 119.

الدولة وتوابع الحضارة، وجاءت صناعة الوراقين لانتساخ العلوم وكتب الرسائل... فأشار الفضل بن يحي بصناعة الكاغد وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفا ومنه انتقل إلى بلاد الهند.[1]

3/ في الخط عندهم: باستثناء المسعودي من الرحالة والجغرافيين الذين ذكرناهم لا نجد معلومات عن خطوطهم أو حسابهم مقارنة مع ما ذكره أبو الريحان البيروني. المسعودي ذكر أن الهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت وبين هذه الممالك تباين وحروب ولغاتهم مختلفة وآراؤهم غير متفقة، وقال: لغة الهند خلاف لغة السند. ولغة مملكة البلهرا تخالف لغة أهل الساحل [2]، ويبدو أن هذا التنوع في اللغة الذي لم يبحث في أسبابه المسعودي أو الرحالة الأخريين هو الذي جعل البيروني يكتب فصلا كاملا عن خطوطهم وحسابهم ومصادر الكتابة عندهم. فعندما تحدث عن الخط عندهم قال بأنه كان خطا غير واضح في القديم وينسى ولم يهتم له أحد حتى صار معظم الهنود أميين وزاد ذلك في جهلهم وتباعدهم عن العلم.[3]

حتى جاء أحد فضلائهم وجدد لهم حروفهم الخمسين وهو "بياس بن براشر" وكان يطلق على هذه الحروف اسم " أكشر" ويذكر على رأي مؤرخي المغرب أن اليونانيين كان لهم في زمن "أردشير بن دارا بن كورش" أربعة وعشرون حرفا ويعود ارتفاع الحروف عند الهنود إلى إفراد صورة واحدة للحرف عند الإعراب وكتابتهم من اليسار نحو اليمين كعادة اليونانيين أما الخط المشهور عندهم فيسمى "سد ما ترك" وينسبه إلى كشمير باعتبارها مدرسة علومهم ومنطلق الكتابة عندهم[4] ويستعمل هذا الخط باسم "آرجافرت" في

1 ابن خلدون: **المقدمة**، تحقيق ا.م. كارترمير، ط. باريس، مكتبة لبنان، 1858م، ص.349-350.

2 المسعودي: **مروج الذهب**، ج.1، ص ص. 82، 169.

3 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص. 119.

4 راجع مقال محمد مظفر بعنوان: **النشاط العلمي في كشمير في عصور تاريخها القديم**، مجلة ثقافة الهند، المجلد 50، العدد1-2، 1999م، ص ص. 54-80.

منطقة "مدّديش" وهي تابعة لمملكة " قنوج" ثم يعدد أبو الريحان البيروني مجموعة من الخطوط الأخرى المستعملة في بلاد الهند من شمالها إلى جنوبها ولا يستثني الخط الذي تستعمله الديانة البوذية في ناحية المشرق الذي يسميه "بيكشك" ومفتتح الكتب عندهم عند الكتابة هو لفظ "أوم" [1] وتختلف كتابتهم على ما هو عندنا حيث ترتفع رؤوس الحروف وتنحط الأذناب عندنا فإن القاعدة عندهم الاستقامة على السطر لكل واحد من الحروف.[2]

4/ في فن الحساب: لقد أسدت الهند خدمات جليلة إلى الحضارة الإنسانية باختراع نظريات خالدة في الجبر والهندسة تلقتها الأمة العربية إبان مجدها وحضارتها ثم سلمتها في عهد تخلفها إلى الأمة الأوروبية حتى استطاعت بها أوروبا أن تصل إلى ذروة المجد والكمال في العلم.[3] عندما يتحدث البيروني عن الحساب يقول بأن أرقام الحساب عند الهنود تختلف عما عندنا، رغم أننا نقلناها عنهم، وهي أحسن ما عندهم[4]. وتفصيل الأمر أنه كانت لدى الهنود أشكالا عديدة للإعداد اختار العرب منها مجموعتين، كل مجموعة مكونة من تسعة أرقام، وبذلك كوّنوا سلسلتين هما:

ـــ سلسلة الأرقام الهندية التي يستعملها العرب اليوم.

ـــ سلسلة الأرقام الغُبارية وقد انتشرت وعمّ استعمالها في الأندلس، ثم انتقلت من هناك إلى أوروبا وهي تعرف الآن باسم الأرقام العربية.[5]

وسميت بالأرقام الغُبارية لأن أهل الهند كانوا يأخذون غبارا لطيفا ويبسطونه على لوح من خشب أو غيره أو ما كان مستويا ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون إليها في

---

1 من الممالك القوية في العصور الوسطى وتقع هذه المدينة على شاطئ نهر كالندي وهو من روافد الغانج في منطقة أودة شمال شرق بلاد الهند، ينظر: Grousset (Rénie): **Histoire de l'Asie**. Presse universitaire de France. Paris . 1941.p55.

2 البيروني: **تحقيق ما للهند،** ص121.

3 محمد إسماعيل الندوي: **تاريخ الصلات،** ص80.

4 البيروني: **تحقيق ما للهند،** ص.121.

5 محمد جمال الفندي، وإمام إبراهيم: **أحمد البيروني،** أعلام العرب، مصر دار الكتاب العربي، 1968، ص.50.

عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم التجارية[1] ويرى بعض العلماء أن السلسلة الغُبارية مرتبة على أساس الزوايا فالرقم 1 يتضمن زاوية واحدة، والرقم 2 يتضمن زاويتين وهكذا [2]... وعلى ذكر الأرقام العربية أو الأرقام الهندية يقول الأستاذ قدري حافظ طوقان: «إن لهذه الأرقام مزايا عديدة ومنها أنها تقتصر على عشرة أشكال بما فيها الصفر ومن هذه الأشكال يمكن تركيب أي عدد مهما كان كبيرا»[3] والشيء الهام الذي يضيفه البيروني هو حديثه عن الزيادة الغير مرغوب فيها في أرقام الهنود حيث يقول: «وأما استعمال الأرقام في الحساب فعلى الرسوم التي عندنا وقد عملت مقالة فيما عسى يكون عندهم فيها من الزيادة... فقد وضعوا لكل عدد عدة كلمات فرقم واحد هو الأرض والقمر، والاثنين كالسواد والبياض... وقد أودعت الجدول على ما كنت أسمعه منهم...» مما يدل على قربه من الهنود ووجوده معهم في إدراك هذه الحقائق الهامة وهذا نقلا عن كبير من علماء الرياضيات في الهند وهو "بِرْهَمْكُوبت".[4]

5/ في علم الفلك: أشار قبل البيروني سليمان التاجر بأن الهند بلد علم وديانة... ولهم علم بالنجوم وذلك أكثر[5] ولم يزد عن ذلك شيئا وبعده أبو دلف ذكر بأن لأهل كشمير أعياد في في رؤى الأهلة ولم يضف شيئا فوق ذلك بينما خص البيروني فصولا في التقويم الكشميري[6]، وعندما تحدث أبو دلف عن بعض المدن التي اشتهرت بالعلم خص مدينة جاجلي وكولم وكشمير التي قال عنها أنها تشتهر بعلم الفلك ولهم بيت معمول جميعه من الحديد للرصد الفلكي والحساب[7]، أما المسعودي الذي وضع فصلا كاملا في ذكر جمل من

---

1 قدري حافظ طوقان: **العلوم عند العرب**، سلسلة ألف كتاب، ج.4، ص.167.

2 محمد إسماعيل الندوي: **تاريخ الصلات**، ص.81.

3 قدري حافظ طوقان: المرجع السابق، ص ص.49 – 51.

4 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.124.

5 سليمان التاجر: **سلسلة التواريخ**، ص.57.

6 البيروني: المصدر السابق، ص ص.329 –345 –347.

7 أبو دلف: **الرسالة الأولى**، الورقة 174، ص.25.

من أخبار الهند وآرائها في كتاب "مروج الذهب" [1] فلم يشر إلى تفاصيل هذا العلم إلا من خلال ذكره لكتاب "السند هند" الذي يفسره بدهر الدهور والذي منه فرعت الكتب كتاب "الأرجيهد" الذي يتحدث عن أوج الشمس والأبراج [2] دون الخوض في تفاصيلها.

ويذكر كيف ربط أهل الهند معابدهم بصور الأفلاك والبروج الاثنى عشر والكواكب خاصة البراهمن الأكبر[3]، وإذا نظرنا إلى الإصطخري والمقدسي فلا نجد مجالا مجالا ولو قليلا لهذا العلم في رحلتهم إلى الهند باستثناء ما قلناه عنهم في وصفهم للإقليم. أما البيروني فهو عالم في الفلكيات قبل أن يكون سائحا ورحلته إلى الهند هي رحلة الباحث في أرجاء الكون حيث قام بأرصاد عديدة في أماكن مختلفة[4]، وكتاب القانون المسعودي، وكتاب "التقسيم في صناعة التنجيم" أدّل على قدرته الفائقة في هذا العلم. وكان البيروني محيطا كل الإحاطة بكتب الفلك التي تركها "بطليموس" وغيره من فلكيي اليونان، كما كان مُلِمّا بعمل الفلكي الهندي العظيم "برهْمَكُوبت" في القرن السادس إلى السابع الميلادي وكذلك بكتب الفلك التي ألفها "تبصقارا" في القرن السابع الميلادي وينقل البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند" هذه الفقرة من كتاب "برهمكوبت" عن دوران الأرض: يقول أتباع "أربابهاتا" « إنّ الأرض تدور والسماء ثباتة»، وحاول بعضهم رد هذا القول بأنه لو صحّ ذلك لسقطت الحجارة والأشجار من الأرض[5]، ولكن البيروني يقول ما مؤداه: مؤداه: «إنّ "برهمكوبت ابن حبش البهلّماني" في "براهم سدّهاند" لا يتفق معهم في ذلك بل يقول: إنّ هذا السقوط لا يحدث، لأنه يعتقد فيما يظهر أن جميع الأشياء الثقيلة تنجذب نحو

1 ينظر المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص ص.76 – 86.

2 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص.206.

3 المسعودي: المصدر السابق، ص.76.

4 روى البيروني أنه أجرى في الجرجانية نحو خمسة عشر رصدًا للممر الشمسي الزوالي وفي نحو سنة 997م رصد كسوف القمر في مدينة كاث. بخوارزم، راجع مقالة باللغة الإنجليزية في قاموس العلماء ج2، ص.147-158./ Dictionary of scientific. **Biography**. Charles scribners, New York, 1970 Vol 2, pp.147-158.

5 البيروني: المصدر السابق، ص.202.

مركز الأرض».[1] ومن كلام البيروني أيضا في محاولة مناقشة الهنود حول موضوع دوران الأرض يقول ما مؤداه: «إنّ دوران الأرض لا يقدح بأي حال في قدر علم الهيئة لأن جميع الظواهر الفلكية يمكن تفسيرها طبقا لهذا القول أو ذاك على أن هناك أسبابا أخرى تجعل ذلك مستحيلا» وهذه مسألة من أعسر المسائل، وقد درس أشهر علماء الهيئة من القدماء والمحدثين مسألة دوران الأرض وحاولوا دحضها، ثم يستطرد البيروني: «وقد ألفنا نحن كتابا في هذا باسم "مفتاح علم الهيئة" وأعتقد أنني زدت فيه على ما قاله من سبقني من العلماء».[2]

---

1 البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص ص.196-206.

2 المصدر نفسه، ص.206.

ـ خاتمة الفصل:

لقد تميزت كتابات البيروني عن الهند والهنود بموضوعية وثقة واحتلت مكانا بارزا عند الباحثين والمؤرخين الذين كتبوا عن الهند وحضارتها، والبيروني من الرحالة القلائل الذين أمدونا بحقائق وافية عن بلاد الهند وثقافتها كمشاهد عيان، وقد وفق البيروني في إبراز خصائص ومميزات المجتمع الهندي مقارنة مع بيانات الرحالة الآخرين الذين زاروا الهند قبله أو بعده.

والملاحظ عند البيروني وهو يقارن ثقافات وعقائد الهند بأسلوب موضوعي غير متعصب مدركا حقائق أصحاب الديانات الأخرى معتمدا على الدراسة والاستنباط المحكم من خلال معرفة اللغة والعلوم الأخرى التي كان يتفوق فيها الهنود وهو في ذلك يعتمد على مصادرهم التي كان الكثير من الهنود في حد ذاتهم يجهلونها.

فالبيروني في دراسته للهند اتبع منهجا حديثا يخالف كل من سبقه من الرحالة المسلمين لبلاد الهند أو غيرهم.

والعودة إلى تراث البيروني يمثل مرجعية تاريخية تعرفنا بعوامل القوة والضعف في الحضارة الإسلامية.

الفصل الرابع

الدراسات الهندية
من خلال رحلة ابن بطوطة

المبحث الأول: سيرة ابن بطوطة

أ ــ نسبه ومولده:

شيخ الرحّالة العرب محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللّواتي الطّنجي، وكنيته أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين، ويُعرف بابن بطوطة [1] (بتشديد الطاء أو تخفيفها) ولد في يوم الإثنين السابع عشر من شهر رجب عام 703 هـ الموافق للخامس والعشرين من فبراير عام 1304 هـ في مدينة طنجة على مضيق جبل طارق بشمال المغرب[2] في عائلة اشتُهرت بالقضاء، سليلة قبيلة لواتة البربرية[3].

ب ــ تعليمه وشيوخه:

درس ابن بطوطة وتعلم بمدينة طنجة ليهيّئ نفسه للقضاء على مذهب الإمام مالك كباقي أفراد عائلته، وهذا ما أكّده بنفسه عندما عرضت عليه الوظائف في دهلي[4] قاعدة بلاد الهند إذ قال : « ومن الذين تولوا القضاء من أفراد أسرته : القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة حيث تولّى قضاء مدينة رُندة بالأندلس»، ولم يكن ابن بطوطة على درجة كبيرة من العلم، فقد كان محدود التحصيل، وقد وصفه لسان الدين بن الخطيب وكان من عارفيه ومعاصريه، نقلا عن أبي البركات البلفيقي[5] بقوله:«هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب».

---

1 مصطفى سالم عبد الله حبلوس: **أدب الرحلات عند العرب ــ نشأته وتطوره ــ "ابن بطوطة أنموذجا"**، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، 2009، ص.225.

2 المصدر نفسه، ص. 225.

3 **قبيلة لواتة:** قبيلة بالبربر في شمال إفريقية تصل إلى الحدود الشرقية في ليبيا، وما زالت لهذه القبيلة أصول في ليبيا وهي الآن عربية، ينظر أحمد العوامري ومحمد جاد الله: **مهذب رحلة ابن بطوطة**، الطبعة الأميرية بالقاهرة، 1933، ج.1، ص.1.

4 **دهلي:** توجد خرائب دهلي حوالي عشرة أميال جنوب دهلي الجديدة، ينظر محمد ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر الكتاني، ط.4، مؤسسة الرسالة، 1985، ج.2، ص.478.

5 **أبو البركات البلفيقي:** هو محمد بن محمد ابن خلف السلمي، من ذرية العباس بن مرداس المعروف في بلده بابن الحاج، وفي غيره بالبلفيقي، تولى قضاء الجماعة بحضرة غرناطة والخطابة بها وكان مستوفيا لشروط الخطبة وجوبا وكمالا من صورة وهيئة، واشتهر بالصرامة في أحكامه، والنزاهة أيام نظره. انظر عنه: **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا=تاريخ قضاة الأندلس**، أبو الحسن علي بن عبد الله ابن الحسن النباهي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1403هـ -1983م، ص.164-165.

جــ ــ سيرته:

اتّسم ابن بطوطة برقّة العاطفة وسرعة التأثّر ورفاهة الوجدان، وليس أدلّ على ذلك من وصفه لاستقبال أهل تونس للشيخين أبي عبد الله الزبيدي وأبي الطيب النفزاوي بعد أدائهما لمهمة رسمية لدى سلطان مدينة تلمسان أبي تاشفين عبد الرحمن، وقد رافقهما ابن بطوطة في رحلة عودتهما، حيث أقبل الناس عليهم بالسلام والترحاب، بينما لم يُقبل أحد منهم على ابن بطوطة لعدم معرفتهم به، فأثّر هذا الموقف في نفسه أيّما تأثير، حيث قال:«فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة، واشتدّ بكائي، فشعر بحالي بعض الحجاج، فأقبل عليّ بالسلام والإيناس، وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلتُ منها بمدرسة الكتبيين»[1].

كما أنه كان محبّا لوالديه، ولم يفارقهما إلا على مضض حيث أفصح عن ذلك بقوله في مقدمة رحلته: «فتحمّلت لبعدهما وصبا، ولقيت كما لقيا من الفراق نصيبا»[2].

د ــ وفاته:

كانت وفاته سنة سبعين وسبعمائة كما نقل ابن حجر من خط ابن مرزوق، وذهب كثير من الباحثين إلى أنّ تاريخ الوفاة كانت سنة 779 هــ.[3]

1 محمد ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ج.1، ص ص.32 ــ 33.

2 المصدر نفسه، ج.1، ص.30.

3 مصطفى سالم عبد الله حبلوس: **أدب الرحلات عند العرب**، ص.225.

المبحث الثاني: رحلته

أطلق ابن بطوطة على رحلته اسم: " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" وهو عنوان ينبئ عن مضمون هذه الرحلات، وما احتوت عليه من مواضيع مختلفة وقيّمة بما فيها من غرائب وعجائب، ولم تكن لابن بطوطة مصنّفات أخرى عدا هذه الرحلة التي اشتُهر بها في الدوائر العلمية.

لم تكن صياغة الرحلة من إنشاء ابن بطوطة وحده بل أوكلت إلى الكاتب الأديب محمد بن جزيّ الكلبي بتكليف من السلطان المرينيّ، ولعلّ هذا السلطان يرى في كاتبه ابن جزيّ قدرات أدبيّة، تؤهله لأن يخرج هذا العمل في شكل جميل ورائق.

أ ــ أسباب الرحلة وأغراضها:

لمّا اشتد عود ابن بطوطة دفعته عاطفته الدينية الجارفة للعزم على أداء فريضة الحج، ولعلّه يطلب الرواية عن علماء المشرق المشهورين والاستزادة من علمهم، دأبه في ذلك دأب الرحّالة المغاربة السّابقين كابن جبير والعبدري[1]، وقد حدّد خروجه في رحلته هذه بقوله : «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد العام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم منفردا عن رفيق آنس بصحبته وركبٍ أكونُ في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة»[2].

التزم ابن بطوطة بأهدافه الدينية هذه أينما حلّ وحيثما سافر، كانت هناك أسباب لها الفضل الكبير في اتساع رحلاته حتى شملت العالم القديم بقاراته الثلاث، ولعلّه كان يسافر من أجل رؤية البلاد ومخالطة العباد دونما أهداف محدّدة، وقد يعزم على بلد ما ولكنّه يفاجئنا برحيله إلى سواه، ولم يجده الباحث يسأم أو يضجر، بل وجده يسعد بهذا التوجّه المفاجئ.

---

1 انظر تفاصيل رحلتيهما في مبحث الرحلات الدينية من الفصل الأول: ص.61 وص65.

2 محمد ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة**، ج.1، ص.30.

ب ــ اتجاه الرحلة ووسائل النقل:

بدأ ابن بطوطة رحلته من طنجة[1] وكان سلطان المغرب ــ آنذاك ــ أبو سعيد عثمان[2] من سلاطين مرين، وسافر إلى تونس برّا مارّا بطريق تلمسان ومليانة والجزائر وبجاية وقسنطينة وعنابة بالجزائر، ثم سافر إلى الإسكندرية مارّا بالمدن المتاخمة لساحل البحر وهي سوسة وقابس وصفاقص في تونس، وطرابلس ومسراتة وسرت في ليبيا.

ثم اتجه إلى الحجاز برّا عازما على أداء فريضة الحج عن طريق صعيد مصر مارّا بالقاهرة بعد زيارته لكثير من مدن الدلتا، ثم سافر بمحاذاة مجرى نهر النيل إلى جنوب مدينة الأقصر[3] ومنها اجتاز الصحراء على البحر الأحمر، ولكن لم يتيسر له عبور البحر الأحمر، لأن الحدربي[4] سلطان البجاة كان يومها في حرب مع مماليك مصر، ورجع إلى القاهرة ومنها سافر إلى دمشق برّا، ثم إلى المدينة المنورة ومنها سافر إلى مكة المكرّمة حيث وقف بعرفات أول مرة إذ قال: «وكانت وقفتي الأولى سنة ستّ وعشرين وسبعمائة»[5]ثم سافر برّا مع الركب العراقي إلى النّجف[6] ثم إلى مدينة البصرة[7] ومنها إلى أصفهان[8] فشيراز[9] ومنها عاد إلى الكوفة[10].

ثم اتجه إلى كربلاء ثم بغداد ومنها قام بزيارتين قصيرتين برّا: إحداهما إلى تبريز والأخرى إلى الموصل وماردين في تركيا، ثم رجع مرة ثانية إلى الحجاز حيث وقف بعرفات في حجته الثانية يوم الإثنين من سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وألزمه مرضه الإقامة بمكة، فحج للمرة الثالثة والرابعة في سنتي 728 هـ ــ 729 هـ، وخرج

---

1 **طنجة**: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، انظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج.4، ص.43.

2 **أبو سعيد**: عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، من ملوك الدولة المرينية بالمغرب. ولي بعد وفاة ابن أخيه سليمان ابن عبد الله " سنة 710 هــ، أمر بإنشاء الأساطيل بدار الصناعة لجهاد الإفرنج. **الأعلام** للزركلي، ج.4، ص.215.

3 **الأقصر**: مدينة على شاطئ شرقي النيل بالصعيد الأعلى فوق قوص، ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج.1، ص.237.

4 **الحدارية**: بطن من بطون العرب ومن أشهر ملوكهم، الملك بشر بن مروان بن إسحاق، كان لهم نفوذ على جنوب أسوان وبلاد السودان والحبشة، وكانت مملكتهم تُلقب بمملكة البُجَّة. للاستزادة انظر في: **شعب البجة في شرق السودان**، سليمان صالح ضرار.

5 محمد ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة**، ج.1، ص ص.187 ــ 188.

6 **النجف**: ظهر الكوفة وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج.5، ص.271.

7 **البصرة**: مدينة بالعراق، المصدر نفسه، ج.1، ص.430.

8 **أصفهان**: مدينة بالموضع المعروف بجي وهو الآن يعرف بشهرستان، المصدر نفسه، ج.1، ص.208.

9 **شيراز**: قصبة بلاد فارس، المصدر نفسه، ج.3، ص.380.

10 **الكوفة**: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، المصدر نفسه، ج.4، ص.490.

من مكة سنة 730 هـ قاصدا بلاد اليمن عن طريق جدّة بمركب، ولكنه لم يتمكن هذه المرة من الذهاب إلى اليمن بسبب الرياح العاتية، فعبر البحر الأحمر من جدة إلى سواحل السودان، ثم إلى اليمن حيث زار مدنه المشهورة: زبيد وتعزّ صنعاء، ثم ركب البحر أيضا من عدن إلى زيلع[1] بالصومال، ومنها سافر عن طريق البر إلى الساحل الإفريقي الشرقي مارّا بمقديشو بالصومال فمنبس بكينيا فكُلوا بتنزانيا ثم قفل راجعا إلى جزيرة العرب عن طريق البحر زائرا ظفار[2]، ثم مدن عمان: صور وقلهات ونزوى، وعبر البحر إلى فارس ثم عبر الخليج العربي إلى البحرين، ثم سار برّا إلى القطيف في السعودية، وزار واحة الحسا ثم اليمامة وواصل سفره إلى مكة حيث أدّى مناسك الحج للمرة الخامسة سنة 732 هـ. [3]

ثم سافر عن طريق البرّ من مصر إلى الشّام، ومن مرفأ اللاذقية[4] ركب السفينة إلى بلاد الروم حيث زار جلّ مدنها من أرز الرّوم[5] شرقا إلى أزمير غربا، ثم اجتاز البحر الأسود في سفينة من مرفأ صنوب إلى مدينة القرم في جنوب روسيا حاليا، وفي سفره من مدينة القرم إلى مدينة السّرا حاضرة السلطان محمد أوزبيك، ركب العربات لأول مرة وهي من أهم وسائل النّقل عندهم، ثم سافر بصحبة إحدى زوجات هذا السلطان في زيارتها لوالدها ملك القسطنطينية[6] ثم قفل راجعا إلى محلّة السلطان.

ومنها سافر برّا إلى خوارزم ومدن ما وراء النهر، فزار مدن الإسلام الشهيرة: سمرقند وبخارى وطوس[7] ومشهد الرضا ونيسابور وبسطام[8]، ثم سافر إلى الهند برّا عن

---

1 **زيلع:** هم جيل من السودان في طرف أرض الحبشة وهم مسلمون، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج3، ص.164.

2 **ظفار:** مدينة على ساحل بحر الهند، المصدر نفسه، ج.4، ص.60.

3 محمد بن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.1، ص.306.

4 **اللاذقية:** مدينة في ساحل بحر الشام، انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج.5، ص.5.

5 **أرز الروم:** بلد من بلاد أرمينية، المصدر نفسه، ج.1، ص.150.

6 **قسطنطينية:** دار ملك الروم واسمها اسطنبول، المصدر نفسه، ج.4، ص.347.

7 **طوس:** هي مدينة بخراسان، المصدر نفسه،ج.4، ص.49.

8 **بسطام:** بلدة كبيرة بقرمس على جادة الطريق إلى نيسابور، المصدر نفسه، ج.1، ص.421.

عن طريق كابل وغزنة، أقام بالهند ثماني سنوات، وقد تولى منصب القضاء بحاضرتها دهلي على مذهب الإمام مالك بتكليف من سلطانها محمد تغلق الذي قال له ناصحا : «ولا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال، هو أكبر الأشغال عندنا»[1] ثم استدعاه سلطان الهند يوما ليخبره بالمهمة الجديدة التي كلّفه بها، إذ قال له: «إنّما بعثت إليك لتتوجّه عني رسولا إلى ملك الصين، فإنّي أعلم حبّك في الأسفار والجولان»[2]، وفي طريقه إلى الصين الصين زار مدن أواسط الهند وساحل المليبار، ثم استقل مركبا إلى جزر ذيبة المهل حيث تولى منصب القضاء بها، ومنها ركب سفينة إلى البنغال.

وركب البحر ثانية إلى جزيرة سومطرة، ثم ركب البحر إلى الصين، وبعد أن جال فيها قفل مبحرا إلى بلاده المغرب مارّا بسومطرة والمليبار بالهند ثم الخليج العربي، ثم واصل سفره برّا إلى بغداد ودمشق ومصر، ثم عاد إلى الحجاز برّا لتأدية مناسك الحج للمرة السادسة والأخيرة سنة 749 هـ، ثم قفل راجعا من الطريق البري نفسه إلى القاهرة، ومنها سافر إلى الإسكندرية حيث استقل مركبا إلى تونس ومنها ركب البحر إلى جزيرة سردينيا[3] ثم واصل سفره متّجها إلى مدينة تنس بالجزائر.

ثم سافرا برّا إلى مدينة فاس حاضرة المغرب آنذاك، ودخل إليها بعد غياب عن وطنه دام ربع قرن، ثم سافر إلى الأندلس بالبحر وزار مدنه الشهيرة: جبل طارق ورُندة[4] ورُندة[4] وغرناطة ومالقة[5] ثم عاد إلى المغرب ثانية ومنها سافر إلى الصحراء الكبرى برّا

1 محمد ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج2، ص.585.

2 المصدر نفسه، ج.2، ص.605.

3 **سردينيا:** جزيرة في بحر المغرب، وهي مدينة كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وأقريطش أكبر منها، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج.3، ص.209.

4 **رندة:** معقل حصين بالأندلس وهي مدينة قديمة، المصدر نفسه، ج3، ص.73.

5 **مالقة:** مدينة بالأندلس عامرة، المصدر نفسه، ج5، ص.45.

بغية زيارة بلاد الإسلام السودانية فأمره فيه بالعودة إلى فاس حاضرة بلاده وذلك في سنة 754هـ.[1]

ومن الملاحظ على ابن بطوطة أنه لم يرسم خطّا محدّدا ومعروفا لسير رحلته، لا في طريق ذهابه ولا في طريق عودته، غير أنّه التزم بقدر الإمكان بعدم العودة من طريق سبق وأن مرّ به، وقد أخبر عن ذلك في قوله: «ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك»[2] وإنما يتحدّد خط سيره بناءً على ما يخطر بذهنه أو ما يشير به الغير عليه أو حسب ما تواتيه الظروف، وهاهي ذي الظروف تحول دون اجتيازه للبحر الأحمر عن طريق عيذاب[3] إلى مرفأ جدّة لمحاربة الحدربيّ سلطان البجاة للأتراك، لذلك غيّر خطّ سيره حيث دخل إلى الحجاز عن طريق الشّام.

ولمّا انقضى موسم الحج لم يعد إلى موطنه المغرب، بل خالف الرحّالة المغاربة في هذا الصّدد، وخطر بذهنه السّفر مع المركب العراقي ، ولم يعلن عن أهداف معينة من وراء هذا السفر، وفي تجواله داخل العراق سار وفق ما رسمه له أهل البصرة، ولم يسر وفق هواه حيث قال : «وكنت أحب قصد بغداد العراق، فأشار عليّ بعض أهل البصرة بالسّفر إلى أرض اللّور[4] ثم إلى عراق العجم، ثم إلى عراق العرب فعملت بمقتضى إشارته». [5]

وفي رحلته من بغداد إلى تبريز لم يرسم ابن بطوطة خطّا معيّنا لسفره، بل استفاد من هذه الفرصة التي سمحت له بمصاحبة السّلطان أبي سعيد في رحلة عودته إلى بلاده

---

1 محمد بن بطوطة، المصدر السابق، ج.2، ص.801.

2 محمد بن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.1، ص.211.

3 **عيذاب**: بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج.4، ص.171.

4 **اللّور**: كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان، المصدر نفسه، ج.5، ص.25.

5 محمد بن بطوطة، المصدر السابق، ج.1، ص.211.

وليس له من أهداف إلا ما حدّده بقوله: «وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقّله وسفره».[1]

جـ ـ مصادر معلوماته:

01 ـ المصادر المرئية:

من أهم المصادر التي اعتمد عليها ابن بطوطة في استقصاء معلوماته وجمع أخباره ما قد عاينه بنفسه ووقف عليه مباشرة ناظرا إليه بعينه، وجلّ معلوماته التي أوردها في رحلته كانت منقولة عن هذا المصدر.

وابن بطوطة كغيره من الرحّالة كان حريصا على إقناع سامعيه وجذب انتباههم لأخبار رحلته، ولا يتأتى له ذلك إلا من خلال تحرّيه للصدق في نقله لجلّ معلوماته، والتزم بهذا النّهج منذ انطلاقة رحلته حتى ألقى عصا التّسيار، ومن الأدلّة على ذلك ما أثبته من معاينة دقيقة لمنار الإسكندرية عند مروره به في أول مرة حيث وصفه بقوله: «قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدّما»[2] أما معاينته للمرة الثانية وهو عائد من رحلته في الصين إلى وطنه المغرب حيث مرّ به بعد أكثر من عقدين من الزمن فكانت أوصافه أكثر دقّة حيث قال:«وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه»[3].

02 ـ المصادر السماعية:

1 انظر الخريطة رقم 07 في الملاحق ص.249، المتضمنة مسارات رحلاته.

2 محمد بن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.1، ص.37.

3 المصدر نفسه، ج.1، ص.38.

فتستند على ما هو مشاع بين أهالي البلاد المزارة، من روايات شعبية عن موضوعات شتّى، وهي تأتي في درجة ثانية بعد مشاهداته الشخصية، حيث نقل ابن بطوطة عن طريقها كثيرا من الأخبار والحكايات العديدة.

ففي حديثه عن أشجار جوز الهند يروي حكاية شعبية، لقفها من أفواه أهل الهند حول بداية وجود هذه الأشجار، حيث زُعم أن حكيما من حكماء الهند في غابر الزمان تربطه بأحد ملوك الهند علاقات وطيدة، وكان لهذا الملك وزير، بينه وبين هذا الحكيم معاداة، فدبّر الحكيم لهذا الوزير مكيدة عند الملك لقتله، حيث أوهم الملك أنّ :«رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم، يعود نفعه على أهل الهند .... فقال له الملك: فإن لم تظهر من رأس الوزير ما ذكرته؟ قال: إن لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه» وقد أوردها ابن بطوطة وهو يعلم أنها من صنع الخيال وهو لم يغفل عن التنبيه إلى ذلك بقوله: «وهذه الحكاية من الأكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم»[1].

03 ــ المصادر المكتوبة:

ولم يغفل ابن بطوطة عن مصنّفات المؤلفين السابقين، حيث نهل منها كثيرا من الأخبار والمعلومات، وعلى رأس هؤلاء المؤلّفين الرحّالة ابن جبير حيث نقل عنه جُلّ أوصافه لمدن المشرق العربي المشهورة وعلى رأسها مدينة حلب[2] حيث بدأ في وصفها بنقله عنه حيث قال: «قال أبو الحسين بن جبير في وصفها: قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير، خطّابها من الملوك كثير، ومحلّها من النفوس أثير... »[3]، ونقل عن ابن جبير أيضا أوصاف مدينة دمشق وبغداد، محافظا على سلامة النصوص ولكن بتغيير قليل.

---

1 محمد ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.1، ص.289.

2 **حلب**: مدينة عظيمة واسعة وهي قصبة جند قسرين في أيامنا هذه، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج.2، ص.282.

3 محمد ابن بطوطة، المصدر السابق، ج.1، ص.87.

وفي تحديده لطول المسجد الحرام وعرضه استعان بكتاب الأزرقي في كتابه " أخبار مكة" حيث نقل عنه مقاسات الطول والعرض بقوله: «والمسجد الحرام في وسط البلد، وهو متسع الساحة، طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمائة ذراع».

استفاد ابن بطوطة من مصادره على اختلاف أنواعها في حشد معلوماته وتحقيق أخباره مع حرصه على ترتيبها وتنسيقها حتى بدت وكأنها متجانسة، بالرغم من اختلاف مضامينها وتنوّع أغراضها.

د ــ منهجه المتّبع:

لم يحدد ابن بطوطة منهجه المتّبع في تناول أخبار رحلته، ولم يشر في مقدّمة رحلته لا من قريب ولا من بعيد إلى طريقة عرضه لمعلوماته، كما أنه لم يقتد في هذا الصدد بمنهجية بعض الرحّالة السابقين كابن حوقل والمقدسي والبيروني وغيرهم ولكن ليس من الصعب على الممعن في رحلته استنباط منهجه المتّبع في عرضه لأحداث رحلته، لأن سار في سرد أخباره على نهج غالبا ما كان يلتزم به، حيث يبدأ بذكر اسم المدينة، ثم بدأ بوصفها في إيجاز إن كانت صغيرة ويترسّل إن كانت شهيرة، ثم يذكر حكّامها أو ولاّتها أو القائمين عليها، وكثيرا ما يأتي بنبذ مختصرة عن تاريخهم، وبعدئذ يستعرض بإيجاز قضاتها وعلماءها وخطباءها، ثم يتناول بالوصف أهم معالمها وآثارها ومساجدها ومدارسها وزواياها الصّوفية وما اشتهر بها من أضرحة للأولياء والعلماء، وكثيرا ما يُنهي وصفه لجُلّ المدن بحكاية طريفة أو واقعة غريبة أو موقف ما علق بذهنه، وليس أدلّ على ذلك ما انتهجه في وصفه لمدينة دهلي حاضرة بلاد الهند إذ بدأ بوصفها أولا بقوله: «وهي المدينة العظيمة الشأن، الضخمة الجامعة بين الحُسن والحصانة، وعليها السّور الذي لا يُعلم له في بلاد الدنيا نظير، وهي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالمشرق»[1].

1 محمد ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.2، ص.478.

ثم انتقل إلى ذكر سلطانها في وقت دخوله إليها الذي هو «"محمد شاه" ملك الهند الآن الذي قدمنا عليه»ثم انتقل بوصفه إلى أهم معالمها الحضارية وفي مقدّمتها سورها الكبير الذي «لا يوجد له نظير، عرض حائطه أحد عشر ذراعا، وفيه بيوت يسكنها السُّمّار وحُفّاظ الأبواب» [1].

ومن أبرز معالمها الأخرى الجامع الكبير الذي يحوي «ثلاث عشرة قبة من حجارة ومنبره أيضا من الحجر، وله أربعة صحون، وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يُدرى من أي المعادن ــ أيضا ــ» [2]ثم انتقل بوصفه إلى مزارات مدينة دهلي حيث زار« ضريح الشّيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكيّ، وهو ظاهر البركة كثير التّعظيم» ثم أورد سبب تسميته بالكعكي لأنه كان يعطي لكل من أتاه من الفقراء والمعوزين «كعكة من الذهب أو من الفضة، حتى عُرف من أجل ذلك بالكعكيّ»، ثم انتقل إلى ذكر علماء دهلي وصلحائها وفي مقدّمتهم الشيخ «الصالح العالم محمود الكبا وهو من كبار الصالحين، والنّاس يزعمون أنّه ينفق من الكون»[3].

ثم ذكر عددا من العلماء النّابهين وتحدّث عن مناقبهم وما اشتهروا به من فضائل بين عامّة الناس وخواصّهم، ثم وصف مدنها الصغيرة كوصفه لمدينة صهيون[4]التي وجد أنها:«حسنة بها الأنهار المطردة، والأشجار المورقة، ولها قلعة جيدة»[5] .

ومن خلال العرض السابق ظهرت ملامح منهجه بيّنه من خلال ما تم عرضه من استدلالات لتبيان ما اتبعه من خطوات وسار وفقها والتزم بها أثناء عرضه لأخبار رحلته.

1 المصدر نفسه، ج.2، ص.478.

2 محمد ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.2، ص.479.

3 المصدر نفسه، ج.2، ص.483.

4 **صهيون**: موضع معروف بالبيت المقدس محلة فيها كنيسة صهيون، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج.3، ص.436.

5 محمد ابن بطوطة، المصدر السابق، ج.1، ص.92.

ولم يسلم منهج ابن بطوطة من الاضطراب والخلط الذي وقع فيه مرات عديدة، ولا يقتصر هذا الخلط على جانب بعينه بل طال جوانب عدّة من رحلته، سواء أكان هذا الخلط في خطّ سير رحلته أو في أسماء بعض المدن أو في تقديمه لبعض أخبار رحلته ومعلوماتها قبل أوقاتها المناسبة، وسيتمّ إيراد بعض النّماذج ومن بينها: ما وقع فيه من اضطراب وخلط حيث قدّم وصفه لمدينة سنجار[1]عن مدينتي دارا[2] وماردين، وواقع الحال يتطلّب تأخيره لوصفها، لأنها تأتي في طريق عودته من مدينة ماردين إلى الموصل لا كما جاء ترتيبها في رحلته، وورد ذكره لمدينة سنجار في سفر رحلته الأول[3].

وربما يُعزى هذا الخطأ إلى نسيانه لموقع ترتيبها بين المدن السالفة الذكر، ومن الصعب أن تحتفظ ذاكرته بصور جليّة عن معظم المدن التي زارها، أو الطّرق التي سلكها، أو أسماء الرّجال الذين قابلهم، وتزداد الصعوبة إذا ما علمنا بمقدار العدد الهائل الذي حوته الرحلة من الأعلام والمواقع التي مرّ بها، لذلك وقع في بعض الاضطراب عند تحديده لمواقع بعض المدن أو المسالك، وهو لا يستحي من الاعتراف بنسيانه لاسم موضع ما أو علم شخص نزل عنده أو التقى به.

واتسم منهج ابن بطوطة بنقده لكثير من أخبار رحلته عدا ما يتعلق منها بأخبار الأولياء والصالحين، لأنه لا يقبل في كراماتهم استغرابا ولا شكّا، فكانت أول انتقاداته موجهة لأمير بجاية أبي عبد الله محمد بن سيد الناس، وهو من أمراء الموحدين وذلك لأن تاجرا من أهل تونس: «قد توفي... وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر ... ليوصلها إلى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور، فانتزعها من يده، وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمّال الموحدين وولاتهم»[4].

---

1 **سنجار**: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج.3، ص.262.

2 **دارا**: وهي بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين، الصدر نفسه، ج.2، ص.418.

3 محمد بن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.1، ص.257.

4 المصدر نفسه، ج.1، ص.31.

لم يرض ابن بطوطة عن تصرفات هذا الأمير لأنها منافية لما جاء في أحكام الميراث بالشريعة الإسلامية، لكنه بالغ في تعميمه لصفة الظّلم على ولاة الموحّدين... وغيرها من الانتقادات.

والملاحظ على انتقادات ابن بطوطة أنها أكثر ميلا إلى الجوانب الدينية منها إلى أي جانب آخر، وربما يرجع هذا الأمر إلى ثقافته الدينية، وكانت انتقاداته التي وردت في رحلته كثيرة ومتنوعة[1].

المبحث الثالث: المظاهر السياسية والحضارية في الرحلة

أولا ـــ عصر ابن بطوطة:

كان القرن الثامن الهجري، الرابع عشر للميلاد عصر التمزق وانعدام الوحدة السياسية بين البلدان العربية الإسلامية نتيجة لما حصل إثر اجتياح المغول لبغداد عام 656هـــ / 1258 م ومن ثم انهيار نظام الخلافة العباسية فانقسم العالم الإسلامي إلى عدة بلدان خضع بعضها تحت الاحتلال المغولي أو ما سمي بالإيخانات (كالعراق وبلاد فارس) والذي استمر حتى ظهور الجلائريين عام 737هـــ / 1337م، وبعضها الآخر تحت حكم دولة المماليك(648- 923هـــ/ 1250- 1517م) فيما ظلت تونس تحت حكم الحفصيين، إلا أن ذلك كله لم يمنع بقاء وحدة ثقافية بين البلدان الإسلامية، وفي الهند التي عدت أيضا ضمن دار الإسلام ظهرت السلطنة الإسلامية فيها لأول مرة منذ القرن 7هـــ/ 13م على يد السلطان قطب الدين أيبك[2] (602- 616هـــ/1205-1219م).

أما المغرب فقد كانت تحت حكم بني مرين (595-870هـــ/1198-1465م) والذي شهد استقرارا وتوطيدا لأسس الدولة، إذ أن أعظم المنشآت الدينية والثقافية والعمرانية يرجع بعضها إلى هذا العصر، كما أن أهم المنجزات السياسية والعسكرية قد

1 مصطفى سالم عبد الله حبلوس، **أدب الرحلات عند العرب**، ص.247.

2 **قطب الدين أيبك:** مؤسس سلطنة دهلي الإسلامية بالهند، وكان سلاطين هذه الدولة من أجناس مختلفة، وكان قطب الدين أيبك أول سلاطينها، وكان مملوكا لشهاب الدين الغوري ـــ الغزنوي. **الموسوعة العربية.**

حققت أيضا في تلك المدة[1] وبرز كثير من علماء اللغة والفقه والتصوف والأدب من الذين كانت نتاجاتهم أمهات الكتب التي استفاد منها أهل المغرب وأهل المشرق على السواء، فضلا عن ظهور مجموعة من الرحالة الذين سبقوا ابن بطوطة، مما يعني أن العصر كان عصر الرحلات المزدهر والذي تميّز فيه ابن بطوطة عن هؤلاء باتساع رحلاته ووصوله إلى الهند[2].

أ ـــ الأوضاع السياسية والإدارية:

في قرابة شهر محرم من عام 733هـــ/ 1333م وصل ابن بطوطة إلى مدينة الملتان الواقعة على الجانب الغربي لنهر السند فانتظر قليلا حتى يحصل على تفويض رسمي بالدخول، وبعدما حصل على التفويض دخل عاصمة الهند مدينة دهلي.

وفي الهند أصبح ابن بطوطة في عداد الرحالة المشهورين، وكان أول ما تحدث عنه بعد دخوله الهند هو وصف الأوضاع السياسية والإدارية في السلطنة منذ القرن 6هـــ/12م، وتلك التفاتة مهمة من ابن بطوطة لمعرفة الماضي التاريخي للهند.

وأهم الأحداث السياسية فيه: وكان مصدره في سرد تلك المعلومات هو لقاء مع أحد الشيوخ الثقاة هناك وهو الشيخ كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي ويصفه بـــ " الإمام العلامة الفقيه" (صدر الجهان) وقد ذكر لنا تاريخ الإسلام في الهند منذ القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد.

بعد فتح دهلي التي تم في سنة 584هـــ/1187م على يد الأمير محمد بن سام الغوري الذي قرر إقامة حكم السلطنة الإسلامية كي يتفرغ هو لفتح مناطق الشمال الهندي وأمّر عليها أحد أكفأ قادته وهو السلطان قطب الدين أيبك وهو أول حاكم مسلم لأول أسرة إسلامية مملوكية في الهند والتي سميت بالمماليك (602 ـــ 686 هـــ/ 1205 ـــ 1288م)

---

1 محمد بن أحمد بن شقرون: **مظاهر الثقافة المغربية**، مطبعة الرسالة، الرباط، 1982، ص.48.

2 ياسر عبد الجواد المشهداني: **الهند من خلال رحلة ابن بطوطة**، دار نشر المعرفة، الرباط، 2011، ص.20.

والذي اشتغل بتوطيد أركان السلطنة طيلة مدة حكمه وحاول القضاء على عدد من الفتن والتمردات، ثم خلفه ابنه الأكبر ركن الدين فيروز الذي لم يحكم سوى سنة واحدة بسبب الانقلاب الذي قادته أخته رضية وتوليها للسلطة بعد مقتل أخيها (637 ـ 641 هـ/ 1239ـ 1243م) وكانت أول امرأة مسلمة تحكم في الهند وفي العالم الإسلامي مما أدى إلى عزلها وتولي الخلافة مكانها أخوها الأصغر ناصر الدين التمش (641 ـ 661 هـ / 1241 ـ 1262م) ثم تولى بعده نائبه غياث الدين بلبن بعد قتله إياه (665 ـ 685 هـ/ 1266 ـ 1287م) وترك حكمه على توطيد الأمن ونشر العدل بين الناس وبعد وفاته تولى مكانه حفيده معز الدين ثم قام بالملك بعده نائبه فيروز شاه الخلجي ليبدأ حكم الخلجية[1] وهي ثاني الأسر التركية (686 ـ 720هـ/ 1288 ـ 1320م) .

وقد كان للأسرة الحاكمة في ذلك الوقت فضل الدفاع عن الإسلام والمسلمين في الهند خطر الهجمات المغولية القادمة من خانات آسيا الوسطى وما وراء النهر إذ شنوا عدة هجمات للسيطرة على أجزاء واسعة من الهند.

أما عن الأوضاع الإدارية: سارت بلاد الهند في القرن 8 هـ/ 14 م على نفس الثوابت السياسية السائدة في المشرق الإسلامي من حيث اعتمادها على الشريعة الإسلامية في مراسيم التولية والعزل والعهود.

قسمت الهند إلى عدة أقاليم وكان لكل إقليم كبير حاكم إقطاعي مستقل بشؤونه يسمى الأمير حيث يُقطعه السلطان مجموعة من الأراضي التي يعود ريعها وخراجها له عوضا عن المرتّب.

أما الإقليم المهم الآخر من الأقاليم الهندية فهو إقليم السند وعاصمته الملتان دخله الإسلام منذ مدة مبكرة، والذي يقع شرق كرمان وسجستان، وهو في الواقع على قسمين:

---

1 وهي قبيلة تركية الأصل سكنت الأراضي الأفغانية. انظر إحسان حقي: **تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية**، دار الرسالة، بيروت، 1978، ص.89.

الجانب البحري الذي يمر به نهر مهران ويسكنه أغلب المسلمين، ومن أهم مدنه : الديبل، أما الجانب البري فيكون قرب الجبال وهو كثير الوعورة ويضم كشمير وغيرها التي في أيدي الكفار.

ب ــ الأوضاع الاقتصادية:

انفردت رحلة ابن بطوطة في تقديم معلومات قيمة وجديدة عن الوضع الاقتصادي العام في الهند وما جاورها قد لا نجدها في مصدر آخر معاصر له لكون ابن بطوطة كان شاهد عيان، أو أحيانا مشاركا في الأحداث، ومن ثم كانت معلوماته مهمة وليست عابرة.

ــ الزراعة والصناعة:

لا شك في أن أرض الهند ومناخها وسهولها العظيمة وأنهارها المتعددة بضمن ذلك نهر الكنج ونهر براهما بوترا ونهر مهران، والتي حملت معها التربة الغرينية الغنية بالعناصر العضوية قد ساعدت على احتراف أغلب سكانها لمزاولة العمل الزراعي.

والعملية الزراعية في الهند تنقسم على قسمين : الأول النبات الطبيعي الذي ينمو دون تدخل الإنسان سوى جنيه والإفادة منه في التجارة، والثاني مت ينمو بطريق الفلاح الذي يقوم برمي البذور وحرث التربة ومن ثم السقي ومراقبة المنتوج.

ويظهر أن ابن بطوطة كان رحالة استثنائيا عني عناية خاصة بالجانب الزراعي في الهند حيث أفرد العديد من الصفحات في رحلته بالحديث المتواصل عن أهمية الزراعة في الاقتصاد الهندي، وأهم المحاصيل في الهند على الشكل التالي:

1 ــ النبق: الذي هو ثمرة السدرة الشائكة.[1]

2 ــ العنبة: وتعرف كذلك بالمانكو وهي شجرة تشبه أشجار النارنج[2].

---

1 ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.3، ص.94.

2 المصدر نفسه، ج.3، ص.94.

3 ـــ الشكي والبركي: وهي أشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز وثمرتها تشبه القرع[1].

4 ـــ التندو: وهو ثمرة شجرة الأبنوس، حباته شديدة الحلاوة تشبه حبات المشمش[2].

5 ـــ النارنج الحلو والحامض: وهو كثير في أغلب المدن الهندية[3].

6 ـــ المهوا (العنب) : شجرة عادية كشجرة الجوز ويسمونها بالأنكور وهو يثمر مرتين بالسنة ويكثر في مدينتي دولة أباد ودهلي ويقل في باقي المناطق[4].

7 ـــ الشاماخ: حبوب صغيرة يزرعها الفقراء وأهل الورع طيلة أيام السنة[5].

8 ـــ حبوب القمح والشعير والحمص والعدس[6].

9 ـــ الأرز: ويزرع ثلاث مرات بالسنة ويحتاج إلى مياه كثيرة ، وهو متوافر في بلاد الهند ولا سيما مدينة جرباتن ويتصدّر المحاصيل المزروعة في أغلب الأقاليم[7].

10 ـــ قصب السكر: يزرع بكثرة مع المحاصيل الخريفية ويكثر في فاكنور[8].

وليس غريب أن أرضا واسعة كأرض الهند مختلفة في تربتها وأجوائها يمكن أن نجد فيها أنواعا من النباتات والمزروعات والفواكه ما قد لا يوجد في غيرها.

كما تحدث ابن بطوطة عن طرق الري والسقي إذ إن المناطق الزراعية القريبة من النهر كانت تسقى سيحا بشق قنوات مائية إليها ونستشف من حديثه عن النواعير الموجودة في مدينة صاغر أن هناك وسائل مألوفة عرفتها الهند في سقي المزروعات[9].

---

1 المصدر نفسه، ج.3، ص.94.

2 المصدر نفسه، ج.4، ص.114.

3 المصدر نفسه، ج.3، ص.95.

4 المصدر نفسه، ج.3، ص.95.

5 ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.3، ص.96.

6 المصدر نفسه، ج.3، ص.96.

7 المصدر نفسه، ج.3، ص.97.

8 المصدر نفسه، ج.4، ص.39، ص.97.

9 المصدر نفسه، ج4، ص.27.

كما تحدث ابن بطوطة بوضوح عن الثروة الحيوانية وأهميتها في بلاد الهند فذكر من الحيوانات ما كان يرتبط ارتباطا وثيقا بالزراعة كالثيران التي تستخدم في الحرث والأبقار التي استخدمت في النقل من قبل المسلمين بشكل واسع[1].

وفيما يتعلق الصناعة فقد روى ابن بطوطة روايات موجزة عن الصناعات والحرف اليدوية في المناطق التي زارها نظرا لأن أهميتها كانت ثانوية، وقد أوضح أن الصناعات في الهند كانت قليلة وأغلبها تتعلق بالصناعات الغذائية المرتبطة بالنبات والفواكه، ومنها صناعة العسل والحلواء وعصير الحليب المستخرج من ثمرة جوز الهند، واستخراج الزيت من بعض الثمار واستعماله كوقود للمصابيح[2].

جـــ ــ الأوضاع الاجتماعية:

كان المجتمع الهندي في القرن 8 هـــ/14 م يتشكل من عدة طوائف بعضها عرقي وديني، وأديان منها سماوي وأكثرها وضعي، وكان لكل طائفة تاريخها وتقاليدها الخاصة وأماكنها وطقوسها، ونفهم من كلام ابن بطوطة أن أهل الهند كان أكثرهم من غير المسلمين، كما أن الإسلام كان من أهم الديانات الموجودة في الهند والمناطق المجاورة لها، ولذلك فقد كان الحكم السائد فيها هو الحكم الإسلامي منذ القرن 6هـــ/ 12م، ولعل أهم الأعراق والأديان في الهند هي:

1 ــ الهندوسية: وهي ديانة الآريين (ذوي البشرة البيضاء) الذين غزو الجزء الشمالي الغربي للهند من أواسط آسيا في حوالي 2500 ق.م والذين انعزلوا عن باقي سكان الهند الأصليين (ذوي البشرة السمراء) وحافظوا على أعراقهم النقية[3].

---

1 المصدر نفسه، ج.3، ص.246.

2 ياسر عبد الجواد المشهداني، **الهند من خلال رحلة ابن بطوطة**، ص.83.

3 ولقد ذكرنا في دراستنا السابقة كلام المسعودي عن عقائد الهند. انظر: **ثقافة الهند**، (أحمد يسعد، ص55 وما بعدها)، كما أفاض البيروني في الحديث عن معتقداتهم، (انظر: المرجع نفسه، ص138 وما بعدها)، وللاستزادة ينظر عبد الرحمن حمدي: **الهند عقائدها وأساطيرها**، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص.58.

2 ـ **البوذية:** وهم الهنود الذين يتبعون آراء أحد الحكماء القدماء وهو جوتاما بوذا (480 ـ 557 ق.م) أي: العارف المستنير[1]، والذي جاء بتعاليم مناقضة لنظام الطبقات الذي فرضه الآريون على الهنود، ومثّل ظهوره بمثابة الثورة ضدهم، وقد انتشرت تعاليمه في الهند بواسطة الملك أشوكا (227 ـ 294 ق.م) [2].

3 ـ **طائفة البرهنكار:** وهم يتمتعون بتقاليد غريبة كما تحدث عنهم ابن بطوطة : فهم طائفة متخلفة لا يرجعون إلى دين الهنود ولا لغيرهم، يتعاملون بالسحر، وسكانهم في بيوت من القصب مسقفة بالحشيش على شاطئ البحر ورجالهم عرايا لا يستترون ومشوّهي الخلقة، أما نسائهم فليس كذلك ولهم جمال بارع[3].

4 ـ **الإسلام:** ذكرهم ابن بطوطة وكأن الهنود يتمتعون بالأغلبية ربما لكثرة تعاملاته واحتكاكه معهم وتجنب الطوائف الأخرى.

5 ـ **اليهود والنصارى:** كان لابن بطوطة معلومات قليلة عنهم نظرا لوجود هاتين الطائفتين قليلا نسبيا بالمقارنة مع المذاهب والطوائف الأخرى.

د ـ النشاط العسكري:

لقد عني السلطان محمد تغلق بتطوير الناحية العسكرية أكثر من عناية والده، ونستدل على ذلك من كثرة حروبه وعدد وزرائه إذ عيّن أكثر من نائب ووزير له كصدر الجيهان أحمد بن أياز الذي كان قد ساعده على الإطاحة بوالده، وكذلك عماد الملك سرتيز أمير السّند وهو مدرّب الجيش والذي يعرض العساكر بين يدي السلطان والغ خان وقطلو

---

1 ولد بوذا من أسرة منعمة من طبقة الكشتيرية ولفت نظره الفقر والبؤس لدى الطبقات الأخرى، ولا سيما طبقة الشودرى، فترك العيش الرغد وعاش سبع سنين يتأمل وينشر تعاليمه باحثا عن الحقيقة في الحياة. انظر النمر، **تاريخ الإسلام في الهند**، ص.75.

2 المصدر نفسه، ص.75.

3 ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.4، ص.107.

خان مستشار السلطان وغيرهم، كما أنشأ ديوانا للزمام سجّل فيه أسماء الموجودين على ملاك الجيش لضبط نفقتهم ورواتبهم[1].

وقد جاءت تلك العناية نظرا للمخاطر التي كانت تحدق بسلطنته، فأعد على ما ذكره ابن بطوطة جيشا كبيرا، قدّره المؤرخ العمري (ت.749هـ) بتسعمائة ألف جندي، وجعل على إمرة هذا الجيش القائد العام ابن عمه فيروز ابن رجب الذي كان من أخلص وأكفأ الضباط لديه، كما جهّز ذلك الجيش بأنواع السلاح والعدة ولا سيما المنجنيق المستخدم في فك الحصار والنشاب فضلا، ودرّبه على أساليب قتالية صعبة إذ يورد ابن بطوطة نصا حول العناية بإعداد الفارس للقتال حيث يقول: «وهناك قسيّ كثيرة فإذا أتي من يريد أن يثبت في العسكر راميا أعطي قوسا من تلك القسي ينزع فيها وهي متفاوتة في الشدّة، فعلى قدر نزعه يكون مرتبه، ومن أراد أن يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيجري فرسه ويرميها برمحه وهناك أيضا خاتم معلق في حائط صغير فيجري فرسه حتى يأخذ به فإذا رفعه برمجه فهو الجيد عندهم...» [2].

أما عن العلاقات الحربية: فمن أهم المواقف الإيجابية التي تسجل لصالح السلطان محمد تغلق هو محاولته تأخير هجمات المغول نحو الهند، ذلك أن طرمشيرين بن داوود خان Turumshereen (724 ـ 734هـ/ 1324 ـ 1334م) [3] اقتحم الهند عام 727هـ/ 1327م على رأس جيش كبير بنية فتحها فاستولى على الملتان عند الحدود الشمالية الغربية وأخذ طريقه باتجاه دهلي.

1 المصدر نفسه، ج.4، ص.24. ويبدو أنه ديوان الجند الذي أنشأ في ظل الدولة العربية الإسلامية.

2 ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.3، ص.82، ص.84، ص.90.

3 هو أحد قادة المغول وذائعي الصيت، عرف بعدله وشجاعته خاصة بعد أن اقتنع بالإسلام ودخل فيه، وهو من قبيلة الأولوس الجفطائيين. انظر: المصدر نفسه، ج.3، ص.27. الساداتي، **تراث الإنسانية**، ج.1، ص.174.

وبعد ذلك أرسل السلطان محمد تغلق حملة باتجاه هضبة الهملايا العليا قاصدا من ورائها ضم الصين وذلك بين عامي 730ــ 733ه/ 1330ــ 1333م وقد أشار عدد من المؤرخين إلى تلك الحملة .

ومن الغريب عدم ذكر ابن بطوطة لمحاولة السلطان محمد تغلق ضم خراسان والتي قصد منها التوسع وإيجاد حدود دفاعية للهند.

كما اتسمت بعض العلاقات الخارجية للهند في القرن الثامن للهجرة اتسمت بالإيجابية مع عدد من الدول والبلدان وبالتنازع والحروب مع بلدان أخرى ولعل أبرز العلاقات الجيدة التي امتلكتها الدولة الإسلامية في الهند في تلك المدة:

ــ الخلافة العباسية: انتقلت الخلافة العباسية شكليا بعد سقوطها في بغداد عام 656 هــ/1258 م إلى القاهرة وأخذ الأمراء والسلاطين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يسعون إلى الخلافة من أجل الحصول على التفويض الشرعي لحكمهم على الدول والأقاليم [1].

وبما أن الهند كانت تقع ضمن دار الإسلام في العصور الوسطى فقد أقام السلطان محمد تغلق علاقات سياسية مع العالم الإسلامي بعامة ومع الخلافة العباسية في مصر أيام حكم المماليك بخاصة.

ــ مع الدول المجاورة: أما علاقة الهند مع البلدان المجاورة فقد كانت لها علاقات مع الصين في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي اتسمت بالتذبذب والعداء تارة ثم بالود والتصالح تارة أخرى، ففي عهد حكم أسرة يوان شي (675 ــ 766 هــ/ 1277 ــ 1367م) فقد أرسل السلطان محمد تغلق بعثة عسكرية لفتح الصين الأمر الذي يشير إلى طموح سلطان الهند في توسيع نطاق حكمه لضم مملكة الصين الكبيرة.

1 ياسر عبد الجواد المشهداني، **الهند من خلال رحلة ابن بطوطة**، ص.65.

كما تمتعت الهند بعلاقات حسن الجوار مع عدد من المناطق المجاورة لها من جهة الشمال والغرب ولا سيما أقاليم ما وراء النهر التي كانت تحت حكم طرمشيرين خان المغولي الذي اعتنق الإسلام ويبدو أنه عقد معاهدة سلام مع محمد تغلق حول تأخير اجتياح المغول للهند[1].

ـ خاتمة الفصل:

قلنا فيما سبق أن ابن بطوطة بدأ رحلاته في 725 هـ/ 1324م والتي استمرت حوالي خمس وعشرين سنة منذ خروجه إلى حين عودته إلى فاس في 750هـ/1349م ـ تحول بين مدن الهند المختلفة مثل الملتان والمنصورة وكنباية وصيمور، واستقر فترة بها وهو الرحالة الوحيد الذي دخل الهند ومكث فيها قرابة عشر سنوات، وقد شكلت رواياته عن الجوانب السياسية والحضارية أهمية كبيرة لكل من تصدى للبحث عن تاريخ الهند.

ـ براعة ابن بطوطة في جلب القراء بما كان يختاره من بديع النكتة ودقة التعبير، وبما كان يتخذه شعارا له من الصراحة في القول.

ـ يعتبر ابن بطوطة الرحالة الأمين الذي كانت مذكراته تتميز عن غيرها بما يحسه القراء ولا يستطيعون التعبير عنه.

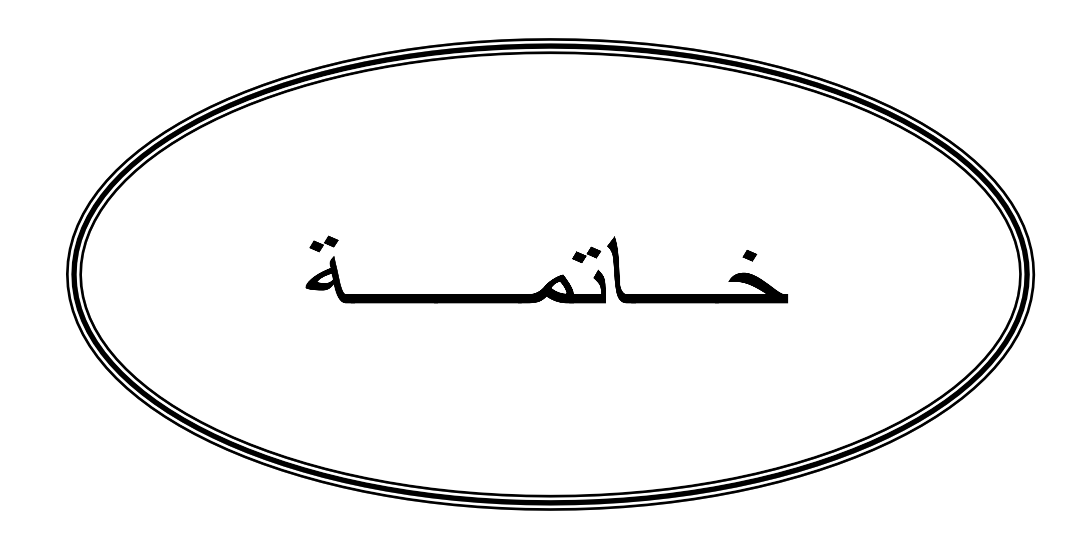
1 ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ج.3، ص.33.

ـ اعتبر ابن جوزي ابن بطوطة الشيخ والفقيه وهو الثقة والصدوق وهو الباحث فرق الأمم وسبر سير العرب والعجم مما يؤكد عمق الرحالة ابن بطوطة .

ـ نالت رحلة ابن بطوطة نصيبا وافرا في الدراسات الاستشراقية كانت في بؤرة اهتمام المستشرقين الذين شغلوا بالعالم العربي والإسلامي، وقد وجد المستشرقون في الرحلة مجالا خصبا يساعدهم على فهم ما يدور في العالم الإسلامي.

ـ تجدر الإشارة إلى أن تحفة النظار تحوي ثلاث رحلات مختلفة الوجهات والأزمنة، إلا إن اهتمامنا انحصر على ما شملته رحلته الأولى من البلدان الآسيوية خاصة الهند، لذا فإن أي باحث لا يمكنه إلا أن يقدر أهمية المعلومات التي تنفرد بها رحلة ابن بطوطة في الكشف عن تاريخ تلك البلدان كما يرى المستشرق كراتيشكوفسكي.

ـ لقد وقف ابن بطوطة على معلومات هامة في قيمتها الجغرافية والتاريخية والاجتماعية وأول ما يستفيدهُ المتلقي هو تبين جغرافية البلدان من حيث التنوع الطبيعي فقد اعتبره كثير من المستشرقين آخر جغرافي عالمي من الناحية العملية ولا شك في أن الباحث في التاريخ يجد بغيته أيضا في هذه الرحلة. لقد عُدّت تحفة النظار مصدرا كبيرا في علم التاريخ والجغرافية والاجتماع في القرون الوسطى.



خاتمة:

بعد هذه الدراسة يمكن لنا الوقوف عند مجموعة من النتائج الهامة:

أولا ــ إن التاريخ يشهد صريحا كل الصراحة على ربط العلاقات الوثيقة بين العرب والهنــود مــن أقدم العصور، كانت هناك روابط وعلاقات شتّى بين العرب والهند من أقدم الأيام إلى عصر النبـــي صلى الله عليه وسلم ، وقد نتج عن هذه العلاقات أثارًا ثقافية خاصة بعد ظهور الإسلام بقرن واحــد وذلك لما أصبحت بغداد مقرًا للخلافة الإسلامية في أواسط القرن الثاني حيث افتتحت هذه الفترة عهدًا طويلا من الاتصال الثقافي دام عدة قرون ولعله كانت العلاقات في تــاريخ العــرب والهنــود فـــي العصور القديمة أو الوسطى أكبر ارتباطا بين الشعبين مما كانت في هذه الفترة فقــد كانـــت عمليـــة الاتصال متبادلة وشملت إشاعة أكبر قسط من المعرفة في العلوم والأدب والــدين والفلســفة والآراء الاجتماعية والثقافية والقيم المرتبطة بها .

ثانيا ــ لو درسنا تاريخ الحضارات العالمية لوجدنا أن الهند كانت وما زالت من الشعوب المتقدمـــة منذ القدم ، اعترف بذلك المؤرخون القدامى والمحدثون، اشتهرت الهند بالحساب ، وعلــوم النجــوم وأسرار الطب ، وفن التصوير والصناعات الكثيرة وعلى هذا الأســاس جــاءت الترجمــة العربيـــة للمؤلفات الهندية باعتبار الترجمة جسرا تعبر به ثقافة أمة إلى أمة أخرى أو يقام هذا الجسر باحتكاك شعب من شعب لا يتكلم بلغته، والاحتكاك حتما يؤدي إلى التزاوج الثقافي الذي لا يخلو من التــأثير والتأثر ومن الأخذ والعطاء بالعلوم والمعارف.

ثالثا ــ لعب موقع الهند الجغرافي وتقاربه من شبه الجزيرة العربية دوراً بارزًا في العلاقات الهنديـــة بأهل شبه الجزيرة العربية، حيث ساعد العرب على القيام بدور الوسيط في التجارة بين الهند واليونان والروم، وساهم كذلك في مجال النشاطات الاقتصادية بين آسيا الجنوبية الشرقية والبلدان الغربية عن طريق البحر الأحمر ومدن الشام ومصر حيث قام التجار العرب بزيارة السواحل الشرقية والغربيـــة لشبه الجزيرة الهندية قبل ظهور الإسلام وتوسعت آفاق هذه العلاقات بعد ظهــوره وبقيـــت ســيطرة العرب والملاحين الهنود على التجارة البحرية بين البحر الصيني والبحر الأبـــيض المتوســط، عـــن

طريق الخليج العربي والبحر الأحمر منذ منتصف القرن الثامن إلى نهاية القرن السادس عشر ميلادي.

رابعا ــ جذبت الهند قلوب السياح والتجار والعلماء من المسلمين وغير المسلمين من أمثال (ميغاشينز Megasthenese 302 – 288 ق.م) و(فاهيان Fahsien 399 – 411 م) و(هيون تسانغ Hiuen tsang 630 – 644 م) و(آئي تسينغ I-Tsing 671 – 695 م) وقدموا تفاصيل عن الحياة الهندية والمجتمع الهندي.

والعديد من المؤرخين والملاحين والجغرافيين والرحالين والتجار من العرب والفرس أمثال التاجر سليمان (حوالي 225 هـ / 839 م) أبو زيد حسن السيرافي (حوالي 264 هـ / 877 م) وأبو دلف المتوفى سنة (331 هـ / 942 م)، وبزرك بن شهريار (ت 300 هـ / 912 م) وأبو الحسن المسعودي (ت 345 هـ / 956 م) والأصطخري (ت. 340 هـ / 957 م) والمقدسي (حوالي 375 هـ / 985 م) والآخرين الذين قاموا بزيارة الهند وقدموا تفاصيل عن حياة الهند الاجتماعية وتجارتها وآدابها وتقاليدها وحضارتها، بيد أنه لم يُنجز أحد منهم ذلك المستوى الثقافي والعلمي الذي خطى به المسعودي والبيروني وابن بطوطة، فإذا تمت مقارنة هذه الكتابات مع الكتب الهندية الضخمة لهؤلاء الرحالة فيبدوا أنها لا تحوي سعة البصيرة والدقة العلمية بالخصوص عن الفلسفة الهندية والعلوم الإيجابية.

خامسا ــ بدأت صلة هؤلاء الرحالة مع الهند حينما دخلوها وإقامتهم بالهند المتاحة لهم فقد كان المسعودي قد انفرد من بين الرحالة التارخيين بتناوله لتاريخ الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الإسلامي في تلك العصور، حيث يرى كثير من الدّارسين أنه عالج أكثر أموره معالجة صاحب البصيرة النيرة والملاحظة النقادة وصنّفه آخرين بالدّقة والتعمق مقارنة مع الرحّالين والجغرافيين الآخرين أمثال المقدسي والاصطخري، إلا أنه لا يرتفع لدقته إلى المستوى الرفيع الذي تميزت به دقة البيروني الذي اعتمد في كتبه طريقة منهجية علمية لم تتسرّب إليها الخرافات والأساطير، فالبيروني كان مُجيدًا للغة العربية إلى جانب لهجته الأم الخوارزمية ولغته الأولى الفارسية ثم أضاف إلى ذلك

اللغة السنسكريتية واليونانية والسيريانية والعبرية ونبغ في الرياضيات وعلم الفلك فقد كان عالمًا ولغويًا ومؤرخًا ورياضيًا وجغرافيًا وطبيبًا صيدليًا وفيلسوفًا وعلى حدِّ تعبير "سميث" في كتابه "تاريخ الرياضيات" كان البيروني ألمع علماء زمانه في الرياضيات، والغربيون مدينون له بمعلوماتهم عن الهند. قضى البيروني وسط حياته في الهند عالما ومتعلما وباحثا عن الحق والحقائق مدة تسع أو عشر سنوات بعد 410 هـ / 1109 م حسب البحوث الحديثة أو أربعون سنة طبقا لبيان البيهقي والشهرزوري، وما ذكره قدري طوقان في تراث العرب العلمي سنة 1963 م، وابن بطوطة الذي كان الرحالة الوحيد الذي دخل الهند ومكث فيها قرابة عشر سنوات، وقد شكلت رواياته عن الجوانب السياسية والحضارية أهمية كبيرة لكل من تصدى للبحث عن تاريخ الهند، وقد عرف ببراعته في جلب القراء بما كان يختاره من بديع النكتة ودقة التعبير، وبما كان يتخذه شعارا له من الصراحة في القول، وقد اعتبر ابن جوزي ابن بطوطة الشيخ والفقيه وهو الثقة والصدوق وهو الباحث فرق الأمم وسبر سير العرب والعجم مما يؤكد عمق الرحالة ابن بطوطة.

سادسا ــ استطاع كل من المسعودي والبيروني وابن البطوطة وهم يبحثون في ثقافة الهند وجذورها التاريخية أن يربطوا علاقات مع أساتذة عديدين ولم يمنعهه إسلامهم من ذلك وكانوا بطريقة موضوعية يجمعون الآراء ويُحللوها ويقارنون بينها، فكانوا يتفهمون جيدا طباع الهنود ومواهبهم ويروهم ميالين إلى التأملات الواسعة شغوفين بالأرقام والكلمات التي يتيه فيه الخيال .

سابعا ــ عرف المسعودي كيف يصنع جو الحادثة المشوق فتبدو الرواية على يديه تعبيرا عن العصر الذي يؤرخه، وبذلك يضيف إلى السرد التاريخي الصرف المناخ الملائم له[1] وإن كان يؤاخذ عليه عدم الواقعية في كثير من الأحداث التي لم يتعرض إليها بالنقد ولا بالرد في رحلاته حتى أن الممعن في سرد حكاياته يكاد يجزم أنه يقبلها ولا يخامره أدنى شك في مصداقيتها.

أما البيروني فاتبع منهج الدراسة المقارِنة في مجالات العلوم المختلفة عند مناقشته الديانة الهندوسية وفلسفتها وعلى سبيل المثال عندما تناول الفلسفة الفيدية الهندوسية ، قارن تعاليمها بتعاليم

1 عبد الرحمن زياتي: **أدب الرحلة**، بيروت، د.ت، ص.37.

الفيثاغوريين الجدد والصوفياء المسلمين إنه لصحيح تماما في مقارنتـــه أفكـــار الصـــوفياء بـــبعض المعتقدات الهندوسية ويتجلى ذلك عند دراسة الهوية اللازمة لكل فلسفة ومن المؤلفين الذين نقل عنهم البيروني هم أبو زيد البستاني ، وأبو بكر الشبلي الشهيران في دراسة التصوف ومصادر أخرى عاد إليها البيروني من اليونانية والزرادشتية والمسيحية واليهودية والمانوية ولم يكتفِ البيروني بالمقارنـــة بين المجتمعات الأخرى والهند بل تعرض إلى العلاقات داخل المجتمع الهنـــد ســـواء أكانـــت تلـــك العلاقات بين النظم أو بين مختلف الفئات المكونة للمجتمع الهندي وأوضح مثال لذلك دراسة البيروني عن الطبقات في المجتمع الهندي وتحليله لأسباب وجود ذلك النظام ورسوخه بأن أرجعه إلى جـــذور سياسية ودينية واجتماعية وثقافية، وهذا العرض الجديد يجعل البيرونـــي بكـــل المقـــاييس مؤسســـا للأنثروبولوجيا في القرن الحادي عشر الميلادي انطلاقا من حبه للعلم ورغبته في أن يعيش مع قـــوم آخرين بدافع البحث عن حضارتهم وذكر ذلك في آخر كتابه مؤكدا أن ما ذكره سيكفي لكل فرد يريد التحدث مع الهندوس والنقاش معهم حول مسائل الديانة أو العلوم أو الأدب وحول مبادئ حضارتهم.

وعن ابن بطوطة فقد سار في سرد أخباره على نهج غالبا ما كان يلتزم به، حيث يبدأ بذكر اسم المدينة، ثم بدأ بوصفها في إيجاز إن كانت صغيرة ويترسّل إن كانت شهيرة، ثم يذكر حكّامها أو ولاّتها أو القائمين عليها، وكثيرا ما يأتي بنبذ مختصرة عن تـــاريخهم، وبعدئـــذ يســـتعرض بإيجـــاز قضاتها وعلماءها وخطباءها، ثم يتناول بالوصف أهم معالمها وآثارها ومساجدها ومدارسها وزواياها الصّوفية وما اشتهر بها من أضرحة للأولياء والعلماء، وكثيرا ما يُنهي وصفه لجُلّ المـــدن بحكايـــة طريفة أو واقعة غريبة أو موقف ما علق بذهنه.

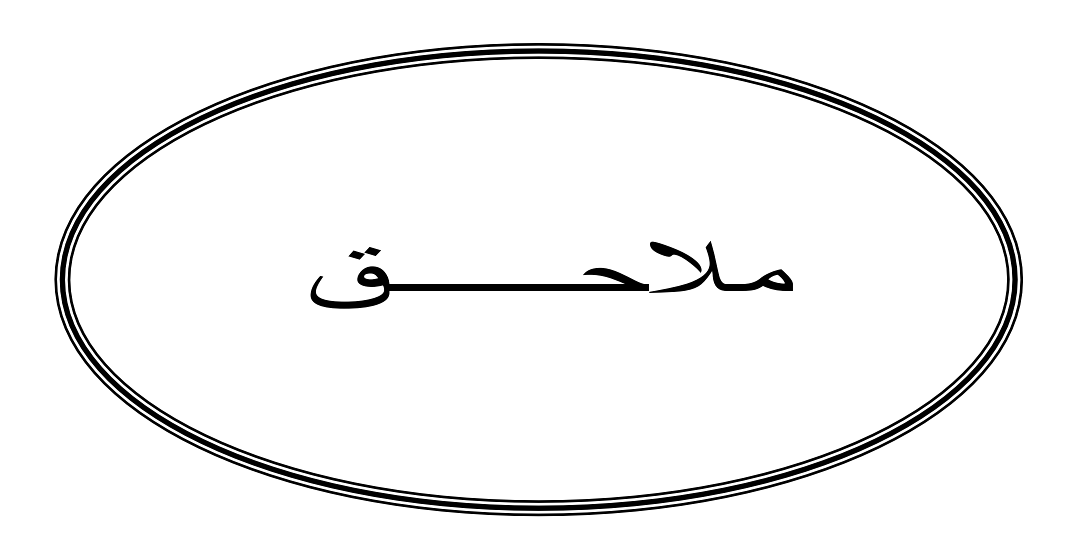
ثامنا ــ يتجلى الإسهام الحضاري للرحالة ضمن رحلتهم إلى الهند وتخليدها في مؤلفـــاتهم كتـــاب " مروج الذهب" و" التنبيه والإشراف" للمسعودي، و كتاب الهند الكبير أو " تحقيق ما للهند من مقولـــة معقولة في العقل أو مرذولة " الذي يعتبر دراسة سوسيولوجية لمجتمع الهند في زمن السلطان محمود الغزنوي، وكتاب " تحفة النظّار" لابن بطوطة حيث تميزت هذه الدراسة بعدة خصائص هي:

1 ــ التزامها بمنهج علمي في الدراسة والبحث.

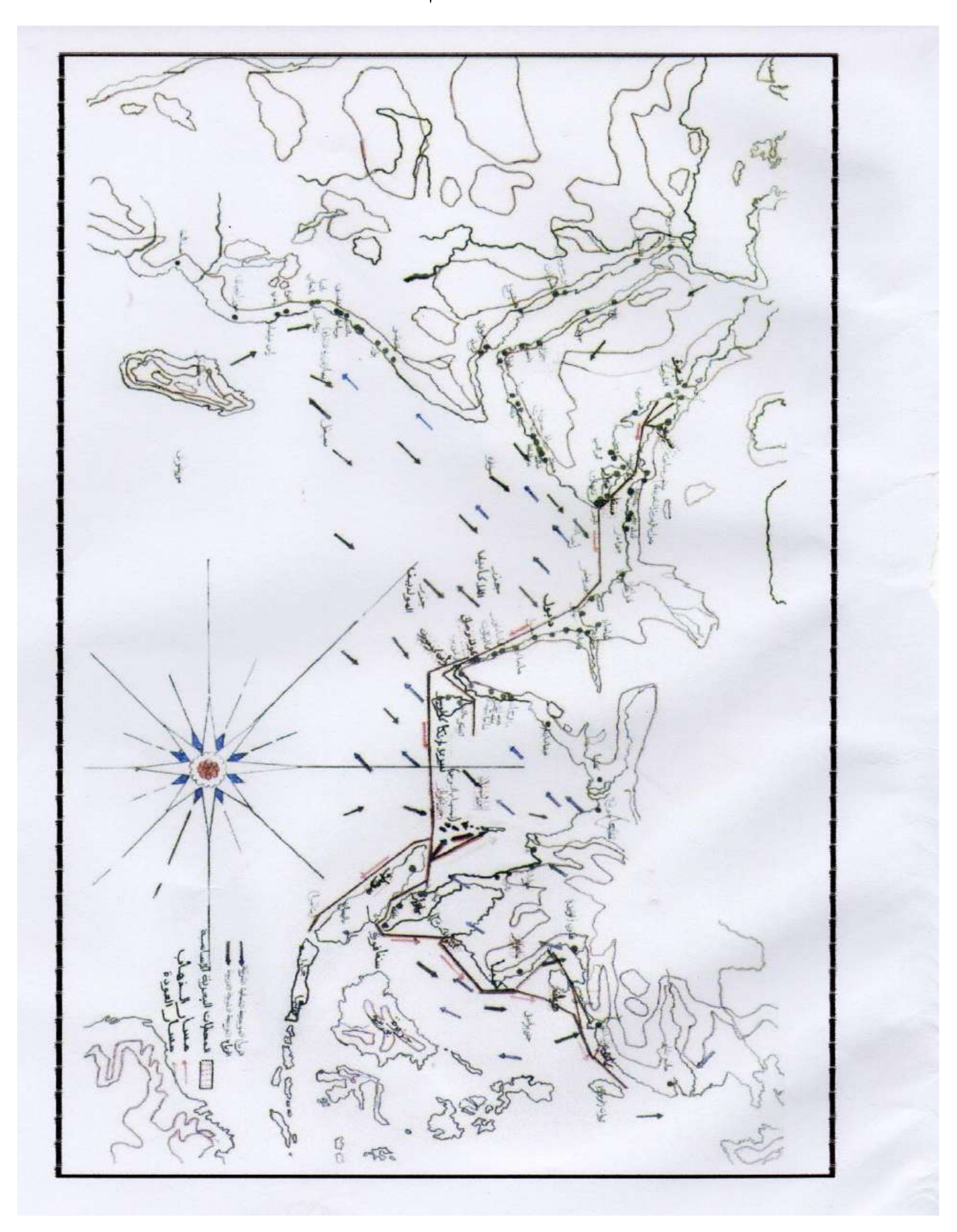
2 ـ دقة المعلومات التي حوتها الدراسة أثناء الرحلة وإحاطتها بكل جوانب الحياة في المجتمع الهندي، حيث لم يكتف الرحالة بدراستهم طبيعة الهند وجغرافيتها بل تعدى ذلك إلى دراسة مختلف السكان ونظمهم الاجتماعية وطرائقهم في العيش وعلاقاتهم المختلفة علاوة على دراسة لغات المجتمع المبحوث وثقافته وعاداته وتقاليده.

3 ـ النظرة النقدية التي يعرض بها الرحالة آراءهم، تدل على سعة اطلاعهم وتمكنهم من مختلف فنون البحث، علاوة على رغبتهم في عدم الاكتفاء بمجرد البحث والدراسة، وإنما ضرورة العمل على نقل المعلومات والنتائج المتوفرة إلى التطبيق حتى يتحقق حسن الاستفادة منها .

4 ـ عرض الرحلة الظواهر التي سعوا إلى دراستها في المجتمع الهندي بصورتها التي عايشوها عليها.


ملاحــــــــــق

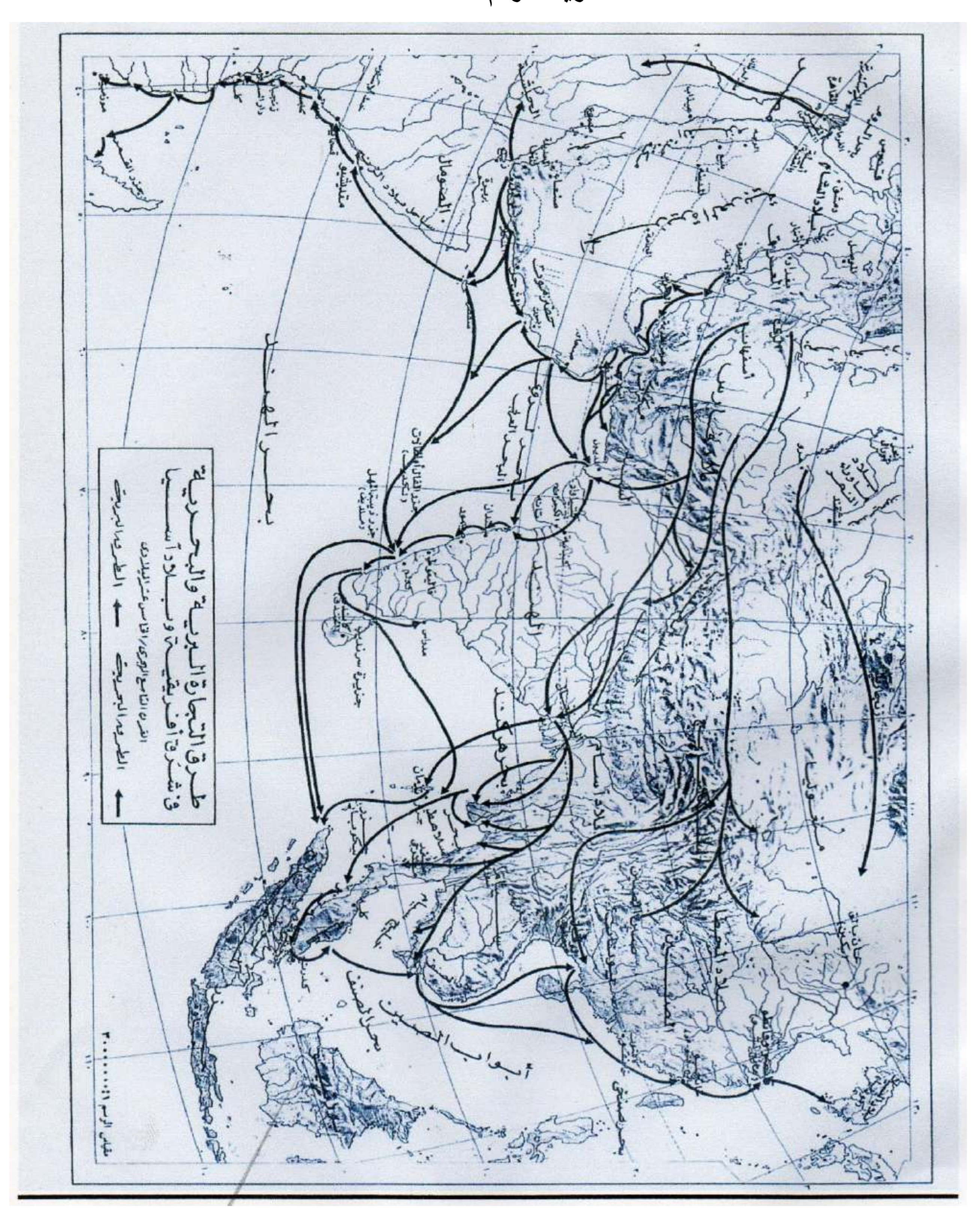
الخريطة رقم 01



مسار الرحلة البحرية التجارية من موانئ الخليج إلى ميناء كانتون في الصين في القرن 3هـ/9م.

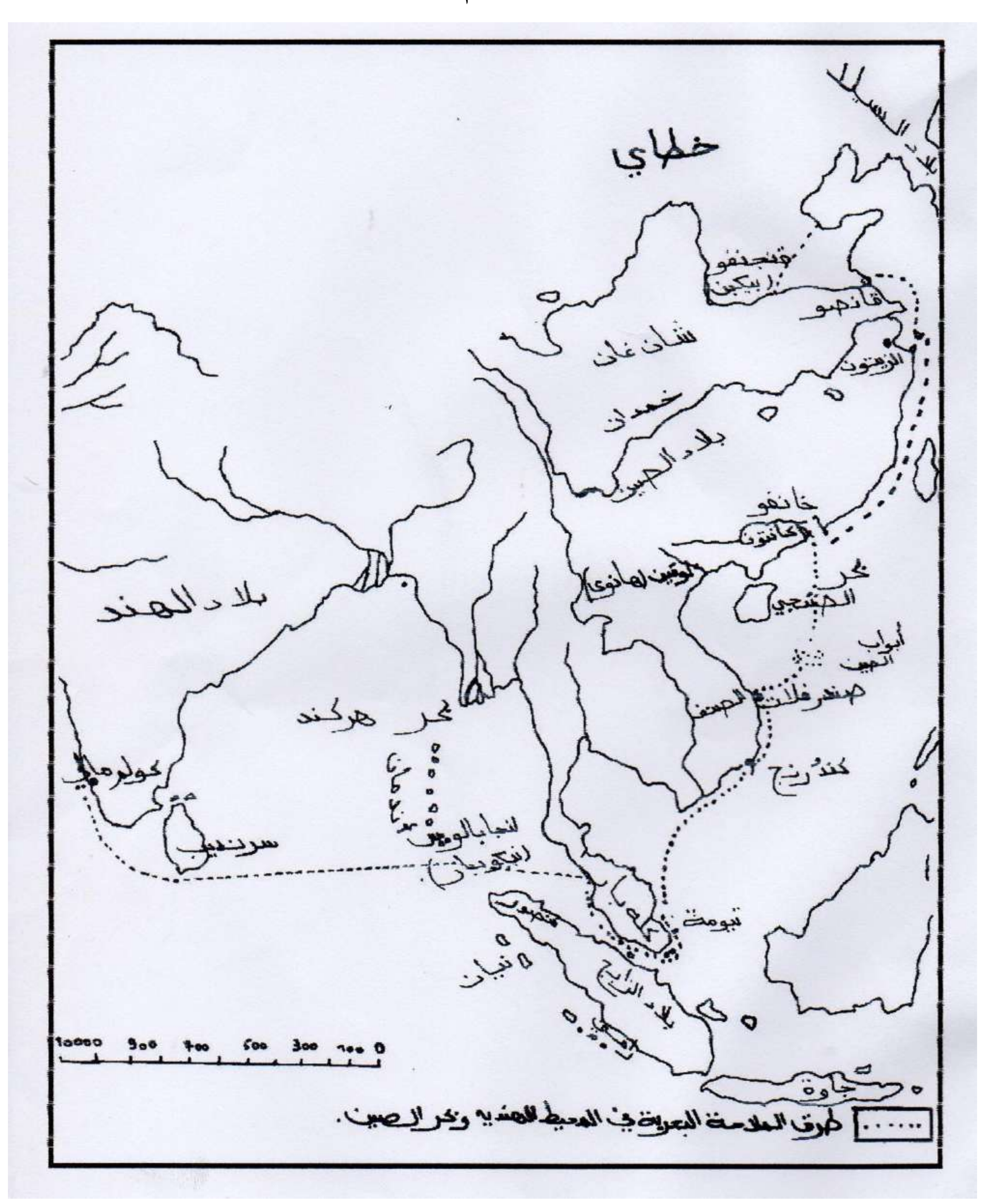
عن كتاب عمان وتاريخها البحري، ص90

الخريطة رقم: 02



عن كتاب حسين مؤنس، ص388

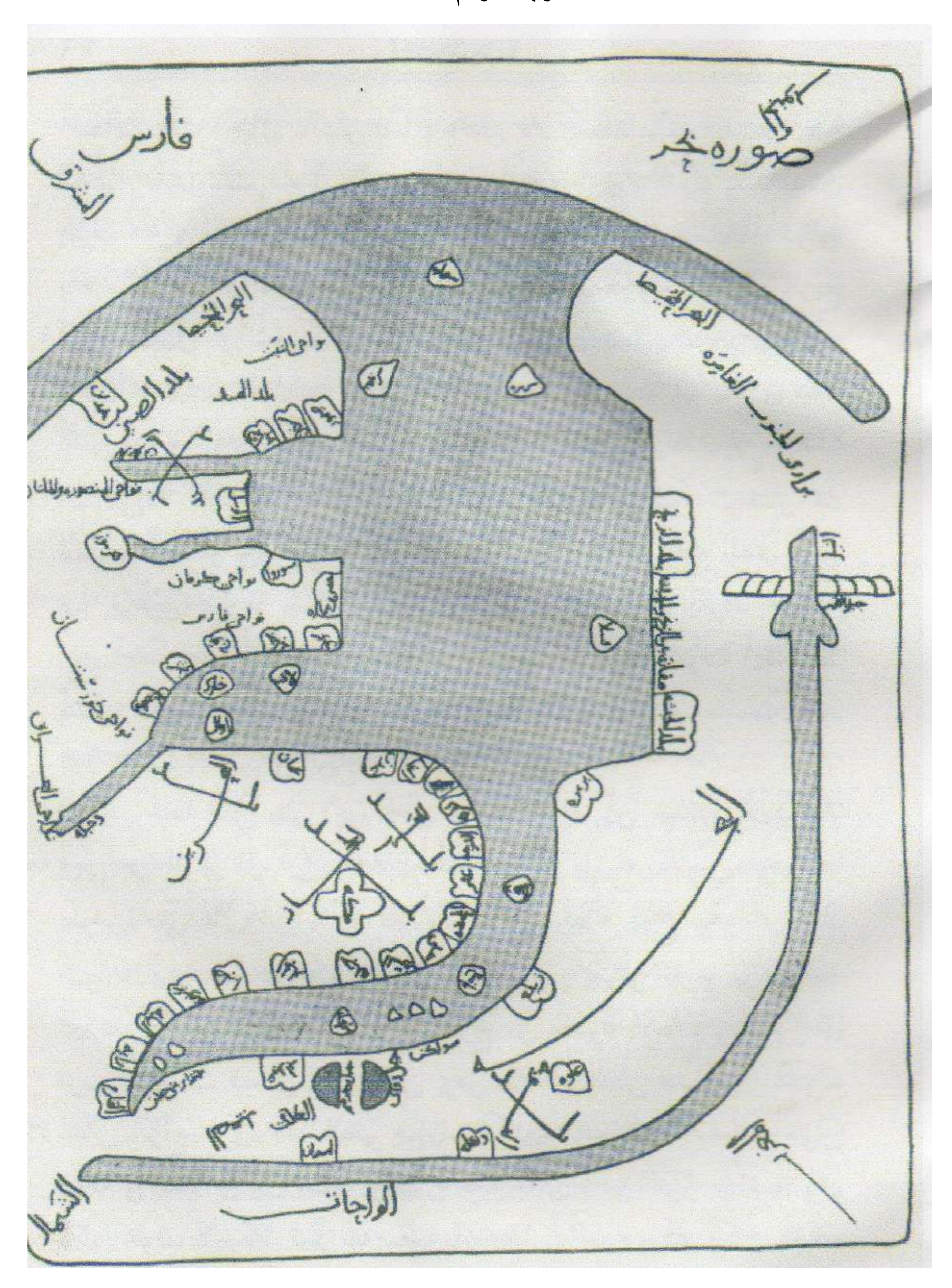
الخريطة رقم: 03



الشرق الأقصى من خلال وصف الرحال المسلمين في العصر العباسي

عن جورج فاضلو حوراني.، ص169

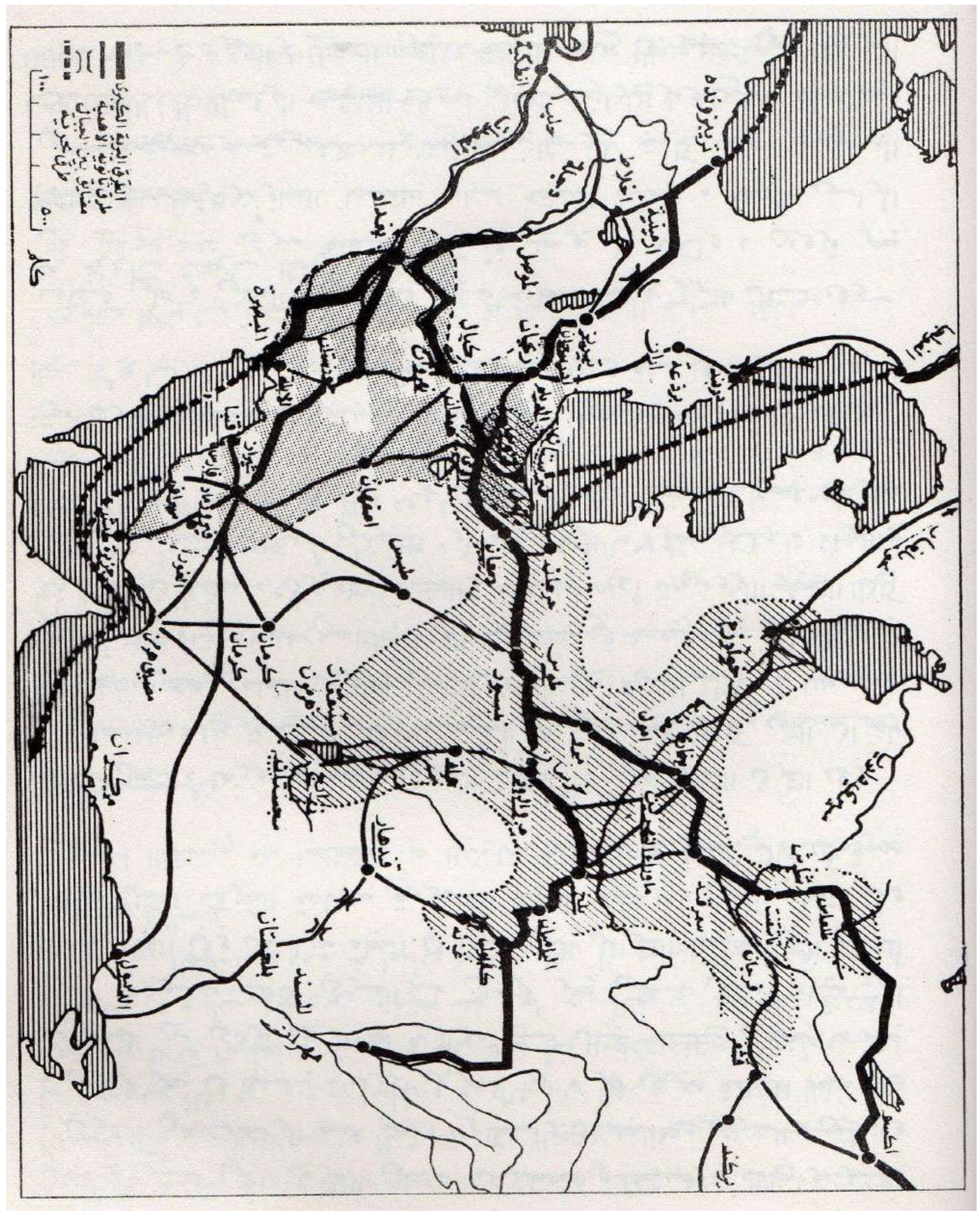
الخريطة رقم: 04



صورة بحر فارس من الأصل

عن كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي ج1، ص45

الخريطة رقم: 05

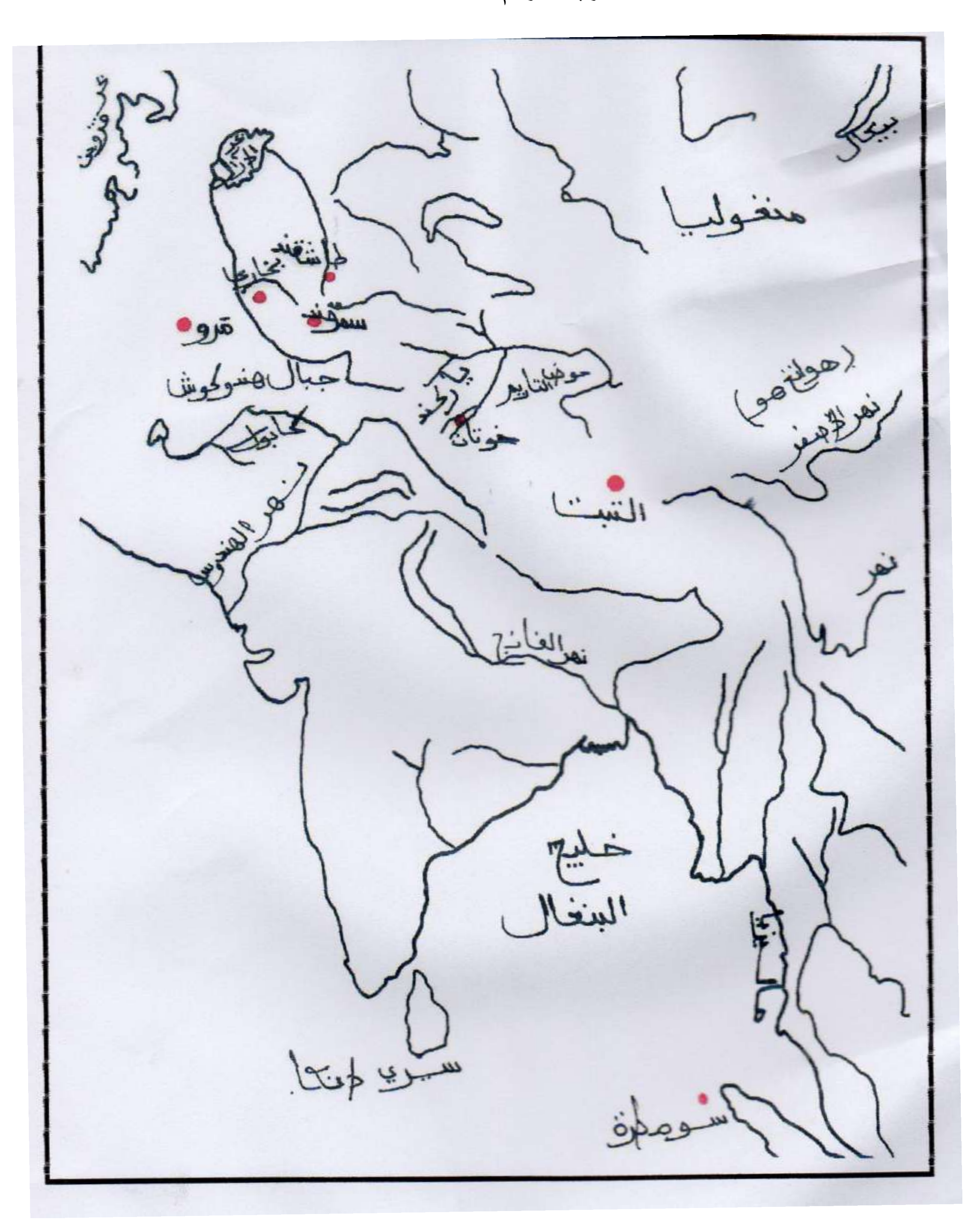


شبكة طرق الرحالة في آسيا خلال العصر الوسيط

من خلال: MAURICE LOMBARD

عن كتاب الإسلام في مجده الأول، ص54.

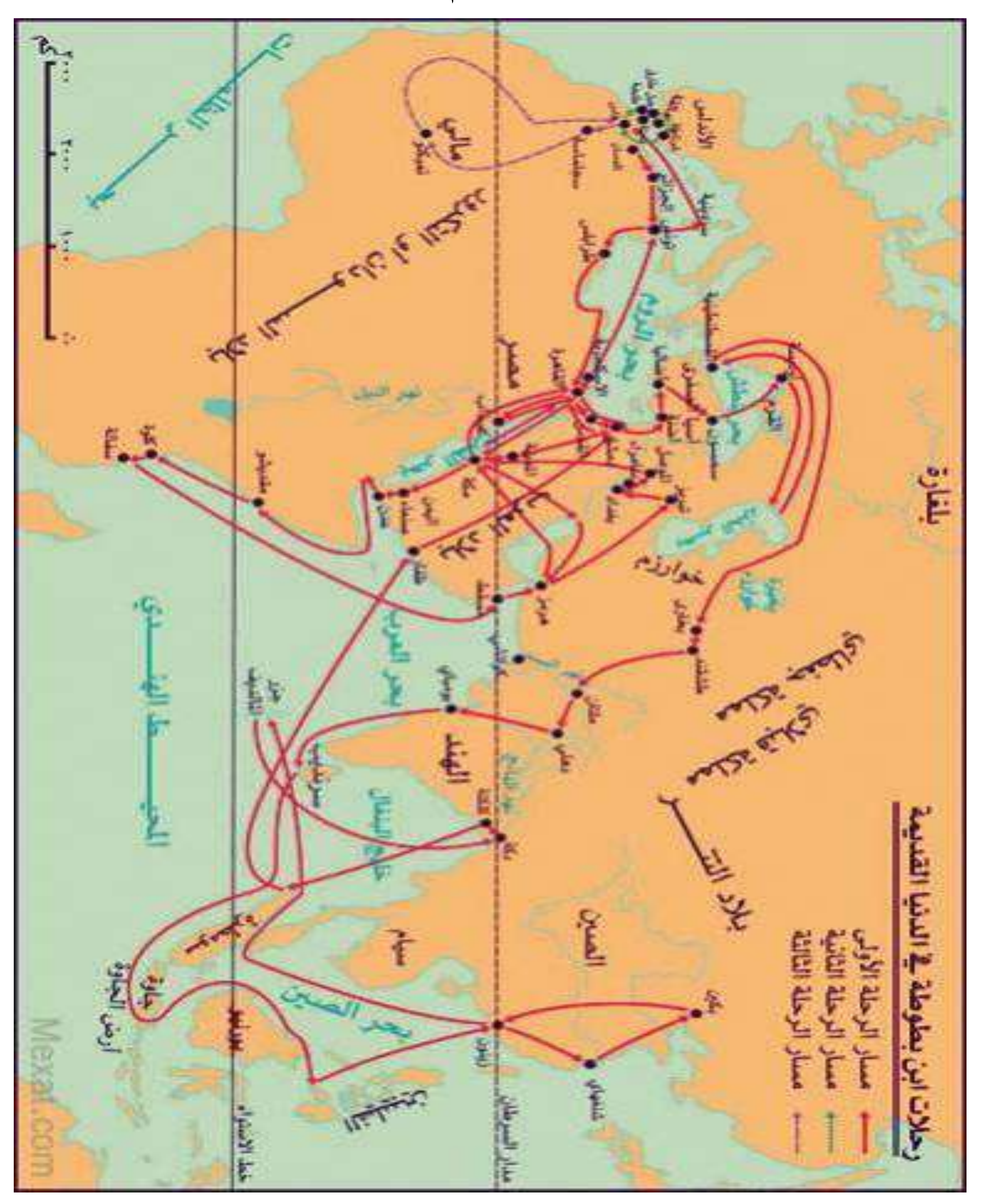
الخريطة رقم: 06



منطقة جنوب شرق آسيا

عن كتاب حدود العالم، ص197

الخريطة رقم: 07



المصدر: رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

تقديم وتحقيق ووضع الخرائط: د. عبد الهادي التازي. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية،

1417 هـ ـ 1997 م

قائمة المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

1 ـ المصادر:

-1	**ابن الأثير** (الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الملقب بعز الدين): ت.630 هـ / 1222 م، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف دقاق، ط.3، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ـ 1418 هـ - 1998 م.
-2	**الأصبهاني** أبو نعيم: أخبار أصبهان، د.ط.
-3	**الإصطخري** (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد): مسالك الممالك، دار صادر، بيروت ـ لبنان ـ 1927 م.
-4	**ابن أبي أصيبعة**: ت 668 هـ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط.الوهبية، مصر، د.ت.
-5	ابن **بطلان** المختار: خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري، تحقيق. شاحت يوسف وماكس مايرهوف، ط1، القاهرة، د.ت.
-6	**ابن بطوطة** (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي): ت. 779هـ / 1377م ، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي منتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ط.2، بيروت ـ لبنان ـ1402 هـ - 1982 م.
-7	**البغدادي** إسماعيل باشا: هدية العارفين في أسماء المؤلفين، ط.البهية، استانبول، 1955م.
-8	**البغدادي** الخطيب (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي):ت.463هـ، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1395هـ.
-9	**البلاذري** (أبو العباس): فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس ، مؤسسة المعارف، بيروت، 1407 هـ - 1987 م .
-10	**البيروني** (أبو الريحان): ت. 440 هـ / 1048 م الآثار الباقية عن القرون الخالية، اعتنى به سانتشاو ليبسيك، ط.2، مكتبة المثنى، بغداد ـ العراق ـ ودار الكتاب اللبناني، بيروت ـ لبنان ـ د.ت.

البيروني (أبو الريحان): ت. 440 هـ / 1048 م تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، تحقيق كارل إدوارد سخاو، مطبوعات جامعة فرانكفورت، 1993 م.	-11
البيروني (أبو الريحان): ت. 440 هـ / 1048 م تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة، ط. الدكن، الهند، د.ت.	-12
البيروني (أبو الريحان): ت. 440 هـ / 1048 م الصيدنة في الطب، تحقيق محمد سعيد- رنا إحسان إلهي، أكاديمية هامدارد، كراتشي ــ الهند ــ 1973 م.	-13
البيروني (أبو الريحان): ت. 440 هـ / 1048 م كتاب القانون المسعودي، ط.1، حيدر آباد، الدكن ــ الهند ــ 1371 هـ / 1954م.	-14
البيهقي (ظهير الدين): تاريخ حكماء الإسلام ، نشر وتحقيق محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ــ سوريا ــ 1365 هـ / 1946 م.	-15
الثعالبي (أبو منصور عبد الملك): يتيمة الدهر، ط.1 ، مطبعة الصاوي، 1353 هـ - 1934 م.	-16
الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ــ مصر ــ د.ت.	-17
الحسني عبد الحي: نزهة الخواطر، د.ط.	-18
حقي إحسان: تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، دار الرسالة، بيروت، 1978.	-19
الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الرومي البغدادي): ت.726هـ / 1283م: معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، القاهرة، 1357 هـ .	-20
الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الرومي البغدادي): ت.726 هـ /1283م: معجم البلدان، ط.2، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ــ لبنان ــ 1995م.	-21
ابن حوقل محمد: صورة الأرض، دار صادر، بيروت، د.ت	-22
ابن خلدون (عبد الرحمن أبو زيد): ت. 808 هـ / 1406 م، مقدمة ابن خلدون، تحقيق : أ.م كاترمير، ط. مكتبة لبنان، 1992.	-23
ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر): ت.681 هـ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1414 هـ - 1994 م.	-24

المرجع	الرقم
أبو دلف (مسعر بن المهلهل الخزرجي): الرسالة الأولى، تحقيق مريزن سعيد مريزن عسيرى، جامعة أم القرى، 1415 هـ.	-25
الذهبي (شمس الدين الذهبي): دول الإسلام، تحقيق. محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1974.	-26
الذهبي (شمس الدين الذهبي): سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط.1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405 هـ / 1985 م.	-27
ابن رستة أبو علي أحمد بن عمر: الأعلاق النفيسة، تحقيق م.ي.دي خويه، ط. لندن ـ بريطانيا ـ 1886 م.	-28
السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن محمد): الأنساب، ط.1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، الدكن ـ الهند ـ 1397 هـ / 1977 م.	-29
السيرافي (سليمان التاجر أبي زيد): القرن 3 هـ / 9 م سلسلة التواريخ ضمن أخبار رحلات العرب والفرس إلى الهند والصين في الجغرافية الإسلامية، منشورات معهد العلوم العربية الإسلامية، فرانكفورت، 1414 هـ - 1994 م .	-30
السيوطي (جلال الدين): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط.1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة ـ مصر ـ 1384 هـ - 1964 م.	-31
السيوطي (جلال الدين): تاريخ الخلفاء، الطبعة الرابعة، تحقيق. محي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1969.	-32
الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني): الملل والنحل، دار ابن حزم، لبنان، 1426 هـ - 2005 م .	-33
الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ- 2000م.	-34
ابن طباطبا (محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقة): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، د.ت	-35
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): ت. 310 هـ - 967 م تاريخ الأمم والملوك، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ- 1997 م.	-36
ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ط.الكاثوليكية، بيروت، لبنان، د.ت.	-37

-38	**العتبي** (أبو نصر): ت. 1248 هـ - 1036 م، تاريخ اليميني، القاهرة، 1386 هـ.
-39	**أبو الفدا:** تقويم البلدان، دار صادر، بيروت ـ لبنان ـ د.ت.
-40	**ابن فضلان** أحمد: رسالة ابن فضلان، تحقيق وتعليق وتقديم سامي الدهان، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، 1413 هـ - 1993.
-41	**ابن الفقيه:** مختصر كتاب البلدان، د.ط.
-42	**القزويني** (زكريا بن محمد): ت. 672 هـ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ـ لبنان ـ 1998 م.
-43	**الماروزي** (شرف الزمان الطاهر): فصول حول الصين والترك والهند، منتخبة من كتاب طابع الحيوان، ترجمه للإنجليزية فلامدير موزيكي، طبعة لندن، 1942 م .
-44	**ابن مسكويه:** تجارب الأمم، د.ط.
-45	**ابن منظور:** لسان العرب المحيط، دار لسان العرب، بيروت، د.ت .
-46	**المسعودي** (علي بن الحسين): ت. 346 هـ / 907 م التنبيه والإشراف، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة ـ مصر ـ 1942 م.
-47	**المسعودي** (علي بن الحسين): ت. 346 هـ / 907 م مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت-لبنان- 1403هـ-1972.
-48	**المقدسي** (أبو عبد الله): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق ي.دي خويه، ط.2، دار صادر، بيروت ـ لبنان ـ 1906 م.
-49	**المقريزي** (أبو العباس): الخطط، دار صادر، د.ت.
-50	**ابن النديم** (أبو الفرج محمد بن إسحاق): الفهرست، مطبعة الرحمانية، القاهرة، 1929م.
-51	**ابن هشام:** السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت ـ لبنان ـ 1998 م.

2 ــ المراجع:

-1	**الأفغاني** سعيد: أسواق العرب في الجاهلية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1993.
-2	**الأصفهاني** أبو الفرح: كتاب الأغاني، دار الثقافة، بيروت ــ لبنان، 1972.
-3	**أمين** أحمد: فجر الإسلام، ط.10، دار الكتاب المغربي، بيروت، 1969.
-4	**أوليري** دي لاس: الفكر العربي ومركزه في التاريخ، تر. إسماعيل البيطار، الطبعة الأولى، بيروت، الكتاب اللبناني الجديد، 1972.
-5	**بارتولد:** تاريخ الترك في آسيا الوسطى، دائرة المعلمة الإسلامية، د.ت.
-6	**بارتولد:** تاريخ الحضارة الإسلامية، تر. حمزة طاهر، ط.4، القاهرة ــ مصر ــ 1966 م.
-7	**بروكلمان:** (ت. 1376هــ/ 1956 م) تاريخ الأدب العربي، تر. الشناوي خورشيد يونس، ط. الاعتماد، القاهرة ــ مصر ــ 1933 م.
-8	**البغدادي** عبد اللطيف: كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق. أحمد غسان، الطبعة الأولى، دار قتيبة، دمشق، 1983.
-9	**بن شقرون** محمد بن أحمد: مظاهر الثقافة المغربية، مطبعة الرسالة، الرباط، 1982.
-10	**بن يامين** بن يوتة: رحلة بن يوتة الأندلسي إلى بلاد المشرق الإسلامي.
-11	**بوالو** جاك: الرحلة الطويلة في صحبة عالم مسلم خلال عالم مضطرب، رسالة اليونسكو، جويلية 1974 م.
-12	**جرجي** زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة ــ مصر ــ د.ت.
-13	**جواد** علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج.7، جامعة بغداد.
-14	**حبلوس** (مصطفى سالم عبد الله): أدب الرحلات عند العرب، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2009.
-15	**الحجمة** نواف عبد العزيز: رحالة الغرب الإسلامي وصورة الشرق العربي، دار للنشر والتوزيع، 2008.

-16	ابن **حزم**: الفصل في الملل والنحل، لبنان: دار ابن حزم، د.ت
-17	**حسنة** محمد عبيد: كتاب الأمة، المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات، العدد 156، رجب 1434 هـ ـ 2012 م، طبعة إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر.
-18	**الحسني** عبد الحي : نزهة الخواطر، د.ط.
-19	**حسني** محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت ـ لبنان ـ 1403 هـ - 1983 م.
-20	**حمدي** عبد الرحمن: الهند عقائدها وأساطيرها، دار المعارف، القاهرة، 1978.
-21	**الخربوطلي** علي: المسعودي "سلسلة نوابع الفكر العربي"، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1968.
-22	**ابن الخطيب** لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عنان، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1975.
-23	**خورشيد** أحمد فاروق: الهند القديمة في الأدب العربي القديم، دلهي ـ الهند ـ ندوة المصنفين، 1973.
-24	**رمضان** أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د.ت.
-25	**داربيليون** ج.أ.كرامرز: أخبار الصين والهند، تحقيق وتقديم وترجمة جان سوفاجيه، باريس، 2009.
-26	**الربعي** أبو الحسن: فضائل الشام ودمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. المجمع العلمي بدمشق، 1950.
-27	**روزنتال:** مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، تر. أنيس فريحة، بيروت ـ لبنان ـ 1961 م.
-28	**زكي** محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت ـ لبنان ـ 1401 هـ - 1981م.
-29	**زياتي** عبد الرحمن: أدب الرحلة، بيروت، د.ت.

-30	**زيادة** نقولا: الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار الكتاب العالمي، بيروت، 1987 م.
-31	**الزركلي** خير الدين: الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ــ لبنان ــ 1992 م.
-32	**سرور** محمد جمال الدين: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتــراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الطبعة الرابعة، القــاهرة، دار الفكــر العربــي، 1396 هـــ ــ 1976م.
-33	**السويكت** سليمان بن عبد الله: منهج المسعودي في كتابة التاريخ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، الطبعة الأولى، 1984، ص. 27.
-34	**سيدو** أمين سليمان: أبو الريحان البيروني، مطبعة الملك فيصل، 1999.
-35	**سيديو** ل. أ: تاريخ العرب والعالم، تر. عادل زعيتــر، ط.2، القــاهرة ــ مصــر ــ 1389 هـــ – 1969 م.
-36	**سيرغني** أتوكاريف: الأديان في تاريخ شعوب العالم، تر. أحمــد م. فاضــل، الأهــالي للطباعة والنشر، سوريا، 1998 م.
-37	**الشابي** علي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، دار النشر، تونس، 1965 م.
-38	**الشامي** صلاح الدين: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، الطبعة الثانية، دار المعــارف، الإسكندرية، 1999.
-39	**الشحات** علي أحمد: أبو الريحان البيروني ، دار المعارف، مصر، د.ت.
-40	**ضيف** شوقي: الرحلات، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1979.
-41	**الطوسي** نظام الملك: سير الملوك أو سياسة نامة، تــر. يوســف بكــار، دار المناهــل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1428هـــ – 2007م.
-42	**عبد الحليم** محمود عثمان عبد المنعم يوسف: الفلسفة الهندية، مطبعة المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
-43	**العربي** إسماعيل: تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986

عفيفي محمد الصادق: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1976 ـ 1977.	44-
عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، الطبعة الثاني، مكتبة الملك فهد، الرياض، 1417 هـ/1993م	45-
العوامري أحمد وجاد الله محمد: مهذب رحلة ابن بطوطة، الطبعة الأميرية بالقاهرة، 1933.	46-
فروخ عمر: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ط. دار الكتب، بيروت ـ لبنان ـ 1972 م.	47-
فليب حتي: تاريخ العرب مطول، الطبعة الرابعة، بيروت، 1965.	48-
الفندي محمد جمال و إبراهيم إمام: أحمد البيروني ـ أعلام العرب، دار الكتاب العربي، مصر، 1968م.	49-
فوزي حسين: حديث السندباد القديم، دار الكتاب اللبناني، 1977	50-
الفوال صلاح مصطفى: المدخل لعلم الاجتماع، دار غريب، القاهرة، 1420 هـ - 2000 م.	51-
فيلسيان شالي: موجز تاريخ الأديان، تر. حافظ الجمالي، دار طلاس، 1994 م.	52-
قدري حافظ طوقان: العلوم عند العرب، مكتبة مصر، 1956 م.	53-
الكتبي ابن شاكر: فوات الوفيات، مطبعة بولاق، القاهرة ـ مصر ـ د.ت.	54-
كحالة عمر رضا: العلوم البحتة في العصور الإسلامية، مطبعة الترقي، دمشق ـ سوريا ـ 1392 هـ - 1972 م .	55-
كراتشكوفسكي إغناطيوس يوكيانوفتش: البيروني وجغرافيو القرن الحادي عشر، د.ط.	56-
كراتشكوفسكي إغناطيوس يوكيانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر. صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1963 م.	57-
كرادي فو: مفكرو الإسلام، ط.2 ، بول غوتنر، باريس ـ فرنسا ـ 1921 م.	58-

59-	**كرد** علي محمد: كنوز الأجداد، ط.الترقي، دمشق ــ سوريا ــ 1370 هــ – 1950م.
60-	**لوبون** غستاف: حضارة العرب، الطبعة الرابعة، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى الباي وشركاه، 1964.
61-	**متز** آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تر. محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة ــ مصر ــ 1999 م.
62-	**محمود** أحمد: حضارة مصر الإسلامية العصر الطولوني، دار الفكر العربي، القاهرة، دت.
63-	**المشهداني** ياسر عبد الجواد: الهند من خلال رحلة ابن بطوطة، دار نشر المعرفة، الرباط.
64-	**ابن مصطفى** أحمد : مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط. دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الدكن ــ الهند ــ 1305 هــ
65-	**مغيربي** صالح: رحالة الغرب الإسلامي من القرن 12 م إلى القرن 14 م ، تر. عبد النبي ذاكر، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، مطبعة آنفو ــ برانت، فاس، 2005.
66-	**مقبول** أحمد: العلاقات الهندية العربية ، تر. نقولا زيادة ، ط. بيروت، دار المتحدة للنشر، 1974.
67-	**مكاوي** رحاب خضر: أبو الريحان البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ، ط. دار الفكر العربي، 1998 م.
68-	**مكاوي** رحاب خضر: رحلة أبي يونة الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي، دار ابن زيدون، لبنان، 1996.
69-	**المنجد** صلاح الدين: المنتقى من دراسات المستشرقين، مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ــ مصر ــ 1955 م.
70-	**النباهي** (أبو الحسن علي بن عبد الله ابن الحسن النباهي الجذامي المالقي): المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا = تاريخ قضاة الأندلس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5،

	1403هـ -1983م.
71-	**النـــدوي** إسماعيل: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
72-	**الندوي** شفيق أحمد خان: الهند كما يراها أبو الريحان البيروني.
73-	**نفيس** أحمد: جهود المسلمين في الجغرافيا، تر. فتحي عثمان، دار القلم، القاهرة.
74-	**النمر** عبد المنعم: تاريخ الإسلام في الهند، ط. 1، دار العهد الجديد، مصر، 1378 هـ - 1959 م.
75-	**الهروي** علي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق. علي عمـــر، الطبعـــة الأولـــى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
76-	**هناش** رائد علي هاشم: العلاقات بين الحجاز وإمارات الهند، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 2000.
77-	**وهبة** رومية: الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، 1979.
78-	**وهيبة** عبد الفتاح: جغرافية العرب في العصور الوسطى.
79-	**يسعد** أحمد: ثقافة الهند من خلال رحلة البيروني، دار الأمل، 2014.
80-	**أبو يعلـــى** القاضي محمد بن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، دار المعرفة للطباعة والنشـــر، بيروت، د.ت.

3 ــ المراجع باللغة الأجنبية:

1-	**Alberuni International Congress**,Pakistan, 1973 , Actes / Presented On The Occasion Of Al-Biruni I,C, November 26,1973, Thru, December 12, 1973 .
2-	**André Bareaux**: Bouddah , Dictionnaire Du Boudhisme Dans Encyclopeadia Universales Albin Michel , Paris , 1999 .
3-	**D.J.Boilot** : L'OEUVRE D'Al-Beronie, Essai Bibliographiaue De L'institut Dominican D'etudes Orientales, Le Caire , 1955 .
4-	**Edward C.Sachau** : Alberuni's India , English translation With Notes and Indices by ,Ed.S Chand c°, New Delhi : 1968.
5-	**Edward C.Sachau**: Introduction To The India .
6-	**Edward C.Sachau**: preface To Beruni's Chronology Of Ancient Nation , London , 1879 .
7-	**Ferrand Gabriel**: Etude sur la géographie Arabo-Islamique Frank furt university 1985.
8-	**Ferrand Gabriel**:.Relation de voyages et textes géographique arabe. Persans et Turks relatifs à l’extre mo-arientes du vie au x vie siècles,(Frankfurt),1993
9-	**George Sarton**: Introduction To The History Of Science, From Homer To Umer Al- Khayyam , Baltimore , 1950 .
10-	**Grousset (Réné)** : Histoire de L ' asie, Presse universitaire de France , Paris ,1941 .
11-	**Kennedy** : Dictionary Of Scientific Biographie, EDI. Charles Scribner's, New York , 1970 .
12-	**Maqbul Ahmed** : Al Musudi on the King of India(MMCV) ,P.97
13-	**M C.Crindle**.Ancient India As Described By Megasthenes And Sirian, ED, By Ram Chandrajaim , New Delhi , 1990 .
14-	**Reinaud J.M**: Mémoire Géographique Historique et scientifique sur l'Inde antérieurement au milieu du XI eme del'ère Chrétiénné d'après les écrivains Arabes, Persans et Chinois. Frank furt university 1998.
15-	**Raverty.H**: The mithan of sind and its tributaries, JRSB,1979
16-	**At thomson**:The Gazetter of India, history and culture, by Aroon , paris , Press (India) 1973 .
17-	**William Wilson**: A history of British India , Longmans Green, London .

4 ــ الموسوعات والقواميس:

1-	**الموسوعة الإسلامية للعلوم الاجتماعية:** صلاح مصطفى الفوال.
2-	**موسوعة الأديان في العالم.**
3-	**موسوعة الإسلام الإنجليزية.**
4-	**موسوعة المستشرقين**، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت ــ لبنان.
5-	**موسوعة دائرة المعارف الإسلامية.**
6-	**موسوعة علماء العرب**، تحقيق يوسف فرحات، ط.1، تراد كسيم، جنيف، 1986م.
7-	**المنجد في اللغة والأعلام:** ط.12، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ــ لبنان ــ 1982.

5 ــ المجلات والمقالات:

1-	**أبو الكلام آزاد:** أبو الريحان البيروني وجغرافية العالم، **مجلة ثقافة الهند**، نيودلهي ــ الهند ــ جوان 1952 م .
2-	**أحمد زبير:** العرب والإسلام في ولاية تامل نادو، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 55، العدد4، 2004 م.
3-	**البرني حسن:** البيروني وأعماله العلمية، تعريب محمد عامر الأنصاري، **مجلة ثقافة الهند**، العدد سبتمبر 1953 م.
4-	**البرني حسن:** جهود المسلمين في الجغرافيا، العدد سبتمبر 1952.
5-	**الدمرداش أحمد سعيد:** الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني، **الرسالة**، العدد 3، يوليو 1964 م.
6-	**الساداتي أحمد محمود: تراث الإنسانية**، المجلد 2، العدد 3، القاهرة ــ مصر ــ 1965 م
7-	**العزواي صالح مهدي:** البيروني حياته وفكره، **المورد**، المجلد2، العدد1، 1973 م.
8-	**أيم أيس خان:** البيروني رائد الدراسات الهندية، تر صهيب عالم، **مجلة ثقافة الهند**، العدد 56، مارس ــ أفريل 2005 م .
9-	**ج.رولنج:** الهند في الأدب والفكر الأوروبي، تر. جلال سعيد الحفناوي، **مجلة ثقافة**

	الهند، المجلد 57، العدد3 .
-10	**حبيب الله خان:** التراجم العربية للمؤلفات الهندية، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 50، العدد1–2، 1999 م .
-11	**سيد إحسان الرحمن:** الإسلام ودوره الثقافي في الهند، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 54، العدد 3–4 .
-12	**شيث محمد إسماعيل الأعظمي:** الجوانب الدينية والاجتماعية للعلاقات الهندية العربية، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 52، فيفري 2001 م.
-13	**كفيل أحمد القاسمي:** الهند والهنود في نظر المسعودي ، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 52، العدد2، 2001 م.
-14	**مجلة المؤرخ العربي:** ط.3، تعداد العراق،العدد 4، 1980 م.
-15	**محمد سعود عالم القاسمي:** ثقافة الهند في عهد السلاطين، تر أورنك زيب الأعظمي، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 57، العدد 1، 2006 م.
-16	**محمد عمر:** المجتمع الهندي الإسلامي تبادل ثقافي، تر أورنك زيب الأعظمي، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 54، العدد 3–4 .
-17	**محمد قطب الدين:** الزيجة الهندوسية عادات وتقاليد، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد55، العدد، 1، 2004 م.
-18	**محمد مظفر:** النشاط العلمي في كشمير في عصور تاريخها القديم، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 50، العدد1–2 ، 1999م.
-19	**نصر سيد حسين:** فيلسوف منطلق، **رسالة اليونسكو**، العدد 157، جويلية 1974 م.

فهرس الأشخاص

فهرس الأماكن

البحر الميت	117
البحرين	13،14،92،98،142،217
بخارى	34،35،54،145،162
بدر	6
البدهه	33
براهما بوترا (نهر)	228
برزة	88
برقة	68
برلين	127
بسطام	217
البصرة	14،18،93،98،100،106،108،109،110،133،142،216، 219
بغداد	24،31،41،42،54،63،70،73،75،91،92،93،94،95،96، 97،98،99،100،101،104،105،106،108،109،110،112 ،116،117،129،138،142،143،204،216،218،219،221 ،225،232
البقيع	88
بهلمال	200
ديار بكر	98،142
ديار ربيعة	98،142
بلخ	116،165،201
بلنسية	61
البلهرا	206
بُنت	8
البنجاب	165،167،178
بورشوار	167
بومباي	13،18،138

(كانتون)	21
خراسان	23،28،40،73،98،116،118،134،142،147،181،206، 232
الخزر	41،52،54
الخزر(بحر) قزوين	116،124
الخليج العربي	7،8،18،124،217،218،237
الخليل	60،87
خمدان	22،23
خوارزم	54،55،145،147،148،149،150،152،153،154،155، 162،163،165،175،217
الديبل	227
خور الديبل	13،135
خوزستان	39،99،112
خيبر	205
دارا	223
دانيمركة	8
الدلتا	216
دمشق	23،60،63،64،73،74،75،88،91،108،117،216،218، 221
دمياط	78
دهلي	213،218،222،223،226،228
دولة آباد	228
دومة الجندل	6
دون بوز	167
الديلم	39،41
ذي مجاز	5
راجيكز	167

هفدرة	116
الهملايا (هضبة)	232
الهند	3،4،8،9،10،13،15،17،18،19،20،21،22،25،26،27، 29،31،33،34،35،36،37،38،42،43،44،45،49،53،57، 59،60،65،69،79،80،85،111،112،113،114،119،129، 131،132،133،134،135،136،138،139،140،141،142، 154،158،162،163،164،166،168،169،171،172،174، 175،176،177،178،179،181،183،184،188،189،190، 191،192،195،198،199،200،201،202،203،204،206، 207،208،209،217،218،220،221،222،225،226،227، 228،229،230،232،233،234،236،237،238
الهند (بحر)	137
هيت	115
واسط	142
يافا	71
اليمامة	10،98،217
اليمن	5،8،9،10،17،85،92،115،217
ينبع	66
يهندي	167
اليونان	17،200،202،209،236

فهرس القبائل والشعوب والأقوام والأمم

الفيدا	193
الفينيقيون	2،8
القبائل التركية	37
القبائل الصينية	37
القبائل الهندية	37
قبط	42
قريش	4،5،9
القرامطة	92،93،98،115،191
بنو قينقاع	6
كشتر	194،195،196،199
الكفار	43،82
لواتة	213
المانوية	239
المجوس	42،50،121
المغول	144،225،227
النورمنديون/النورمد	50،121
المسلمون	2،9،11،14،15،17،18،19،20،21،25،33،37،40،48،49،50 ،51،52،54،55،57،59،60،64،71،77،81،82،83،85،86،87 ،88،98،100،113،117،121،124،129،160،170،171،172 ،177،189،190،191،192،202،205،211،227،،229،230، 237،238
المرينيون/بني مرين	225
المسيحيون	64،71
الملة المسيحية	88،196،239

فهرس الموضوعات